المدخل

لابن الحاج

أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدرى
المالكى الفاسى
المتوفى فى ٧٣٧ هجرية

الجزء الثالث

مكتبة دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فى ذكر آداب المجاهد وكيفية نيته وهديه

قد تقدم رحمنا الله وإياك آداب العالم وهديه وما احتوت عليه نيته فالمجاهد وغيره تبع له فى ذلك كله الا شيئاً قليلا اختص به العالم وشيئاً قليلا اختص به المجاهد يقع ذكره ان شاء الله تعالى . ولتعلم أن الجهاد ينقسم الى قسمين جهاد أصغر وجهاد أكبر فالجهاد الأكبر هو جهاد النفوس لقوله عليه الصلاة والسلام (هبطتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر) والكلام عليه يأتى ان شاء الله تعالى فى ذكر آداب الفقير المنقطع . والكلام هنا انما هو على الجهاد الأصغر وهو جهاد أهل الكفر والعناد وهو من أجل الطاعات وأعظمها . وقد تقدم أن أفضل الأعمال طلب العلم لان به يعرف المجاهد فضيلة الجهاد وكيف يجاهد وبماذا يصح له الجهاد وبماذا يفسد وكذلك غيره من أمور الدين فكان أفضل الأعمال لما جاء فى تفضيله فى الحديث الصحيح والحديث ليس على عمومه لان ذلك راجع الى أحوال الناس فرب شخص ليس فيه أهلية لطلب العلم وهو قادر على الجهاد لما فيه من فضل القوة والشجاعة والاقدام فالجهاد فى حق هذا يتأكد أمره وآخر يكون فيه ذكاء وفهم وحفظ وتحصيل للمسائل وهو ضعيف فى نفسه ليس له قوة على الضرب والطعن فطلب العلم لمثل هذا يتعين وقد يتعين عليه الجهاد بحسب حال الوقت . وبالجملة فالجهاد فيه فضل كبير جاء به الكتاب العزيز والحديث الصحيح . لكن ينبغى للمجاهد أن لا يدخل فى الجهاد حتى يسأل أهل العلم عما يلزمه فى جهاده ان لم يعلمه . لقوله عليه

الصلاة والسلام (طلب العلم فريضة على كل مسلم) قال العلماء المحققون فى معناه ماوجب عليك عمله وجب عليك العلم به انتهى فيعرف أولا الأحكام اللازمة له وحينئذ يدخل فيه فيبدأ بما ذكره علماؤنا رحمة الله عليهم من الأحكام اللازمة فمن ذلك أنهم قالوا شرط وجوب الجهاد سبعة وهى أن يكون مسلما عاقلا بالغا ذكراً حرا مستطيعا بصحة البدن والمال وفرائضه ستة النية وطاعة الامام وترك الغلول والوفاء بالأمان والثبات عند الزحف وأن لايفر واحد من اثنين

فصل فى الغنيمة

والغنيمة يستحقها من اتصف بعشرة شروط السبعة المتقدم ذكرها وأن يكون خرج للجهاد لا للتجارة و لا للاجارة وأن تكون الغنيمة حصلت بالقتال أو ماأوجف عليه بالخيل والركاب

فصل فى حكم الاسارى

والامام مخير فى الاسارى بين خمسة أشياء القتل والاسترقاق والمن والفداء والجزية

فصل فى الأوصاف الموجبة للجزية

الجزية واجبة بعشرة أوصاف الكفر والاقامة عليه بدار الاسلام وأن يكون عاقلا بالغا ذكراً حرا غير معتق لمسلم قادرا على أدائها ولا يكون قرشيا ولا مرتدا

فصل فى حكم المرتدين

دار المرتدين تفارق دار الحرب من أربعة أوجه أحدها أنهم لايهادنون على الاقامة ببلدهم الثانى أنهم لايصالحون على مال يقرون به على ردتهم الثالث لاتسترق رجالهم ولا تسبى نساؤهم الرابع لايملك الغانمون أموالهم وهى أيضا تفارق دار الاسلام من أربعة أوجه أحدها أنه يجوز قتالهم مقبلين ومدبرين

كالمشركين الثانى اباحة دمائهم أسرى وممتنعين الثالث أن أموالهم تصير فيئاً للمسلمين الرابع بطلان مناكحتهم

فصل فى قتال الفئة الباغية

وهى التى تفارق الامام و رأى الجماعة وتنفرد بمذهب مبتدع وتعتزل بدار و يفارق قتالهم قتال المشركين من ثلاثة عشر وجها . أحدها أنهم يقاتلون بنية ردعهم ولا يتعمد به قتلهم . الثانى يقاتلون مقبلين و يكف عنهم مدبرين . الثالث لايجهز على جريحهم . الرابع لاتقتل أسراهم . الخامس لاتسبي نساؤهم . السادس لاتسبي ذراريهم . السابع لاتغنم أموالهم . الثامن لايهادنون على الاقامة ببلدهم . التاسع لايصالحون على مال يقرون به على بدعتهم . العاشر لايستعان على قتالهم بمشرك الحادى عشر لاينصب عليهم الرعادات . الثانى عشر لاتحرق عليهم بيوتهم . الثالث عشر لاتقطع أشجارهم

فصل فى حكم المحاربين

قتال المحاربين كقتال الفئة الباغية فى عامة أحوالهم الا فى خمسة أشياء يخالفونهم فيها . أحدها أنهم يقاتلون مقبلين ومدبرين . الثانى يجوز أن يتعمد فى الحرب قتلهم . الثالث أنه يجوز حبس أسراهم لاستبراء حالهم . الرابع أنهم ضامنون لما استهلكوه من دم أومال فى الحرب وغيره ولا يجوز ذلك فى الفئة الباغية بعد انجلاء الحرب . الخامس أن ماأخذوه من خراج وصدقات فهو كالمأخوذ غصبا فعلى من أخذه من يده غرمه . فاذا تحصل عنده معرفة ماذكر فليكن عالما بأحكام صلاة الخوف فى الحالتين من قتال وغيره وكيفية مايلزمه من ذلك كله وكذلك يتعين عليه معرفة أحكام التيمم وفى أى وقت يلزمه و فى أى وقت يحرم عليه ومسائله . وقد تقدم بيان هذا عند ذكر غسل المرأة فى بيتها وكذلك

ينبغى له أن يعرف أحكام صلاة المسافر وفى أى وقت يقصر وفى أى وقت يتم وذلك كله موجود فى كتب الفقهاء متيسر على ألسنتهم لمن جاء اليهم مستفتيا لأن الصلاة هى عماد الدين وبها قوامه فاذا كان المجاهد يخل بها أو بركن من أركانها كان تركه للجهاد أولى به بل أوجب عليه اذا لم يتعين. فاذا تعين والحالة هذه كان عاصيا وان كان مجاهدا. وهذه مسئلة قد عمت بها البلوى لأنا نرى ونباشر من يخرج الى الجهاد وغالب أحوالهم عدم الفقه وعدم المعرفة بكل ماذكر أو باكثره وقل من تجده منهم يجتمع بأحد من أهل العلم ويسأل عما يلزمه من الاحكام فيما ذكر سيما صلاة الخوف التى مابقيت تعرف عندهم فى الغالب ولا تذكر الا فى كتب الفقهاء كأنها حكاية تحكى سيما صلاة المسايفة فانها كادت لاتعرف أيضا لعدم فاعلها وقلة السؤال عنها فيخرج المجاهد وهو عند نفسه أنه فى طاعة وهو يقع فى مخالفات جملة لعدم التلبس بمعرفة ماذكر وقد يكون سببا الى وقوع الرعب فى قلبه من العدو وانهزامه عند رؤيته فان العدو انما يستعدله باقامة هذا الدين. قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ قال علماؤنا رحمة الله عليهم نصر العبد لربه هو اتباع أمره واجتناب نهيه فاذا فعل ذلك كان سببا لنصرة الله تعالى له وأمنه مما يخاف سيما والمجاهد انما يجاهد لأجل الدين والصلاة هى عماده وبها قوامه وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاءه كتاب من بعض جيوشه بالشام وهم يخبرونه فيه بأنهم قد افتتحوا البلدة التى نزلوا بها وكان الحرب بينهم وبين أهلها من أول النهار الى الزوال فبكى حتى بلت دموعه لحيته فقيل له أتبكى والنصر لنا فقال والله ماالكفر يقف أمام الاسلام من غدوة الى الزوال الا من أمر أحدثتموه أنتم أو أنا. فانظر الى ماقرره عمر رضى الله عنه مانظر فى النصر وعدمه الا بصلاح الحال وفساده فيما بين العبد

وربه فأين هذا الحال الذى ذكر من حال أكثر الناس اليوم فى كونهم يخرجون الصلاة عن وقتها ويقضونها بعد ذلك ولا قائل به من المسلمين أعنى جواز اخراجها عن وقتها عمدا من غير عذر شرعى والعذر الشرعى انما هو زوال العقل أو استتاره . ألا ترى أن المسايف تجب الصلاة عليه وهو يضارب ويجوز له أن يتكلم ان اضطر الى ذلك وهو يصلى ويجوز له أن يصلى لأى جهة كانت ويكبر ويقرأ وكذلك الغريق تجب الصلاة عليه فى حال غرقه والمصلوب الى غير ذلك فكل هؤلاء صلاتهم انما هى بالايماء واللسان واغتفر فى حقهم ومن شابههم ترك فرائض الصلاة جملة فى حال صلاتهم اذ ذاك خيفة على الوقت أن يخرج فلو ترك أحدهم مالزمه من الاتيان بالصلاة فى الوقت على الصفة المذكورة كان عاصيا وان قضاها بعد خروج وقتها لأن علماءنا رحمة الله عليهم قد اختلفوا فيمن أخرج الصلاة عن وقتها متعمدا هل عليه قضاء أم لا فالمشهور أن القضاء واجب عليه وأنه آثم فيما فعله من التأخير وذهب بعضهم الى أنه لاقضاء عليه بناء منهم على أنه مرتد وحكمه معروف . وما ذكر فى حق المجاهد من تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها هو موجود بعينه فى كثير من الحجاج كما هو مشاهد من أحوالهم وأنهم يحصلون الزاد والراحلة وما يحتاجون اليه من ضروراتهم بخلاف مايحتاجون اليه من أمور دينهم فقل من يسأل عن مسائل التيمم وقصر الصلاة واتمامها وأحكام الحج ومناسكه وان وجد ذلك من بعضهم فالغالب منهم أنهم يعتنون فى المناسك بأدعية معلومة على قانون معروف فيعولون عليها ويتركون ذكر الأحكام فى الغالب . وقد كره مالك رحمه الله تعيين الدعاء لبعض الأركان وقال هذه بدعة انما يذكر الله ويدعو بما يمر بباله أو كما قال . ثم نرجع الى ما كنا بسبيله من أمر الجهاد فمن أهم مايقدم فيه قبل الخروج اليه وعنده حسن النية واهتمامه بها والتعويل عليها . وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم بيانها أتم بيان

حين جاءه الأعرابى فقال له يارسول الله ماالقتال فى سبيل الله فان أحدنا يقاتل غضبا و يقاتل حمية فرفع اليه رأسه قال ومارفع اليه رأسه الا أنه كان قائمـا فقال (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) فقد اتضح وبان ماينوى المجاهد حين خروجه وتلبسه بالقتال. وأما مايقع له بعد تصحيح نيته فغير مانواه لاعبرة به ولا يؤاخذ به لأن الأعرابى قال فان أحدنا يقاتل غضبا و يقاتل حمية فأجابه عليه الصلاة والسلام بمـا تقدم ذكره فدل على أنه اذا نوى أن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا لا يضره مااعتراه بعد ذلك من قتاله غضبا أو حمية أو ماأشبههما لأن هذا كله من وساوس الشيطان ونزغاته وهو اجس النفوس التى لاتملك والله عز وجل قد رفع ذلك عنا ومن علينا بترك المحاسبة عليه ببركة هذا النبى الكريم على ربه عز وجل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أنه لمـا نزل قوله تعالى ﴿وان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله﴾ الآية ضج الصحابة رضى الله عنهم وأتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله كلفنا الصلاة والصوم والزكاة والحج فقبلناه وأما مايقع فى نفوسنا فلا نقدر عليه أو كما قالوا فعلمهم عليه الصلاة والسلام الأدب مع الربوبية فقال أتقولون مثل ماقالت بنواسرائيل سمعنا وعصينا ولكن قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا فأنزل الله تعالى ﴿لا يكلف الله نفسا الا وسعها﴾ الى آخر السورة فرفع الله تعالى الاصر عنهم وعدم المؤاخذة بالوساوس والهواجس . و لأجل هذا المعنى الذى نحن بسبيله) قال عليه الصلاة والسلام لمـا أن جاءه أصحابه يشكون له ممـا وقع لهم من هذا المعنى فقالوا انانجد فى أنفسنا مايتعاظم أحدنا أن يتكلم به فقال صلى الله عليه وسلم أوجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الايمـان الحمد لله الذى رد كيده لهذا) فقوله عليه الصلاة والسلام ذلك صريح الايمـان يعنى فى دفعه وتعاظم الأمر عندهم لافى نفس وقوعه وقوله عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى

رد كيده لهذا وذلك أن ابليس اللعين لم يقنع منهم فى الجاهلية حتى جعلهم ينشرون خشبا و ينحتون حجارة و يجعلونها صورا يسجدون لها و يعبدونها من دون الله عز وجل وهم قد صنعوها بأيديهم فلما أن جاء الاسلام وظهر أمره وانتشر أيس ابليس اللعين أن يردهم الى ما كانوا عليه فلم تبق له حيلة الا الوسواس والهواجس المشوشة على قلوب المؤمنين فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى رد كيده لهذا . فحمد صلى الله عليه وسلم ربه على كون اللعين عجزت قدرته عن جميع الحيل اذ أن ما بقى له من الحيل الا الوسواس والهواجس وذلك غير مؤاخذ به من وقع له ولو وقف المكلف مع ما يقع له من الهواجس قل أن يتأتى له أداء عبادة بسبب تسليطه . فالحاصل أنه يقاتل أولا بنية أن تكون كلمة الله هى العليا كما تقدم وأن يحتسب نفسه وماله لله عز وجل لقوله تعالى ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ الى آخر الآية وقوله تعالى ﴿ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ وقد نقل الشيخ الامام أبو محمد عبد الحميد الصدفى المشهور بابن أبى الدنيا قال روى الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال عبانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ليلا والتعبية هى تسوية الصفوف وتقدمة العمل الصالح بين يدى القتال من الامام والناس من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليرجى به الظفر والنصر قال الله تعالى ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ ثم الادارة على العدو والخديعة له من أسباب الظفر . أخرج مسلم بن الحجاج فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أراد غزوا ورى عنه بغيره . ومن الخدع فى الحرب ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأحزاب . روى أن رجلا من المسلمين كان لا يكتم الحديث وكان مع المشركين عام الأحزاب وكان يأتى

النبي صلى الله عليه وسلم فقال يوما للنبي صلى الله عليه وسلم ان بني قريظة قد مالوا عليك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلنا أمرناهم بذلك فأتى الرجل أبا سفيان فقال هل علمت محمدا يقول ماليس هو قال لاقال فانه يقول فى بنى قريظة لعلنا أمرناهم بذلك قال سننظر فأرسل الى بنى قريظة قال نحب أن تعطونا رهائن و وافق ذلك أن كان ليلة السبت للقدر المقدور فقالوا نحن فى السبت فان انقضى فعلنا فقال أبو سفيان نحن فى مكر بنى قريظة فألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب وأرسل عليهم ريحا وجنودا لم يروها ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال . وكانت هذه من الخدع التى خدعهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنه عن ابن أبى أوفى قال سمعته يعنى النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على الأحزاب اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم فهذا الدعاء ينبغى أن يدعى به عند ملاقاة العدو اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنه عن المهلب بن أبى صفرة عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول (ان يأتكم العدو فقولوا حم لا ينصرون) ومنه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة ولواؤه أبيض . ومنه عن أبى الدرداء قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (ابغونى فى ضعفائكم فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم) ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم ابغونى فى ضعفائكم أى اطلبونى أى انه يكون معهم . ويؤيد ذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى (أنا مع المنكسرة قلوبهم من أجلى) فاذا كان الله معهم فهم منصورون ويريد بالضعفاء والله أعلم الذين لم يكن لهم ظهور فى الدنيا ولاهم طالبون لها وهم زاهدون فى دنياهم راغبون فى آخرتهم طائعون لله تعالى ناصرون لدينه فهم منصورون . قال الله تعالى ﴿ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقال ﴿والله مع الصابرين﴾ أى بالنصر والمعونة أى

مع الصابرين عن المشتهيات من المحرمات والصابرين على الطاعات وجهاد الكفار فالله ناصرهم ومعينهم . روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لخالد بن الوليد حين بعثه لقتال أهل الردة احرص على الموت توهب لك الحياة . ووجه أبو مسلم قوما الى الغزو فقال ألزموا قلوبكم الصبر فانه سيف الظفر واذكروا كثرة الضغائن فانها تحض على الاقدام والزموا الطاعة فانها حصن المحارب . ومن الحكمة قوة النفس فى الحرب علامة الظفر . ومنها تقحم الحرب ينجح القلب . ومنها الهزيمة تحل العزيمة . ومنها الحيل أبلغ من العمل ومنها الرأى السديد أجدى من الأيد الشديد . ومنها شدة الصبر فاتحة النصر وينبغى المشورة فى القتال وفى كل أمر يعرض . وفى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (مارأيت أحدا أكثر مشورة لاصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم) الا أنه ينبغى مشورة من له عقل ودين وتجارب . من كلام الحكمة توق مشورة الجاهل . ومنها لاتشاور من تميل به رغبته أو رهبته . أخرج مسلم ابن الحجاج فى صحيحه بالاسناد عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) ومنه عن جابر بن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (لن يبرح هذا الدين قائما تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة) ومنه عن سعد ابن أبى وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) قال البخارى رضى الله عنه ورحمه هذه الطائفة هم أهل العلم وقال القاضى عياض هم أهل السنة والجماعة انتهى كلامه بلفظه . ثم نرجع الى ذكر بعض فضيلة الجهاد . فمن ذلك ماتقدم من قوله تعالى ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده

من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ قال الشيخ أبو محمد عبد الحميد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال جعل الله تعالى للمجاهدين فى سبيله الصفقتين جميعا . بيانه قول الحسن رضى الله عنه أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها ومع ذلك أقول أيضا هو خالق فعل المجاهد فى قدرته وعزمه على الجهاد فى سبيله ورغبته فكل ذلك فضله ونعمته ومنته قل كل من عند الله تبارك وتعالى يسدى على أيدينا الخير ويمنح عن أياديه الجزاء وروى فى معنى الآية أن الانصار رضى الله عنهم حين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله بن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال أشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فمالنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع قالوا لانقيل ولا نستقيل . ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى وهو يقرأ أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم الآية فقال الاعرابى كلام من قال كلام الله تعالى قال بيع والله صريح لانقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو فاستشهد رحمه الله تعالى . فقوله تعالى وعدا عليه حقا قال هذا وعد مؤكد أخبر الله تعالى أن هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت وقد أثبته فى التوراة والانجيل كما أثبته فى القرآن . وعن الجوهرى رحمه الله تعالى ناهيك من صفقة البائع فيها رب العالمين والثمن جنة المأوى والواسطة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وفى ذلك قيل

أكرم بها صفقة فالرب عاقدها　　على لسان رسول الله من مضر
أثمانها جنة ناهيك من نزل　　دار بها نعم تخفى عن البشر
أنواع مطعمها من كل شهوتنا　　شرابها عسل صاف من الكدر
من كل مالذة طابت مواردها　　وحورها درر تزهو على القمر

أنى لهـا ثمن دنيا بهـا محن لم يصف مشربها يوما لمعتبر

ثم قال ومن أوفى بعهـده من الله لأن اخلاف الوعد انمـا يطرأ على البشر لأحد أمور أوبمجموعهـا وذلك لبخل أوشح خوف الفقر أومحبـة الازدياد من الشهوات أوالعجز أوالنسيان وذهول أوغير ذلك من الآفات وكل ذلك محال على خالق الأرض والسموات. فهـذه الآية اذا فهمت معانيهـا وحضرت بخلو القلب وشروط الاستماع لتاليهـا لاتطاب فى الترغيب فى الجهاد زيادة عليهـا ولا انضمام شئ من المؤكدات اليها وذكر بسنده الى مالك بن أنس فى موطئه عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم الذى لايفتر عن صلاة ولاصيام حتى يرجع) وقال الله تعالى ﴿ولئن قتلتم فى سبيل الله أومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ فهـذا وعد من الله سبحانه مؤكد بالقسم اذ أن القتل فى سبيله أوالموت مقترن بهما المغفرة والرحمة وخبره تعالى ووعده حق وتأكيده بالقسم للترغيب فى الجهاد وتحقيق لفضله فى قلوب العباد. أخرج مسلم فى صحيحه باسناده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه الاجهادا فى سبيلى وايمـانا بى وتصديقا برسولى فهو على ضامن أن أدخله الجنة ان مات أوأرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا مانال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمـد بيده مامن كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمـد بيـده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله أبدآ ولـكن لاأجد سعة فأحملهم ولايجدون سعة فيشق عليهم أن يتخلفوا عنى والذى نفس محمـد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل) قوله صلى الله عليه وسلم لايخرجه الاجهادا فى

سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسولى فى هذا حض على النية وتخليصها من الشوائب الدنيوية والمأمور به من النية أن تكون كلمة الله هى العليا وهى الشهادتان وعلو المستمسك بهما من أهل الايمان لأن الكفر اذا علا بالضرورة تكون الشهادتان وشريعة الاسلام السفلى فيقصد بالخروج من بيته هذا مخلصا ويبيع نفسه من الله تعالى بالجنة التى وعدها فى القرآن أو بمجموع الأمرين ابتغاء الجنة وعلو الكلمتين فاذا صح قصده نال من الله ما وعده. وقوله فهو على ضامن قيل معناه مضمون. وقوله أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة أو بمعنى الواو ورواه أبو داود من أجر وغنيمة. والكلم الجرح وبإسناده الى مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (لايكلم أحد فى سبيل الله والله أعلم بمن يكلم فى سبيله الاجاء يوم القيامة وجرحه يثعب(١) دما اللون لون الدم والريح ريح المسك) فى هذا تنبيه على النية. ومنه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) وفى حديث أبى أيوب خير مما طلعت عليه الشمس. الغدوة بفتح الغين السير الى الزوال مرة واحدة والروحة السير من الزوال الى الغروب مرة واحدة. فالمعنى أن ثواب هذه الغدوة والروحة الواحدة وفضلها ونعيمها على قلتها ويسارتها وخفتها خير من نعيم الدنيا كلها على كثرتها فان نعم الدنيا زائلة فانية ونعم الآخرة دائمة باقية أو المعنى أن الدنيا لو نالها ملك بأسرها وأنفقها لثواب الآخرة وأجرها لكان جزاء هذه الغدوة والروحة أكثر وفضلها أعظم وأكبر. ومن صحيح مسلم متصلا عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة فعجب لها أبو سعيد فقال أعدها على يا رسول الله ففعل

(١) يثعب بفتح الياء والعين المهملة بينهما مثلثة ساكنة معناه يسيل

ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبدمائة درجة فى الجنة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هى يارسول الله قال الجهاد فى سبيل الله الجهاد فى سبيل الله الجهاد فى سبيل الله) الدرجات المنازل فى الجنة بعضها فوق بعض على ماورد به القرآن والسنة قال تعالى ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية﴾ ومنه عن النعمان بن بشير قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام الا أن أسقى الحاج وقال آخر ماأبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام الا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله تعالى أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لاترفعوا أصواتكم عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت لأستفتيه فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله﴾ الآية . وعن أبى سعيد الخدرى (أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل فقال رجل يجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه قال ثم من قال مؤمن فى شعب من الشعاب يعبدالله ويدع الناس من شره) ومنه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغى القتل والموت مظانه أورجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة يعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس الافى خير) فظهر من هذا الحديث فضل الجهاد وشرفه والمواظبة عليه وأن الاكتساب منه خير كسب اذا خمس المغنم ولم يستأثر على الغازين بشىء الا ما الضرورة داعية اليه مثل الطعام والشراب وشبههما مما هو مقرر فى السنن المأثورة والكتاب العزيز . والهيعة

الصوت المفزع . والطيران هو اغاثة المستغيث بأنهى الممكن فى الفعل المسرع والشعف رؤس الجبال. وفيه حض على الانزواء عن الناس والاعتزال السالى المخالطة من آفات القيل والقال وهذا الانزواء والاعتزال انما يحمد اذا لم يتوجه فرض الجهاد والقتال أو فرض من الفروض على حسب الاحوال. ومنه عن أبى بكر ابن عبد الله بن قيس عن أبيه قال سمعت أبى وهو بحضرة العدو يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان أبواب الجنة تحت ظلال السيوف فقام رجل رث الهيئة فقال ياأبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا قال نعم قال فرجع الى أصحابه فقال أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه وألقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب به حتى قتل) قال القاضى عياض رحمه الله يعنى أن الجهاد وحضور المعارك سبب لدخولها ومقرب اليها و يظهر والله أعلم أن مكان المعركة وجلاد الكفار منه تنقل روح الشهيد حين الشهادة وتدخل الجنة كما جاء فى القرآن وصحيح الأخبار . ومن صحيح مسلم ابن الحجاج عن ثابت قال قال أنس عمى الذى سميت به لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا قال فشق عليه قال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غيبت عنه ولئن أشهدنى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ماأصنع قال فهاب أن يقول غيرها قال فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا قال واستقبله سعد بن معاذ فقال له أنس ياأباعمرو أين قال واهاً لريح الجنة أجده دون أحد قال فقاتلهم حتى قتل قال فوجد فى جسده بضع وثمانون مابين ضربة وطعنة و رمية قال وقالت أخته عمتى الربيع بنت النضر فما عرفت أخى الا ببنانه ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه . قوله واهاً لريح الجنة كلمة تلهف وحنين وتشوق الى الجنة وتمن لاجرم لما صدق أعطى

سؤله وبلغ مما تمنى مأموله وأوجده الله ريح الجنة كما ورد فى الخبر الصحيح أنها توجد من مسيرة خمسمائة سنة وذلك تشريف من الله تعالى لأهل السعادة وتكرمة لمن كتبت له الشهادة. ومن مسند النسائى عن فضالة بن عبيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أنا زعيم والزعيم الحميل لمن آمن بى وأسلم وجاهد فى سبيل الله ببيت فى ربض الجنة وببيت فى وسط الجنة وببيت فى أعلى غرف الجنة من فعل ذلك لم يدع للخير مطلبا ولا من الشر مهربا يموت حيث يموت) ومن مسند أبى داود عن أبى أمامة أن رجلا قال يارسول الله ائذن لى فى السياحة قال ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله . ومن الترمذى عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أنفق نفقة فى سبيل الله كتبت له سبعمائة ضعف) ومنه عن زيد بن خالد الجهنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى أهله فقد غزا) ومنه عن يزيد بن أبى مريم قال لحقنى عباية بن رفاعة بن رافع وأنا ماش الى الجمعة فقال أبشر فان خطاك هذه فى سبيل الله سمعت أبا عبس يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من اغبرت قدماه فى سبيل الله فهما حرام على النار) انتهى كلام الصدفى رحمه الله قال الترمذى فى جامعه أبو عبس هذا اسمه عبد الرحمن بن جبر ويزيد ابن أبى مريم هو رجل شامى روى عنه الوليد بن مسلم ويحيى بن حمزة وغير واحد. ثم قال الصدفى رحمه الله ومنه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم)

فصل فى الرمى وفضيلته

أخرج الترمذى وأبو داود والنسائى عن عقبة ابن عامر قال سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول (ان الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاث نفر الجنة صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى به ومنبله) وفى الترمذى (كل مايلهو به الرجل المسلم باطل الارميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله) ومن مسند الترمذى عن أبى نجيح الأسلمى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من رمى بسهم فى سبيل الله فهو له عدل محرر) وروى البخارى عن سلمة بن الاكوع قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر ينتضلون فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ارموا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا وأنا مع بنى فلان قال فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالكم لاترمون قالوا كيف نرمى وأنت معهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارموا وأنا معكم كلكم) ومن صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ستفتح عليكم أرضون و يكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه) ومنه عن عبد الرحمن بن شماسة أن نعيما اللخمى قال لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه فقيل لابن شماسة وما ذاك قال انه قال (من علم الرمى ثم تركه فليس منا أو قدعصى) وقوله صلى الله عليه وسلم فليس منا أى ليس متبعا لنا ولامهتديا بهدينا تارك الرمى. وكتب عمر رضى الله عنه لأهل حمص علموا أولادكم السباحة والرماية والفروسية والاحتفاء بين الاغراض وقال احتفوا وتجردوا واخشوشنوا وتمعددوا(١) واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا وارموا الأغراض واياكم ولباس العجم البسوا الأزر

(١) قوله وتمعددوا قيل أنه من التشبه بعيش معد وكانوا أهل شظف وغلظ فى العيش يقول كونوا امثالهم ودعوا التنعم وزى العجم كما هو فى حديث (عليكم باللبسة المعدية) وقيل انه من قولهم للغلام اذا شب وغلظ قد تمعدد

والأردية وألقوا السراويلات واستقبلوا حر الشمس بوجوهكم فانها شامات العرب واطرحوا الخفاف والبسوا النعال

فصل فى الرباط وفضله وذكر الخيل وفضلها

أخرج البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد أنه قال (رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا ومافيها وموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا ومافيها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا ومافيها) و روى الترمذى عن فضالة بن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كل ميت يختم على عمله الا الذى يموت مرابطا فى سبيل الله فانه ينمى له عمله الى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر) أخرج مالك فى موطئه وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الخيل لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فأما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها ذلك فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك له حسنات فهى له أجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها ولاظهورها فهى لذلك ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الاسلام فهى على ذلك وزر) ومنه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الخيل فى نواصيها الخير الى يوم القيامة) ومنه عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤى يمسح وجه فرسه بردائه فسئل عن ذلك فقال (انى عوتبت الليلة فى الخيل) وروى العتبى عن مالك أنه سأله بعض أهل ثغر الاسكندرية هل الرجوع لثغرهم والسكون فيه للحرس وسده أفضل

أم المقام بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحيات لطالب العلم أفضل فرجح لهم الرجوع الى الاسكندرية والكون فيها على ذلك . وروى عن ابن عمر أنه كان يقول الحرس أفضل من الغزو لان الحرس فيه حفظ دماء المسلمين والغزو فيه اراقة دماء المشركين لحفظ دماء المسلمين أولى. أخرج الترمذى فى صحيحه عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله) ومن الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة) ومنه عن أبى صالح مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت عثمان وهو على المنبر يقول انى كتمتكم حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية نفوركم عنى ثم بدالى أن أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه مابداله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح . ومنه عن أبى أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ليس شىء أحب الى الله عز وجل من قطرتين وأثرين قطرة دموع من خشية الله تعالى وقطرة دم تهراق فى سبيل الله تعالى وأما الأثران فأثر فى سبيل الله تعالى وأثر فى فريضة من فرائض الله تعالى) قال ابن حبيب الرباط شعبة من شعب الجهاد . وقيل من رابط فواق ناقة حرمه الله على النار قال ابن حبيب فواق ناقة قدر ماتحلب وقال غيره قدر مابين الحلبتين . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال لحرس ليلة أحب الى من صيام ألف يوم أصومها وأقوم ليلها فى المسجد الحرام وعند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وعن مالك بن أنس رحمه الله تعالى ينبغى لكل قوم أن يرابطوا فى ناحيتهم وأن يمسكوا سواحلهم الا أن يكون مكانا مخوفا يخاف فيه على العامة يريد فليذهب اليه . ومن الحرس

فى الثغور حفر الخنادق والاحتساب فى حفرها مستنين فى ذلك بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعه عليه الصلاة والسلام للحجر الذى أعيت الصحابة الحيلة فى كسره . أخرج النسائى عن البراء بن عازب قال لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرض لنا حجر لا يأخذ المعول فاشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقى ثوبه وأخذ المعول وقال (بسم الله ثم ضرب ضربة فكسرت ثلث الصخرة فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله انى لأبصر الى قصرها الأحمر الآن من مكانى هذا قال ثم ضرب أخرى وقال بسم الله فقطع ثلثا آخر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله انى لأبصر خضراء المدائن والى القصر الأبيض ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله انى لأبصر باب صنعاء من مكانى الساعة)

فصل فى فضل الشهادة

أخرج مسلم فى صحيحه عن مسروق قال سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ قال أما انا قد سألنا عن ذلك فقال (أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل) ومنه عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال (ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وان له بها ما على الأرض من شىء غير الشهيد فانه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة) وفى رواية لما يرى من فضل الشهادة . ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبدا) ومن الموطأ عن معاذ ابن جبل رضى الله عنه أنه قال الغزو غزوان فغزو تنفق فيه الكريمة ويياسر

فيه الشريك ويطاع فيه ذو الأمر ويجتنب فيه الفساد فذلك الغزو خير كله وغزو لاتنفق فيه الكريمة ولا ياسر فيه الشريك ولا يطاع فيه ذو الأمر ولا يجتنب فيه الفساد فذلك الغزو لايرجع صاحبه كفافا . ومن صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من آمن بالله و رسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها قالوا يارسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك قال ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فانه وسط الجنة وفوقه عرش الرحمن) ومن صحيح الترمذى عن المقدام بن معديكرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (للشهيد عند الله ست خصال يغفر الله له فى أول قطرة تقطر من دمه ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب . ومنه عن أبى هريرة قال مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عين من ماء عذب فأعجبته لطيبها فقال لو اعتزلت عن الناس فأقمت فى هذا الشعب ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لاتفعل فان مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة (اغزوا فى سبيل الله من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة) ومنه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة شهيد وعفيف متعفف وعبد أحسن عبادة الله تعالى ونصح لمواليه) ومنه عن أبى ادريس الخولانى أنه سمع

فضالة بن عبيد يقول سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الايمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك الذي يرفع الناس اليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته قال فما أدرى أقلنسوة عمر أراد أم قلنسوة النبي صلى الله عليه وسلم قال ورجل مؤمن جيد الايمان لقي العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهم غرب فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الثالثة ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الرابعة) وفضيلة الجهاد قد جاء فيها ماهو أكثر من هذا . ولكن ذلك متعذر على المرء وحده اذلا بد فيه من جماعة وامام تنعقد كلمتهم عليه ولايخالفونه . وقد ذكر العلماء رحمة الله عليهم ذلك وشرطوا له شروطا وبينوا حال الامام وحال الجماعة التى تكون معه وصفة هديهم وطريقتهم وآدابهم وما يتجنبون فيه من المفاسد وهذا النوع كثير قل أن يحصر أعنى ما أحدث فيه من المفاسد شرقا وغربا فمن أراد الجهاد فليتوقف حتى يسأل أهل العلم والنهى عما يجب عليه فيه وما يندب له وما يحرم عليه أو يكره وما يتجنب فيه من المفاسد فانها مختلفة بحسب اختلاف الاقاليم والأئمة والجماعة والعصر فلا يمكن الكلام على معنى من معانيها لكثرتها واختلاف الأحوال والازمان فبالسؤال يتبين له مايصلح به فان رأى أنه لابد من خلل يرتكبه بسبب جهاده فالترك له أولى اللهم الا أن يتعين الجهاد فلاسؤال اذذاك لأنه لاينتظر فيه اذن الامام ولاحضور الجماعة ولااذن الوالد ولااذن الوالدة ولا اذن السيد اذ أن النفير واجب متعين على كل من كانت له قدرة بوجه ما ثم الأصل الذى يعول عليه فى جهاده ويعتقد النصر من جهته هو التعلق بجناب أولياء الله تعالى والرجوع اليهم والصدور عن رأيهم . ألا ترى الى ما حكى

عن عبد الملك بن مروان لما أن خرج لبعض غزواته قال انظروا الى محمد ابن الحنفية فذهبوا اليه ثم رجعوا فقالوا وجدناه فى المسجد يصلى فقال اذهبوا فقد نصرنا بسبابته فى القبلة عندى خير من كذا وكذا ألف فارس فضوا لما كانوا بسبيله فنصر وا وغنموا . وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام (ابغونى فى ضعفائكم) ومع ذلك فلا ينبغى أن يتمنى المرء لقاء العدو امتثالا للسنة لقوله صلى الله عليه وسلم (لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) خرجه البخارى وغيره فشأن المكلف امتثال الأدب بترك الدعاوى وغيرها حتى اذا تعين عليه الأمر استعان بربه تعالى وامتثل أمره مبتغيا بذلك مرضاته وما وعد عليه من جزيل الثواب لفاعله . وهذا عام فى كل الأحوال دقيقها وجليلها فليكن المرء متيقظا لها فانه يحشر يوم القيامة على ما مات عليه . والجهاد مظنة الموت غالبا . ألا ترى الى قوله عليه الصلاة والسلام واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . قال علماؤنا رحمة الله عليهم معناه أن روح المؤمن تنقل من ذلك الموضع الى الجنة والتعلق بالله تعالى هو الأصل لهذا الأصل المتقدم ذكره وانما هى أسباب وبقى الأمر الى الله تعالى ماشاء فعل فهو عز وجل القادر على النصر بسبب وبغير سبب . ألا ترى الى قوله تعالى ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فنفى الرمى عن نبيه عليه الصلاة والسلام أولا بقوله وما رميت ثم أثبته له بقوله اذ رميت فانه عز وجل جمع لنبيه عليه الصلاة والسلام فى ذلك بين الحقيقة والشريعة . أما الشريعة فلكونه عليه الصلاة والسلام أخذ كفا من تراب بيده الكريمة ورمى به فى وجوههم وقال شاهت الوجوه . وأما الحقيقة فلوصول ذلك التراب لعين كل واحد من العدو حتى أنه لم يقدر أحد منهم أن يفتح عينه لملئها بالتراب وهذا شىء يعجز البشر عنه وكذلك كانت أفعاله عليه الصلاة والسلام لابد فيها من امتثال الحكمة ثم يظهر

الله سبحانه قدرته عيانا للخلق على يديه صلى الله عليه وسلم . ألا ترى الى ماجاء فى نبع الماء من بين أصابعه الكريمة فانه عليه الصلاة والسلام لم يفعل ولم يمد يده دون ماء بل امتثل الحكمة بوضع يده الكريمة فى اناء فيه ماء ثم أمرهم أن يسقوا و يشربوا و يملؤا والماء يتفجر من بين أصابعه عليه الصلاة والسلام من غير نقص من ذلك الماء . ومن ذلك أمره عليه الصلاة والسلام بجمع مابقى مع أصحابه من الأزواد حين فنيت فجمعت و بارك فيها فأكل الجميع منها حتى شبعوا ومن ذلك فعله عليه الصلاة والسلام فى قصة جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى الداجن الذى ذبحه والعجين الذى خبزه وكونه عليه الصلاة والسلام بصق فيهما و بارك ثم أذن لعشرة فى الأكل ثم عشرة من بعدهم ممن كان يعمل فى الخندق حتى أكل الجميع وشبعوا وكانوا ألفا والبرمة تفور كما هى والعجين يخبز كما هو . ومن ذلك خروجه عليه الصلاة والسلام الى الجهاد فانه كان يعتد لذلك بجمع أصحابه و باتخاذ الخيل والسلاح ومايحتاجون اليه من آلات الجهاد والسفر ثم اذا رجع عليه الصلاة والسلام تخلى من ذلك و رد الأمر كله لمولاه عز وجل لا لغيره بقوله (آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) فانظر رحمنا الله واياك الى قوله عليه الصلاة والسلام وهزم الأحزاب وحده فنفى عليه الصلاة والسلام ماتقدم ذكره وهذا هو معنى الحقيقة لأن الانسان وفعله خلق لربه عز وجل فهو سبحانه وتعالى الذى خلق ودبر وأعان وأجرى الامور على يد من شاء واختار من خلقه فكل منه و كل اليه راجع . ولو شاء الله عز وجل أن يبيد أهل الكفر من غير قتال لفعل وقد نطق به القرآن العزيز قال سبحانه وتعالى ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ فيثيب سبحانه وتعالى الصابرين و يجزل الثواب للشاكرين وقال تعالى ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ فعلى

المكلف الامتثال فى الحالين أعنى فى امتثال الحكمة والرجوع الى المولى سبحانه وتعالى والسكون اليه والنزول بساحة كرمه ﴿أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ الى غير ذلك مما جاء فى هذا المعنى وهو كثير فتجده عليه الصلاة والسلام فى كل ذلك يمتثل الحكمة أولا تأدبا مع الربوبية وتشريعا لأمته ثم تظهر الله تعالى على يديه قدرته الغامضة المخبأة التى ادخرها له عليه الصلاة والسلام. وما جرى له عليه الصلاة والسلام مما تقدم ذكره فهو جار لأمته ببركة اتباعه صلى الله عليه وسلم وكثيرا ماقد وقع مثل هذا كتكثير القليل وقلب الأعيان والمشى على الماء والطيران فى الهواء وما أشبه ذلك مما هو معروف مشهور يقطع العذر ويوجب القطع بوجوده. وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم كل كرامة ظهرت لولى فهى معجزة لنبيه عليه الصلاة والسلام اذ أنه ماحصلت له تلك الكرامة الا ببركة اتباعه عليه الصلاة والسلام والحمد لله الذى بقيت هذه البركات فى هذه الأمة لاتنقطع وكيف لا وانه تعالى يقول فى كتابه العزيز ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وقال عليه الصلاة والسلام (لاتزال طائفة من هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) وهذا عام فيما نحن بسبيله وفى غيره

﴿فصـــل﴾ وينبغى للمجاهد أن لايقاتل بنية اراقة دماء الكفار ليس الا بل يجاهد فى سبيل الله لما تقدم ذكره من نية اعلاء كلمة التوحيد واظهارها واخماد كلمة الكفر وابطالها. وينبغى للمجاهدين اذا كانوا مع الامام أو فى سرية وأدربوا بلاد العدو أنهم اذا صلوا الخمس يرفعون أصواتهم بالذكر ليرهبوا العدو بذلك وليقتدوا فيه بالسلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين وفعل ذلك فى غير هذه الحالة على هذه الصفة بدعة. وقد تقدم ذلك بما فيه كفاية والله الموفق والناصر والهادى لارب سواه ولا مرجو الا اياه

فصل فى آداب الفقير المنقطع التارك للأسباب وكيفية نيته وهديه

قد تقدم أن الجهاد ينقسم على قسمين جهاد أصغر وجهاد أكبر. وقد تقدم الكلام على الجهاد الأصغر وبقى الكلام على الجهاد الأكبر وهو عام فى كل الناس الا أن الفقير أحوج الناس اليه اذ أنه خلف الدنيا وراء ظهره وأقبل على آخرته لشغله بربه واقباله على اصلاح نفسه وتنظيفها من الغير فكل قلب فيه غير الله تعالى كان فى حيز المتروك المطروح وكل قلب لم يكن فيه غيره سبحانه وتعالى وقعله الفتح والتجلى والمخاطبة فى سره بما يليق بحاله. وهذا مقام لا يعرفه الا أهله المختصون به. واذا كان ذلك كذلك فيحتاج المريد الى مجاهدة عظيمة لكى يصفو قلبه ويتجهز لتحصيل الفوائد الربانية لعله أن يظفر بها أو بشئ منها فيحصل بذلك فى جملة السابقين وقاعدة الفقير أبدا لايزال فى جهاد - فأول جهاده جهاد الشيطان ثم جهاد نفسه - وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم ان الجهاد ينقسم على أربعه أقسام جهاد بالقلب وجهاد باللسان. وجهاد باليد وجهاد بالسيف . وقد تقدم الكلام على الجهاد بالسيف وبقى الكلام هنا على باقى أقسام الجهاد. فالجهاد بالقلب جهاد الشيطان وجهاد النفس عن الشهوات والمحرمات . قال الله تعالى ﴿ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى﴾ وجهاد اللسان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ومن ذلك ماأمر الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام به من جهاد المنافقين لأنه عز وجل قال ﴿ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ فجاهد صلى الله عليه وسلم الكفار بالسيف وجاهد

المنافقين باللسان لأن الله عز وجل نهاه أن يعمل بعلمه فيهم فيقيم الحدود عليهم وكذلك جهاده صلى الله عليه وسلم المشركين قبل أن يؤمر بقتالهم بالقول خاصة وجهاد اليد زجر ذوى الأمر أهل المناكر عن المنكر والباطل والمعاصي والمحرمات وعن تعطيل الفرائض الواجبات بالادب والضرب على مايؤدى اليه الاجتهاد فى ذلك . ومن ذلك اقامتهم الحدود على القذفة والزناة وشربة الخمر ثم أول مايحتاج اليه فى مجاهدته الزهد فى الدنيا لأن محبتها والعمل على تحصيلها مع وجود شغف القلب بهـا يعمى عن أمور الآخرة و يطمس القلب ويكثر فيه الوساوس والنزغات لأن الشيطان وجد السبيل الى ذلك بسبب ماشغف قلبه بمـا تقدم لأنها رأس كل خطيئة . وقد مر عيسى عليه الصلاة والسلام برجل نائم فى السحر فوكزه وقال له ياعبد الله قم فقد سبقك العابدون فقال ياروح الله دعنى فقد عبدته بأحب العبادات اليه قال له عيسى عليه الصلاة والسلام وما ذاك قال بالزهد فى الدنيا قال له عيسى نم نومة العروس فى خدرها انتهى ثم ان الزهد لايقتصر فيه على الزهد فى الدنيا ليس الا بل هو عام فى كل الحركات والسكنات وضابطه أن كل حركة وسكون ونفس الى غير ذلك ينظر فيه فما كان لله تعالى فليمضه وما كان لغيره فليدعه . وقد قالوا الزهد فى فضول الكلام أفضل من الزهد فى غيره يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام جوابا لأصحابه رضى الله عنهم لمـا أثنوا على رجل قد مات فقال عليه الصلاة والسلام وما يدريكم لعله كان يتكلم فيما لايعنيه أوكما قال عليه الصلاة والسلام . وقد قال الشيخ الامام أبو عبد الرحمن الصقلى رحمه الله تعالى أقل فائدة فى السكوت تسبيح الاعضاء انتهى . فاذا كانت هذه أقل فوائده فما بالك بمـا هو أكبر منه ولو لم يكن فيه الا السلامة من عثرات اللسان لكان غنيمة عظيمة . وقد تقدم فى أول الكتاب أن الاعضاء تصبح فى كل يوم تناشد اللسان أن يسلمها من آفاته

لأنه اذا عطب لم يعطب وحده بل تعطب كل الأعضاء بسببه . وقد ورد أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه دخل على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فوجده ممسكا لسانه فقال له عمر رضي الله عنه ماهذا قال هذا الذي أوردني الموارد فاذا كان الصديق رضي الله عنه يقول مثل هذه المقالة فما بالك بغيره . واذا كان ذلك كذلك فليشمر الفقير الى سلوك هذه المفازة ليقطعها فانها عقبة كؤود لايجاوزها الا المشمرون أعاد الله علينا من بركاتهم . ثم ان الزهد فى الرياسة أعظم من الزهد فى كل ماتقدم ذكره لأن النفس والمال ينفقان فى الرياسة والرياسة لاتنفق فيهما فالزهد فيها متعين . ثم لايظن ظان أن الرياسة انما هى فى رتب الدنيا ليس الابل هى عامة فى رتب الدنيا والآخرة فمن كان عند نفسه شئ فهو عند الله لاشئ ومن كان عند نفسه لاشيء فهو عند ربه شئ ولاجل هذا المعنى قال بعض الشيوخ نفعنا الله تعالى به من رأى أنه خير من الكلب فالكلب خير منه وماقاله بين ألا ترى أن الكلب مقطوع له بأنه لايدخل النار بخلاف من لم يقطع له من الآدميين فانه محتمل لاحدى الدارين فان كان هذا الآدمى من أهل النار والعياذ بالله فالكلب خير منه وان كان من أهل الجنة فلا شك أنه خير من الكلب . ولاجل هذا المعنى حكى عن ابراهيم بن أدهم رحمه الله وأعاد علينا من بركاته أنه كان جائعا و وجد فضلة طعام على مزبلة فجعل يأكل منه واذا بكلب قد جاء فأكل من الناحية الاخرى ثم نبح الكلب على ابراهيم فقال ابراهيم لاتنبح على ولا أنبح عليك كل من جهتك وأنا اكل من جهتى ان دخلت أنا الجنة فأنا خير منك وان دخلت النار فأنت خير منى تصريحا منه رحمه الله تعالى بالمعنى المتقدم ذكره . وقد قال الشيخ الامام أبو عبدالرحمن الصقلى رحمه الله تعالى ان كانت نفسك فى هذه الأرض فسرك فى سماء الدنيا فان نزلت الى الارض الثانية فسرك فى السماء الثانية فان نزلت الى الأرض الثالثة فسرك فى السماء الثالثة فان

نزلت الى الارض الرابعة فسرك فى السماء الرابعة فان نزلت الى الارض الخامسة فسرك فى السماء الخامسة فان نزلت الى الارض السادسة فسرك فى السماء السادسة فان نزلت الى الارض السابعة فسرك فى السماء السابعة فان نزلت عن الارض السابعة الى ظهر الثور الذى عليه قرار الأرضين فسرك ناظر الى العرش انتهى فقرر رحمه الله أنه بسبب التواضع وعلى قدر نزول النفس يسمو أمره و يعلو قدره فمن أراد الفوز فليعمل على اشارته يحظ بالسلامة. وأعنى بالزهد فى مراتب الآخرة أنه يعبد الله تعالى لوجهه الكريم لا لعوض قال الله تعالى ﴿يريدون وجهه﴾ وصاحب هذا الحال يرى نفسه أنها ليست أهلا لشىء لاستحقاره نفسه وترك النظر اليها وصغارتها عنده لعظيم ماهى فيه من الخطر. وقد روى أنه كان فى بنى اسرائيل رجل عابد مجتهد وكانوا يفضلونه على أنفسهم أعنى من كان فى وقته من العباد فأوحى الله تعالى الى موسى عليه الصلاة والسلام أن قل لفلان يعبدنى ماشاء فهو من أهل النار فأصبح موسى عليه الصلاة والسلام فأخبر بنى اسرائيل بذلك فتعجبوا وقالوا ليس فينا أحد مثله فى العبادة والخير فبينما هم كذلك واذا بالرجل قد أتى فسلم وجلس فأخبره موسى عليه الصلاة والسلام بما قد وقع فقال أهلا بقضاء ربى ومضى لسبيله فلما جن الليل تطهر وصلى ركعتين وقال اللهم انى كنت أعبدك ولست عند نفسى أهلا لشىء والآن قد مننت على وجعلتنى أهلا لنارك فوعزتك لازال هذا مقامى بين يديك شكرا لك على هذه النعمة حتى ألقاك فلما أصبح من الغد جاء الى موسى عليه الصلاة والسلام فقال له موسى عليه الصلاة والسلام ان الله قد أوحى الى أن قل لفلان يفعل مايشاء فهو من أهل الجنة لازدرائه بنفسه . وقد حكى أن ابراهيم بن أدهم رحمه الله وقع بعقله بعض الناس فى كونه لم يجالس اليهم ويحدثهم حتى يأخذوا عنه العلم لانه رحمه الله من أفاضل العلماء والمحدثين فقال شغلنى أربع لو فرغت منها لجلست اليكم

وحدثكم فقالوا له وماهى فقال افتكرت فى نزول الملك لتصويرى فى الرحم وندائه يارب أشقى أم سعيد فما أعرف كيف خرج جوابى الثانية أنى افتكرت فى نزول ملك الموت لقبض روحى وندائه يارب أقبضه على الاسلام أم على الكفر فما أعرف كيف خرج جوابى الثالثة أنى افتكرت فى قوله تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فما أعرف فى أى الفريقين أمتاز الرابعة أنى افتكرت فى المنادى الذى ينادى حين حصول أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار يا أهل الجنة خلود لاموت فيها ويا أهل النار خلود لاموت فيها فما أعرف فى أى الدارين أكون انتهى . فمن كان يتقلب بين هذه الأحوال كيف يقر له قرار أو يأوى الى عمران وانما هى غفلات والمريد مبرأ من الغفلات متيقظ لما بين يديه من الأمور القاطعات ناظر للناس نظر عموم يراهم هلكى فيرحمهم ويستغفر لهم قد شمر عن ساعده خوفا منه أن يلحقه مالحقهم اذ أن الدنيا لولا الحمق ماعمرت وطول الأمل فى الانسان من أكبر الحمق والمريد ناظر الى زمانه وهو ينقسم على ثلاثة أقسام ماض ومستقبل وحال فان نظر الى الماضى فهو كنيب الاطلال بطالة لاتغنى ولا فائدة فيها وان نظر الى المستقبل فالقدر ليس بيده والحياة ليست بحكمه فلم يبق الا النظر فى الحال والنظر فى الحال هو ماقاله بعض الشيوخ رحمه الله تعالى الفقير ابن وقته . لأن الموت متوقع مع الحركات والسكنات والانفاس فاذا خرج منه نفس فقد لايرجع اليه واذا رجع اليه فقد لايخرج منه واذا كان ذلك كذلك فقد ارتفعت عنه الكلف والنظر فى الملبس والقوت والمسكن وغير ذلك من الضرورات البشرية اذ أن نفساً واحداً لاثمن له ولا يعتبر أمره فى الاقامة فى الدنيا اذ أن من صار حاله الى ماتقدم ذكره وهو أن الموت نصب عينيه فقد انقطعت فكرته وهمومه وحسراته فى كيفية موته على الاسلام وفى قبره ووحشته وجوابه حين السؤال فيه وما بعده من الأهوال العظام فأى راحة

تبقى لمن هذا حاله وفكرته . حكى أن انسانا جاء لبعض اخوانه يزوره فوجده وحده وهو يلتفت يمينا وشمالا وخلفا وأماما فقال له الزائر لمن تلتفت فقال أنظر لملك الموت من أي ناحية يأتيني . وقدجاء بعضهم الى شيخ له ليزوره وكان قد لقيه بعض أصحابه فعزم عليه فقال انى صائم فأعطاه سبع تمرات أو لوزات على أنه يفطر عليها فربط ذلك فى طرف كسائه فلما دق الباب وخرج له شيخه ليسلم عليه قال له الشيخ ماهذا الذى فى طرف كسائك فأخبره بما جرى فقال له الشيخ وأنت تظن أنك تعيش الى الغروب والله لا كلمتك بعدها أبدا ولاجل هذا المعنى قال سيدى أبو مدين رحمه الله تعالى ونفع به عُمرك نفس واحد فاحرص أن يكون لك لاعليك انتهى . وهاهو ظاهر بين فمن كان حاله على ماتقدم وصفه فلا راحة له دون لقاء ربه . وقد ورد فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنص الصريح على مانحن بسبيله حيث قال عليه الصلاة والسلام (لاراحة للمؤمن دون لقاء ربه) ومعنى ذلك والله تعالى أعلم أن المؤمن طالما هو فى دار التكليف لا يزال فى مكابدات وأهوال وأخطار حتى يخرج منها فيلقى ربه عز وجل فيرى ماله عنده من الكرامات فحينئذ تحصل له الراحة الحقيقية الدائمة التى لاانفصام لها . وقد ذكر الشيخ الامام القدوة المحقق يمن بن مرزوق رحمه الله تعالى ونفع به فى حال الفقير وزهده ما هذا لفظه اعلم أن الناس فى الزهد على طبقات فمنهم آخذ وهو تارك ومنهم تارك وهو آخذ وانما يحمد ويصح هذا الأمر لمن ترك الدنيا وزهد فيها بعد قدرته عليها . ومن الناس من يكون مصليا نائما وآخر نائما مصليا ومفطراً صائما وصائما مفطراً وكاسيا عاريا وعاريا كاسيا وانما ذلك كله على تصرف ارادة القلب وتصحيح النية وفساد ارادة القلب وفساد النية والسلامة من الكسب الخبيث والقول الخبيث وفى هذا كلام كثير الاأن

من صدق أبصر وتحقق ذلك . وينبغى للعالم بالله وبما أمره الله تعالى به ونهاه عنه أن يكون قد ملأت قلبه عظمة الله تعالى فاشتغل بالقيام بحقوق الله تعالى عن كل فضول الدنيا من الأكل والشرب واللباس والبنيان والمركب والازواج والاولادوالخدم وان كان فيهم من لهالزوجة والولد وأشياء مما ذكر لم يأخذ ذلك على الرغبة ولم يشغله عن فهم وعد القرآن ووعيده واعلم أن القوم لما وصلوا الى ماوصلوا اليه لم يغتروا بدار الغرور ولم تكن لهم رغبة الا خوف فوات ماشوق اليه وعد القرآن ووعيده من الخلود فى دار النعيم أو دار الهوان ﴿ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين﴾ انما دعا الى دار السلام من خلقها وزينها وجلاها فخض أيها المريد الغمرات شوقا الى نعيمها وأجب الداعى الصادق الوفى الى ماوعد ودعاك اليه فانه قد حذرك نفسك وهواك وأنذرك حلول دار سخطه والتخلص من ذلك كله والوصول الى نعيم دار الخلود رفض المحبوب من اتباع الهوى فارفضه واجعل الموت ضجيعك والزهد قرينك والجد سلاحك والصدق مركبك والاخلاص زادك والخوف من الله على مقدمتك والشوق الى الجنة صاحب لوائك والمعرفة على ميمنتك واليقين على ميسرتك والثقة على ساقتك والصبر أمير جندك والرضا وزيرك والعلم مشيرك والتوكل درعك والشكر خليلك ثم انفر الى عدوك وصافقه بجميع ماذكرت لك وطب نفسا عن دار الهموم والاحزان الى دار البقاء والسرور مع الخيرات الحسان والله المستعان والحمد لله رب العالمين

﴿فصـــل﴾ ثم قال رحمه الله فلينظر العبد الى الله تعالى فى كل أمره فانه من نظر الى نفسه أو الى أحد من المخلوقين بأمل رجاء منفعته كان عزوبا لقلبه عن الله وكان منقوصا عن منزلة الواثقين المؤيدين . وقدقال الله عز وجل لداود عليه السلام ﴿ياداود انى قد آليت على نفسى أن لا أثيب عبدا من عبادى الا

عبـدا قد علمت من طلبته وارادته والقاء كنفه بين يدى أنه لاغنى له عنى وأنه لا يطمئن الى نفسه بنظرها وفعالها الا وكلته اليها أضف الأشياء الى فانى أنا مننت بها عليك واعلم أن العباد انمـا تفاوتوا وتباينوا فباختيارهم نظرالله تعالى على اختيار أنفسهم زادهم ذلك سرعة وقربا من معونة الله تعالى لهم وصنعه وتسـهيله عليهم و بالسهو عنه واختيارهم أنفسهم على نظر الله تعالى زادهم ذلك بطأو بعدا من معونة الله تعالى لهم وصنعه وتسهيله عليهم فكن فى نظرك الى ربك ناظرا بأن لاتؤمل غير صنعه و لا ترجو غير معونته وائتما باختياره فانذلك أقرب وأسرع فى معونته لك فان الذين قلدوا أمورهم ربهم و وثقوا به ولجؤا اليه قد أماتوا من قلوبهم تدبير أنفسهم وجعلوا الامور عندهم أسبابا مع قيامهم بها والمحافظةعليها فأولئك ذهبوا بصفو الدنيا والآخرة لسكون قلوبهم اليه فوجدوا بذلك الروح والراحة فهم حماة الدين والعلماء بالله قدفاقوا على من سواهم باطمئنانهم به وسكونهم اليه فأوجب لهم صنعه وأقام قلوبهم على منهاجه فمـا تقلبوا فيه من الأمر فعلى الرضا والطمأنينة ومن سواهم من الخلق فى مؤنة وتعب من أنفسهم حيث اختاروها وتوكلوا عليها فأورثتهم الهم والغموم وأما أهل العبودية لله فهم الذين قلدوه أمورهم وخرجوا عن طباع العباد لمـا تبين لهم من خطأ من اختار نفسه فجعلوا اختيارهم الرضا بمـا صيرهم اليه مولاهم من أمورهم فزالت الغموم عن قلوبهم فأوجب لهم الصنع والتوفيق فى أحوالهم وأورثهم الغنى والعز فى قلوبهم وسد عنهم أبواب الحاجات الى المخلوقين وأتتهم لطائف الله من حيث لايحتسبون وقام لهم بمـا يكتفون به ونزه أنفسهم عمـا سوى ذلك اكراما لهم عن فضول الدنيا وطهارة لقلوبهم عن التشـاغل بمـا أغناهم عنـه لحصنهم من كل دنس وأمشاهم فى طرقات الدنيا طيبين موالين له فهم فى السموات أشهر منهم فى الأرض ولأصواتهم هناك دوى ونور يعرفون به ويحيون عليه وقد رفع أبصار قلوبهم

اليه فهى ناظرة اليه بتلك القلوب غير محجوبة عنه بلا ادراك منهم لصفة و لا صورة ولا حد ولا احاطة منهم به سبحانه ولكن كيف شاء لهم ذلك فأحبهم وحببهم الى ملائكته وسائر خلقه وقد قال الله تبارك وتعالى ﴿ياداود تفضل على عبادى أكتبك من أوليائى وأحبائى وأباهى بك حملة عرشى وأرفع الحجب بينى و بينك فتنظر الى بيصر قلبك لاأحجبك عن ذلك ما كنت مستمسكا بطاعتى﴾ وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال ﴿قل لأهل محبتى يشتغلوابى فاذا علمت أن الغالب على قلوبهم الاشتغال بى والانقطاع الى كان حقا على أن أرفع الحجب بينى وبينهم ينظرون الى بأبصار قلوبهم فهم يتنعمون بذكرى قد أغناهم ذلك عن كل نعيم من نعيم الدنيا والآخرة﴾ فهؤلاء قد ملأ الله أسماعهم وأبصارهم وجوارحهم من حبه فأدبوا أنفسهم بالعبودية له والدخول فى محبته وذلك أن تأديب الرجل نفسه فى مطعمه ومشربه وملبسه يزيد فى صلاح قلبه وتنقاد جوارحه لقلبه و يقوى عزمه ويقهر هواه فيقوم عند ذلك مقام أهل القوة الى أن يرفعه الله الى منزلة فوقها حتى يستوى عنده الأخذ والترك فلا يأسفوا على مافاتهم ولا يفرحوا بما آتاهم للغنى الذى وقر فى قلوبهم يزدادون له محبة ومودة وشكرا له فى العلم به والمعرفة به فعند ذلك رقت قلوبهم وانقادت أهواؤهم الى ما قل من الدنيا وكفى فهى لاتطلع الى غير ذلك ناظرين الى ربهم فى أمورهم كلها لا الى الأسباب نظرهم من غير تفريط فى اقامة الأسباب الخالصة من أعمال البر فان لبسوا خشنا أو لينا أو حسنا أو قبيحا أو أكلوا طيبا أو كريها أو حلوا أو مرا أو حامضا أو قليلا أو كثيرا لم يغير ذلك من قلوبهم عن الحال التى هى عليها من ذكر ربهم وتعظيمه وذلك أن قلوبهم عامرة من ذكر الخالق وليس لشىء سواه فى قلوبهم ثبوت الا بالخاطر من غير أن يرسخ أو يثبت فلم يقم الناس مقاما أشرف من أن يعلقوا

قلوبهم بربهم ولا أولى بهم من ذلك لأنهم أشد الناس محافظة على جمع همومهم فى صلاتهم وجمع ما يتقربون به من ربهم ان قاموا عرفوا بين يدى من هم قيام له وكذلك ان ركعوا أو سجدوا أو تلوا القرآن أو دعوا ربهم لا تعزب قلوبهم عن ذلك . فيه زكت أعمالهم وصوبت عقولهم فهو يتعاهدهم بلطفه ويسوسهم بتوفيقه فقل عند ذلك خطؤهم وكثر صوابهم فمن كان يريد الدخول فى محبة طاعة الله فلا يكن له ثقة الا الله ولا غنى الا به ولا أمل غيره يرجوه ويتخذه وكيلا فى أموره كلها راضيا بقضائه فيما نقله اليه من أموره راضيا باختيار الله له متهما رأيه ولما تسول له نفسه مسلما راضيا عن الله غير متجبر ولا متملك فيما أحدث الله من مرض أو صحة أو رخاء أو شدة مما أحب أو كره وليكن قلبه بذلك راضيا لموضع الثقة بربه وحسن الظن به . فاذا كان العبد كذلك ورث الله قلبه المحبة له والشوق اليه وصار الى منزلة الرضا بما كفاه وحماه من الدنيا وان قل وأخرج من قلبه مطامع المخلوقين فاستغنى بالله فجعله الله من أولى الألباب ثم ألهمه مولاه علما من علمه فعرفه مالم يكن يعرفه وعلمه مالم يكن يعلمه فعن الله أخذ علمه وبأمر الله جل ذكره تأدب فطهرت أخلاقه لما آثر أمر الله ولجأ اليه فتمت عليه نعمة الله فى الدنيا والآخرة فأولئك المحبوبون فى أهل السموات المعروفون فيها خفى أمرهم على أهل الأرض وظهر أمرهم لأهل السموات لكلامهم هناك دوى ولبكائهم حنين تقعقع له أبواب السماء من سرعة فتحها اجابة لدعائهم فأعظم بهم عند الله جاها ومنزلة وأعظم بهم خوفا من الله وحسن ظن به فهم مسرورون بربهم قريرة أعينهم طربة قلوبهم بذكره مشتاقة ساكنة مطمئنة اليه قد تقدموا الناس وانقطع الناس عنهم وأشرفوا على الناس واشتغل الناس عنهم فعجبوا من الناس وعجب الناس منهم انقطعوا الى الله بهمومهم وأهوائهم وعلقوا به قلوبهم ولجئوا الى الله لجأ المستغيثين به المتوكلين عليه قد تخلصت اليه عقولهم بالمودة فأنزلوا نسيانه

معصية محرمة عليهم فقبلهم واجتباهم ونعمهم وخصهم و كفاهم و آواهم و علمهم وعرفهم وأسمعهم و بصرهم وحجبهم عن الآفات وحجب الآفات عنهم وأقامهم مقام الطهارة وأنزلهم منازل السلامة وأقام قلوبهم بذكره فلم يريدوا به بدلا و لا عنه حولا صيانة لديه وطربا واشتياقا اليه قد أذاقهم من حلاوة ذكره وألعقهم من لذاذة مناجاته وسقاهم بكأسه فهم والهون به لبس لهم مسكن غيره تضطرب قلوبهم عند فقده حتى ترجع الى موضع حنينها يحتملون الأشياء له و لا يحتملون شيئاً من غير أمره ولهم فى كل يوم وليلة منه هدايا مجددة فتارة يغلب على قلوبهم تعظيم ربهم وجلاله وتارة يغلب على قلوبهم قدرته وسلطانه وتارة يغلب على قلوبهم آلاؤه ونعماؤه وتارة يغلب على قلوبهم تقصيرهم عن واجب حقه وتارة يغلب على قلوبهم رأفته ورحمته وتارة يصيرون الى حنينه ولهم فى كل تارة دمعة ولذة و فى كل دمعة و لذة فكرة وعبرة وقلوبهم فى كل فكرة وعبرة مهتاجة طربة هائمة لذكر الله مستقلة به عما سواه فهم يسقون من كل تارة مشربا سائغا يذيقهم لذته ولهم فى كل مقام علم زيادة يعرفهم مايحدث لهم فى قلوبهم من الزيادة فلو رأيتهم وقد انقطعت آمال الخلق عنهم وأفضوا الى الله جل ذكره بجميع رغباتهم وانزاحت الأشياء الشاغلة عن قلوبهم فصمت عنها أسماعهم وانصرفت أبصار قلوبهم اليه فلهت به عما سواه حتى اذا جنهم الليل و زجرهم القرآن بعجائبه من وعده و وعيده وأخباره وأمثاله شربوا من كل نوع كأسا من الزجر والتحذير والأخبار والأمثال والوعد والوعيد و وجدوا حلاوة ماشربوا حتى اذا صفا يقينهم ارتفعوا الى عظمة سيدهم وجلال مولاهم خضع كل عضو منهم لله وخشعت كل جارحة منهم لسكونها اليه غير منتشرة عليهم همومهم بل كل ذلك لذاذة لاستماعه فقد كشف لهم القرآن عن أموره و كشف لهم عن عجائبه ودلهم على باطن علمه فيفهمونه فيسمون به الى جلال سيدهم

و وقاره حتى اذا اتقدت الأنوار فى قلوبهم وتمكن اليقين من أجوافهم وحنت القلوب لحنينها وضاقت عن احتمال ماهجم عليها هاج منهم مالا يملكون امساكه فلما بلغ الأمر منهم مداه وانتهى كل شيء منهم منتهاه أقبل عليهم ربهم جل جلاله بالطمأنينة والسكون فلولا حسن سياسته لهم ونظره ولطفه بهم مارجعت اليهم عقولهم ولا أثبتوا معارفهم ولا سكنوا منازلهم للذى هجم على أبصار قلوبهم من عظمة سيدهم فهم يزدادون له ذكرا ومودة ومحبة فى كل ماامتحنهم به من أمر الدنيا والآخرة فقد أعرضوا عن كل نعيم عاجل أو آجل واشتغلوا عن النعيم بذكر مولاهم وكل ذلك منة منه وتفضل عليهم فهم أدلاء لعباده وأعلام فى بلاده وحجة له على خلقه وخلف الأنبياء و ودائع علمه فهم ينزل الغيث و بهم يصرف العذاب و بهم ينصر على العدو فهم بركة بين ظهرانينا يحبون الله ويحبون ذكره أقاموا مشيئتهم فيما وافق محبة ربهم يغضبون لغضبه و يحبون لمحبته فهو يسوسهم بسياسته و يوفقهم بتوفيقه يأتيهم العون من الله تعالى فى كل حال يرحمون الخلق برحمة ربهم و يؤملون فضله قد أزال عن قلوبهم المطامع وأسكنها الغنى فاكتفوا بما جزاهم و بلغوا بما بلغهم فهم القانتون الراهبون السائحون الراغبون المحبون لله الذين فكروا فى قدرته وعملوا فى محبته حتى ورثوا الرهبة ثم ورثوا الرغبة ثم ورثوا الشوق ثم رفعهم الى منزلة لم يكن لهم فيها رغبة ، لم يكن لهم فيها غير ربهم همة غلبت المحبة على قلوبهم واستولت على عقولهم وأهوائهم فبنوا على ذلك أعمالهم وصيروا فيه جميع رغباتهم ثم رفعهم الى مزيد فوائده فهم أولياء الله حقا منهم المرسلون والنبيون والصديقون والشهداء والصالحون فاقوا أهل السماء وأهل الأرض لشدة حبهم لربهم فما أصابوا من الدنيا لم يصيبوه على جهة مايصيبه أهل الدنيا من التلذذ والطرب اليه والاشتغال به والتفكه انما يصيبونه على موضع التقوية على عبادة ربهم ودوا لو أنهم أكلوا من الدنيا أكلة واحدة

تكون آخر زادهم منها لا كتفوا بما قل فاما أعطوا الله ذلك من قلوبهم ضيق أمعاءهم وأسقط عنهم شهواتهم واكتفوا باليسير من المطعم فعند ذلك خفت عليهم مؤنة الدنيا فلم ينافسوا فيها أحدا فتلك حالاتهم فى المطعم والملبس ماتهيأ أكلوه ولبسوه وليس لهم تخيير ولا تلذذ فى أخذو لاترك خوف الشهوات والاشتغال عماهم فيه فأسكن الله فى قلوبهم من معرفته وحبه ماأذاب كل مودة لأهل أو ولد أو مال فان عرض من ذلك فى قلوبهم عارض لخاطر من غير ثبوت فيها ورثوا نور الهدى فأبصروا مواضع حيل ابليس ومكره فكسروا عليه كيده ولبسوا عليه أمره ودلوا الناس على مواضع مكره فهم نصحاء الله فى عباده وأمناؤه فى بلاده ثم أسكن محبتهم فى ملكوت السموات فى عليين فأحبهم وحببهم الى ملائكته . فأحيوا قلوبكم أيها المريدون بالذكر وأميتوها بالخشية ونوروها بحب لقاء الله وفرحوها بالشوق اليه واقمعوها بالمناصحة . واعلموا أنكم بالمحبة ترتفعون و بالمعرفة ترهبون و بالشوق ترغبون و بحسن النية تقهرون الهوى و بترك الشهوات تصفو لكم أعمالكم وتؤثرون ربكم وحده حتى يؤثركم ملكوت السماء فى عليين فمن كان منكم مريدا للراحة فليعمل فى منازل أهل محبة الله جل ذكره بعزم وارادة قوة وهى الدرجات السبع التى تتنقل فيها بنو آدم حتى يصيروا الى المعرفة والعلم وهى الدرجات التى أرسل الله جل ذكره عليها الرسل ثم الأنبياء الذين لم يأتهم الوحى مع جبريل ولا غيره من الملائكة انما يكون ذلك بالالهام من الله عز وجل والعوائد وانما ورث ذلك الأنبياء من المرسلين الذين خصهم الله برسالته ثم ورث ذلك بعد الأنبياء الصديقون فاقتدوا بهم وجدوا فى آثارهم فانه لم يحكم هذه الدرجات السبع الا رسول أو نبي أو صديق أو بدل من الأبدال الذين جعلهم الله أوتاد الأرض فسقى بهم الغيث وأنزل على العباد بدعائهم الرحمة وصرف عنهم بهم السوء فمن كان مريداً للعمل

فى هذه الدرجات والاقتداء بالمرسلين والنبيين والصديقين فى سيرهم فليرفض الدنيا من قلبه حتى لايكون فيه منها علاقة تشغله عن ربه فانه من تعلق قلبه بشيء منها شغله حتى تغلب عليه فليبدأ برفض الدنيا وطرحها من قلبه حتى لا تعدل عنده قدر جناح بعوضة فانها عند الله عز ذكره بتلك المنزلة وأصغر

﴿فصـــل﴾ قال رحمه الله فأول مايبدأ به ويتناول من الدرجات السبع درجة المعرفة وهو أن يعرف ربه كما ينبغى له من حيث تعرف اليه ربه فقد تعرف الى خلقه بخلقه اياهم وتدبيره فيهم وبصفته بما وصف به نفسه فانه غفور رحيم لمن أناب اليه وطلب رضاه وأنه شديد العقاب لمن كذب به وكذب عليه وكذب رسله وعصاه . واعلم أن من لم يحكم أمر المعرفة لم يدرك ماسواها من العلم والعمل ولا من الدرجات التى ذكرنا ولا تكون المعرفة حتى تثبت فى القلب باليقين الراسخ فاذا كان ذلك كذلك كانت الأعمال الصالحة على قدر المعرفة فان قصر فى المعرفة كان فى العمل أشد تقصيرا وضعفا لنيته ولم يجد السبيل الى بلوغ تلك الدرجات . ومن عرف الله علم أنه قائم على قلبه بما كسب وأنه معه يراه وينظره فى جميع أحواله فاذا علم أن ذلك كذلك لم يكن شيء أحب اليه من رضاه ولقائه ولا أبغض اليه من معصيته وبقائه وان أحب البقاء فى الدنيا لم يحبه الا للعمل بطاعته . ولينظر المريد للمعرفة فى أسماء الله ويتدبرها حتى يعرفه بها ويدخل ذلك قلبه فانه يورث قلبه بذلك العلم وهى الدرجة الثانية . فاذا كان عالما به علم أنه لايقبل منه الا ماأمره به ونهاه عنه وعلم أن ذلك عنده ينشطه للعمل الصالح . ثم يورث قلبه بعد ذلك الخشية وهى الدرجة الثالثة درجة التقوى لله لقول الله عز وجل ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وهى مراقبته فى السر والعلانية . فاذا دخل فى هذه الدرجة استقل كل مايعمله لله جل ذكره فعند ذلك لايألو جهدا ولا اجتهادا ولا يمل . فاذا وصل العبد

الى ذلك ودأب على عمله فيما يرضى ربه نظر الله اليه بالرحمة فعند ذلك يورث قلبه الحب له وهى الدرجة الرابعة . فاذا صار الى هذه الدرجة آثر حب الله على جميع حب خلقه وأحب الله وحببه الى ملائكته الذين حول عرشه والى ملائكة السموات كلها وأهل الأرض ومن فيها و بسط حبه على الماء فلا يشربه أحد من جميع خلقه الا أحبه و لايزداد فى عمله الإجدا واجتهادا فورث قلبه بعدهذا الشوق اليه والحب للقائه وهى الدرجة الخامسة . فيكون بمنزلة العاشق قدغلب على قلبه الذكر لله وشغل عن كثير من العمل ماخلا الفرائض واجتناب المحارم ويكون فى ذلك الحال أقوى من كل عامل فى الدنيا وأرفع منزلة لأنه لم يتفرغ قلبه من ذكر ربه طرفة عين لانائما ولاقائما ولا آكلا ولاشاربا والله لاينسى من ذكره فلو تركه الله عز وجل على تلك الحال لذاب كما يذوب الملح فى الماء ولما انتفع بشىء من أمور الدنيا حتى يموت تشوقا الى الله الا أنه اذا رآه الله على تلك الحال من عليه بالطمأنينة وهى الدرجة السادسة . فيطمئن قلبه حتى يكون كأنه معاين له وكأنه بين يديه فيكون هو مستودعه وأنيسه وسائسه ودليله فعند ذلك يورث قلبه الغنى ولايحتاج الى غيره فيكون معظم دعائه للخلق بالصلاح وصرف السوء عنهم حتى يصير بمنزلة الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون و يستغفرون لمن فى الأرض فعند ذلك لاتسقط له دعوة وهى الدرجة السابعة . فاذا صار الى تلك الحال لم يتفوه بشىء من حوائجه اذا خطرت بباله تصير بين يديه وماأراد منها يأتيه من غير أن يدعو بشىء خطر على باله لطفاً من الله وتعاهدا منه حتى يعجب من لطفه ونظره وصنعه فيكون قوله عدلا وفعله رضا فالحمد لله الذى من والاه نعمه وأغناه والحمد لله رب العالمين

فصل فى الرياء

اعلم وفقنا الله واياك أن آكد ماعلى المريد فى ابتداء أمره التحفظ على نفسه والتحرز من الآفات التى تعتوره فيما هو بصدده اذ أن العوائق كثيرة ظاهرا وباطنا فقد يكون ذلك سببا لمنع الوصول الى ماتقدم ذكره فيأخذ نفسه أولا بالجد والاجتهاد فى التحرز مما ذكر ليسلم له ماتقدم وصفه. فأول ذلك أن يتقى الرياء والعجب والشهرة والكبر لانه سم قاتل أدنى الأشياء منه يحبط الأعمال كلها وقد يخفى فى بعض الأحوال لانه أخفى من دبيب النمل كما ورد لكن يتبين أمره وتظهر آفاته بما ذكره الشيخ الامام يمن بن رزق رحمه الله وهو أن قال أصل العبد لم يزل مذ نشأ مرائيا فى جميع أحواله وذلك لميله الى الدنيا وايثاره لها على الآخرة واهماله نفسه وارساله نيته فلما أهمل نفسه وقلت محاسبته لها لم يتخلص من الرياء فعمل للدنيا على غير أصل نية ثابتة وقد نهى الله عن اهمال النفس وتضييع الأعمال فقال الله تبارك وتعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فنهاهم عز وجل عن اضاعة الأعمال فلا يكون عمل من الأعمال الا عن ارادة ولا تكون الارادة الا عن نية وقد نهى الله تبارك وتعالى عن اضاعة شىء من ذلك وأى عمل أكبر من الارادة والنية وقد وجدنا الانسان لا يخلو من حركة أو سكون والحركة والسكون جميعا عمل وقد نهى الله عن تضييع العمل فلما ترك ما أمره الله به من اخلاص العمل لم يميز بين الرياء وغيره وأمرج نفسه(١) فعمل على ما يخطر بباله وجميع ما يتقلب فيه رياء محض ظاهر لا يعرفه هو من نفسه ويعرفه منه من نور الله الحكمة فى قلبه فهم يرون فعلهم فعل أهل الرياء فنهم من يمسك عن صاحبه لمعرفته به ولو أنه

(١) أمرج نفسه: كما ترعى على هواها

أبدى اليه شيئاً من عيوبه لنفر منه وذب عن نفسه وأبطل مانسبه اليه فصار عدوا مشاحنا وأقل مايقول للعارف بعيوبه حسدتنى فلما علم الحكيم أهل زمانه وأن زمانه زمان غلبة الهوى واعجاب كل ذى رأى برأيه اعتزل بنفسه ونفر عن العامة وعلم أنه زمان قد صار المعروف فيه عند أهله منكرا وأن الشر قد أحاط بالخير واعتزل أهل زمانه بصدق الارادة فلما تبين له الصدق ومافيه وأن العمل لا يصفو الا بالصدق اتقى الكذب وفنونه كلها وتشوقت عند ذلك نفسه الى الكذب والرياء لحلاوة فنونه عندها فأخذها بالجد والاجتهاد فى ترك ذلك فلما رأت ذلك منه رجعت منقادة فلما صارت الى تلك الحالة ورأى العبد ذلك منها ازداد الى الصدق تشوقا وازداد للكذب مقتا وانما كان ينفر الصدق وفنونه من قلبه لغلبة الكذب وفنونه عليه وهو الرياء والعجب وحب الرياسة واتخاذ المنزلة عند المخلوقين والمحمدة والعزة والتعظيم والتخيير فى الأعمال الكاذبة فمن عمل بالصدق واتقى الكذب برئ من الرياء والعجب ودواعى الشر كله فاذا خلا من ذلك ثبت الصدق وفنونه فى قلبه. قال بعض الحكماء ان الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى فان امتنع منه أتاه من وجه النصيحة ليستدرجه فلا يزال به حتى يلقيه فى بدعة فان امتنع عليه أتاه من جهة الحرج والشدة ليحرم حلالا أو يحل حراما فان امتنع عليه أتاه من قبل الوضوء فيشككه فى وضوئه وصلاته وصيامه حتى يعتقد بهواه أمرا يضل به عن السبيل ويدع العلم فاذا قدر منه على شئ من ذلك خلى بينه وبين العبادة والزهد وقيام الليل والصدقة وكل أعمال البر ويخفف ذلك عليه وربما كايده الشيطان من المردة فيقول له ابليس دعه لا تصده عما يريد فانما بأمرى يعمل فاذا نظر اليه الناس فى عبادته وزهده وصبره ورضاه بالذل قالت العامة ومن لا علم له هذا عالم مصيب صابر فيتبعونه على ضلالته ويمد له ابليس الصوت فيعجب بعمله فيكون فتنة لكل مفتون. ومن علامته

الاعجاب برأيه والازراء على من لا يعمل مثل عمله ويكون نظره للناس بالاحتقار لهم ويتغضب عليهم فى التقصير به. وقد روى فى العلم احذروا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاسق فان فتنتهما فتنة لكل مفتون. واعلم ياأخى أن العبد اذا أراد أن يعمل العمل بالرفق قال له العدو ان العمل بالخير لا ينفعك حتى تدع الشر كله وتزهد فى الدنيا وتعتزل عن الناس فاعرف نفسك وأصلح عيوبك والذى عندك أكثر وأعظم من أن يصلح هكذا سريعا ويعظم عليه الأمر حتى يكاد يقنط وينقطع عن العمل وان كان فى يديه دنيا عرض له بحسن الظن والرجاء والتسويف وطول الأمل فان أجابه الى هذا الباب قطعهُ عن البر وشغله بالدنيا وشهواتها وان رد ذلك عليه وقال التوبة قال صدقت لعمرى لقد فرطت وأخاف أن يدركك الموت فعليك بالجد والاجتهاد ولا تريد أن تقصر فيلزمه أشد العبادة فيثبت أو ينقطع أو يذهب عقله فان اشتهر بذلك عند الناس ألقى اليه طول الأمل وخوفه قلة الصبر ويقول له لك بالناس أسوة فيبغض اليه العبادة ويثقلها عليه ثم يقول له ان الناس قد عرفوك بالعمل فلا تبد لهم التقصير ودع نفسك فى السر ويعرض له بغذائه الاول من الشهوات التى كان يصيبها فيميل اليها ويرجع الى حالته الاولى وصار عمله علانية رياء لا ينفعه شىء وعلامة ذلك أن يستحلى الكلام فى الزهد وما يزينه عند الناس ويحبب اليه مجالسة الناس فتصير عبادته وزهده كله بالكلام. فالعالم عرف ضعف نفسه وعرف زمانه وقلة الاعوان فيه على الخير وكثرة الاعداء فأخذ الأمر بالرفق والاستعانة بالله وطلب صفاء الأعمال والاخلاص فيها وان قلت الأعمال وطلب مخالفة الهوى ونقل الطباع بالرفق وموافقة السنة وأخرج الناس من قلبه وقصد جهاد نفسه ومحاربة الشيطان والمعاندة للهوى بالخلاف لما يلقون اليه فان الله جل ثناؤه قد جعل لكل مكيدة من مكائد الشيطان سلاحا يدفع به تلك المكيدات

و ينبغي للعابد أن يعرف نزغات الشيطان من أين تأتيه وما تهواه النفس فان الشيطان لا يصل الى العبد ولا يقدر عليه الامن قبل موافقة الهوى فاذا بدأ العبد بنفسه ومحاربتها و بهواه فأماته هان عليه الشيطان. واعلم ياأخى أن هذا الدين متين فان أنت وغلت فيه بالرفق أمكنك وشر السير الحقحقة(١) وقليل تدوم عليه خير من اجتهاد يقطعك فانك لم ترشيئاً أشد توليا من القارىء اذا تولى و يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يتعوذ من الحور بعد الكور(٢) وكانوا يحبون الزيادة و يكرهون النقصان . و ينبغي للعابد أن يكون حذرا من مخالفة السنة فان من خالف السنة خالف الحق ومن خالف الحق هلك . فائت العلماء والزم أدبهم فان رأيتهم يقصرون فى بعض مايقولون فلا تزهد فيهم واقتد بذى البصيرة منهم والبصر ومن يوافق قوله فعله. وذلك أنه يروى عن مطرف بن عبدالله بن الشخير أنه قال عقول الرجال على قدر أزمنتهم فاذا نقص العقل نقص البر كله فاعرف نفسك فى زمانك. واعلم أن الزهد والعبادة والعلم المعمول به فى هذا الزمان قليل واذا كان من يتشبه بالعلماء لا يصبر على نزول المحن فكيف يصبر الجاهل على نزولها واذا كان من يتشبه بالزهاد لا يصبر فكيف يصبر الراغب فى الدنيا والعالم من أهل هذا الزمان من شدة الصبر خرج والجاهل من شدة الصبر حرج . وأما العالم الصادق الذى استوجب اسم العلم على الحقيقة فانه يكره من علمه بالله أن يظهر بلسانه أو بيده أو بجوارحه أكثر مما فى قلبه فيمقته الله على ذلك ولم يره الله يؤثر دنياه على آخرته فصبر على الدنيا وصبر على الذم والتقصير والتقلل وكره المدح والتوسع من الدنيا والجاهل الذى يعمل بجهل جزع من الذم وفرح بالمدح والتوسع من الدنيا حتى صبر على الدنيا من الجزع فاحذر

(١) الحقحقة السير بعنف (٢) الحور النقص . والكور الزيادة أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم يتعوذ من النقص بعد الزيادة

أن تصبر صبر الجاهل ولذلك ثقل العمل على أهل العلم بالله وخف على أهل الجهل ونوم العالم أفضل من اجتهاد الجاهل وضحك العالم بالله أفضل من بكاء الجاهل فاحذر ابليس على أفعالك كلها واحذر نفسك وهواك واحذر أهل زمانك ولا تأمن أحدا منهم على دينك . واعلم أن ابليس قد نصب لك حبائله وأقعد لك الرصدة على كل منهل وقد سلط أن يجرى منك مجرى الدم فى العروق ويراك هو وأعوانه من حيث لاتراهم . واعلم أنه يأتيك من قبل الرياء والعجب والكبر والشك والاياس والأمن من المكر والاستدراج وترك الاشفاق فان تابعته فى شىء من ذلك فأنت على سبيل هلكة فحينئذ يخلى بينك وبين ماشئت من العمل فان خالفته أتاك من قبل الدنيا ليستولى الهوى على قلبك فيتمكن هو من الذى يريد منك فان خالفته أتاك من قبل المعاصى فان خالفته أتاك من قبل النصيحة . وهذه الخصال التى وصفت لك كلها أشد من المعاصى وصاحبها لايكاد يتوب من شىء منها وربما انتبه العبد فتاب منها فان ظفر من العبد بالعجب قال له ان الناس يقتدون بك فاعمل وأعلن عملك فيتأسى الناس بك ويعملون مثل عملك ويكون ذلك مثل أجر من عمل مثل عملك لانه من دل على خير فله مثل أجر فاعله فاذا ظهر عمله فرح به فصار معجبا وحمد نفسه فنسى النعمة عليه فاذا نظر الى عمله حبب اليه حمدهم واتخاذ المنزلة عندهم فاذا فعل ذلك صار مرائيا مفاخرا . فاتهم فرح القلب بالعمل فان الفرح الى القلب الفرح أقرب وأسرع منه الى القلب الحزين وأقلل من معرفة الناس فانه ليس يأتيك ماتكره الامن تعرف فان كان لا يأتيك ماتكره الامن قبلهم فكلما قلوا كان خيرا . واعلم أن العبد يعمل العمل فى السر فلا يزال به ابليس يقول أظهره ليقتدى بك الناس فيه وتنشطهم على طاعة ربك فلا يزال به حتى يظهره فاذا أظهره كتب فى ديوان العلانية فلا يزال به حتى يفتخر به فاذا افتخر به كتب فى ديوان الرياء فعليك بعمل السر وكتمانه وخمول النفس

واسقاط المنزلة واكتم الحسنات كما تكتم السيئات وخف من فضيحة الحسنات كما تخاف من فضيحة السيئات فان المفتضح بالسيئات ليس يفتضح عند الخلق كلهم انما يفتضح عند قوم دون قوم والمفتضح بالحسنات اذا دخلها الرياء افتضح عند الخالق كلهم فاحذر واستح من الله أن يراك تعمل لغيره وتطلب الثواب منه وأخلص العمل لله واصدق فيه. واعلم أن تخليص العمل فى العمل أشد من العمل حتى يتخلص والاتقاء من العمل بعد العمل أشد من العمل فى العمل. واعلم أنه لا يقبل الله عملا من مراء ولا من مسمع ولا من داع الا بثبوت من قلبه واحذر الرياء كله فان أوله وآخره باطل وكن فى العمل متأنياً وقافاً فاذا هممت بعمل فقف عنده فان كان لله خالصا فاحمد الله وامض فيه واستعن بالله على اخلاصه وأكلف من العمل ماتطيق وتحب أن تزداد منه ودم عليه فان أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل فاعمل بما يتبين لك أنه حق واضح فاذا أشكل عليك فقف ولاتقتحم وناظر العلماء الذين يعملون بعلمهم فهم الذين قصدوا الى الله وهم الدعاة الى سبيل النجاة الأدلاء على الله لان المؤمن وقاف عند ماشتبه عليه وليس كحاطب الليل فناظر العلماء فيما التبس عليك فما اجتمعوا عليه فخذ به وما اختلفوا فيه فخذ أنت فيه بالثقة والاحتياط فان الاثم حواز القلوب. واعلم أن ابليس ربما قال للعبد قد سبقك الناس الى الله متى تلحق بهم فليقل له عند ذلك قد عرفتك أنا فى الطلب ان رفقت لحقت وان لم أرفق لم ألحق ان صبرت على القليل نلت الكثير وان عجزت عن القليل فأنا عن الكثير أعجز وقد قال الله عز وجل ﴿واذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ فالزينة من الشيطان والنور من الله عز وجل فاذا عمل العبد عملا فرأى الشيطان معه نورا كانت همة الخبيث أن يطفئ ذلك النور فان كان الغالب على العبد عمل السر أخرجه الى عمل العلانية بحيلته ومكيدته فان عمل فى العلانية بصدق واخلاص فرأى

فى عمله العلانية نوراوصبرا أمره بمخالطة الناس ليؤذى فلا يحتمل فان خالطهم وأوذى واحتمل الأذى أمره بالعزلة والراحة من الناس ليعجب بما يعمل و يضجر من العمل فان اعتزل وصبر وأخلص قال له ارفق خير لك فيصده عن العبادة وانما يلتمس من الأشياء غفلته فينبغى للعبد أن يكون غير غافل عنه وليستعن بالله عليه . واعلم أن صاحب الاخلاص خائف وجل حزين متواضع منتظر للفرج من عند الله يود أنه نجا كفافاً لا له ولا عليه. والجاهل فرح فخور متكبر مدل بعمله . و يروى عن بعض الحكماء أنه قال انى لأعرف مائة باب من الخير وليس عندى منها شىء . واعلم أن العالم العامل الصادق المخلص العارف الخائف المشتاق الراضى المسلم الموفق الواثق المتوكل المحب لربه يحب أن لا يرى شخصه ولا يحكى قوله ويود أنه أفلت كفافاً فمعرفته بنفسه بلغت به هذه الدرجات وتمسكه بهذه العزائم أوصله الى محض الايمان . والجاهل المسكين يحب أن يعرف بالخير و ينتشر عنه و ينشر ذكره ولا يحب أن يزرى عليه فى قول ولا فعل بل يحب أن يحمد على ذلك كله و يوطأ عقبه وان لم يزر لهم شيئاً وانما شدة حبه لذلك لحلاوة الثناء والحب لاقامة المنزلة والفتنة فى هذا عظيمة والمؤنة عليه شديدة وهو عبد من عبيد الهوى يتلاعب به الشيطان كل التلاعب تنقضى أيامه ويفنى عمره على هذا الحال أسيراً للشيطان وعبداً للهوى . واعلم أن الشيطان اذا نظر الى العبد مريدا صادقا مخلصا مداوما عارفا بنفسه عارفا بهواه معاندا لها حذرا مستعدا عارفا بفقره الى الله تعالى قال له ان هذا الأمر لا يصلح الا بالأعوان عليه والشيطان على الواحد أقوى وهو من الاثنين أبعد فجالس اخوانك وذاكرهم وأخبرهم بما ينوبك فى عملك من نفسك وهواك ومن عدوك فانهم يدلونك و يعينونك يريد بذلك ذهاب حزن الخلوات واطفاء نور العزلة وقطع سبيل النجاة وفتح طريق الفضول والشغل بغير الله واخراجه

من عمل السر الى عمل العلانية وانما يريد بذلك كله اطفاء ماقد أحدث الله عز وجل فى قلب العبد من نور ذكر الخلوات فان قلت هذا انما هو من الشيطان قال لك أجل انما هو من الشيطان تعليمك الناس أفضل من عملك فلو أخبرت الناس بذلك لكان خيرا لك ليعلموا من آفات الأعمال ماتعلم فتوجر فيهم فان قلت أيضا هذا من الشيطان قال لك لولا علمك لم تعلم بهذه الآفات لتعجب بنفسك وتنسى النعمة عليك فى العمل فتحمد النفس فلايجاوز عملك رأسك فاحذر هذا الباب فان فيه شهوات خفية ومن الشهوات الخفية أن يخفى العبد عمله ويحب أن يعلم الناس به ويحب أن يرى أثر ذلك عليه والعمل خفى فى السر الا أنه يحب أن يرى أثر ذلك العمل عليه اما من علامة عطش ان كان صائما أو علامة سهر فى الوجه ان كان قام من الليل . واعلم أن العبد ان قال أنا أعمل لله لا للناس قال له صدقت أخلص عملك لله فان المخلص يحببه الله الى الناس ويعرفهم فضله فان قال العبد وماحاجتى الى الناس قال فأنت الآن المخلص الذى قد أخرجت الناس من قلبك وعرفت مكيدة ابليس وقد نجوت وأنت معصوم فان عقل العبد وقال له ومن أنا وانما الأعمال من من الله على العباد ولها شكر وانما الأعمال بخواتيمها وانما الثواب على الله يوم الجزاء لمن أخلص ولم يعجب بعمله ولم ينسب الى نفسه نعمة هى من الله قد وجب له بها عليه الشكر فانه يقول للعبد عند ذلك الآن نجوت حين اعترفت لله بذلك وقمت بشكر النعمة وتواضعت لربك وبرأت نفسك من العمل ونسبته الى الذى هو منه فان قبلت ذلك منه هلكت ولكن قل أنا أرجو وأخاف وليس الى من النجاة شىء ولست أدرى بما يختم لى عملى . واياك ثم اياك والتزين بترك التزين وذلك أنه ربما تزين الرجل بالرقاع والخرق والشعث وترك الدنيا وانما يريد بذلك كله التزين فان فعلت ذلك نزلت بمحلة خشوع النفاق وان عرفت نفسك

بشيء من ذلك ولم تسارع الى التحول عنه خفت أن يلحقك الخذلان والمقت فاتق الله فى جميع أمورك واعمل له كأنك تراه . فان قال لك الخبيث الآن نجوت حين عرفت نفسك وأنزلتها هذه المنزلة وحذرت هواك وعدوك فقل الآن هلكت حين أمنت العقاب فان قال لك الآن نجوت حين خفت أن تكون قد أمنت العقاب فقل الآن هلكت لو كنت صادقا لصدق قولى فعلى ولازددت خوفا وحياء من الله جل ذكره ولو كنت كذلك لحال بينى وبينك وجعلنى فى حرزه وحصنه ومن عباده الذين قال فيهم ﴿ان عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ ولم تكن أنت تدخل على فى عملى فان قال لك جاهد نفسك فانه أفضل العمل فان الناس قد شغلهم أمر غيرهم واتبعوا أهواءهم وأنت بينهم غريب وأنت كالشجرة الخضراء بين الشجر اليابس . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال طوبى للغرباء وأنت المعروف فى أهل السماء والمجهول فى أهل الأرض فان قبلت ذلك هلكت وان قلت هذا من الشيطان قال لك صدقت هذا من الشيطان وقد كثرت عليك مكائده ومجاهدة نفسك وهواك فكم تعذب نفسك ان كنت شقيا لم تسعد أبدا وان كنت سعيدا لم تشق أبدا ولا يضرك ترك العمل ان كنت سعيدا ولا ينفعك العمل الكثير ان كنت شقيا فان قبلت القنوط الذى ألقاه اليك هلكت وان تركت العمل ونلت من الشهوات على الغرور وحسن الظن بزعمك والاتكال على الرجاء الكاذب والطمع الكاذب والامانى الكاذبة ورجوت الجنة بالغرور وطلبتها طلب المتعبدين بالراحة عطبت وان امتنعت قال لك أحسن ظنك بالله فانه يقول أنا عند ظن عبدى بى والله يحب اليسر والدين واسع والله غفور رحيم فاعرف نفسك عند ذلك واعتصم بالله ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ واعلم أنك ان كنت فى بلد وأنت فيه سالم وأمرك فيه مستقيم والنور معك فى فعلك وقولك قال لك عليك بالثغور وعليك

بمكة وعليك بكذا فان قبلت ذلك رأيت فترة فى عاجل عملك وقساوة فى قلبك و وقعت فى المشورة يريد بذلك النقصان بسبب السفر والشغل به عن الدأب فى العبادة والنشاط الذى كان معك فان صرت الى بلد أنت فيه مسرور وقلبك ريح قال لك موضعك كان أصلح لقلبك وأجمع لهمتك فارجع الى موضعك فان أحب الأعمال الى الله أدومها مع معرفة النفس والفقر الى الله تعالى فان للدأب ثوابا وللصبر ثوابا ﴿ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ واعلم أن من ينجو بالأعمال أكثر ممن يهلك بها وكل عبد ميسر لما خلق له. واعلم أن من يهلك بالتفريط والتضييع أكثر وينبغى للمؤمن أن يكون راغبا راهبا لا يأمن ولا ييأس. واعلم أنه يأتيك من وجوه كثيرة لا يغفل ولا يألوك خبالا ان كنت مقلا عندك من الدنيا شيء يسير تريد أن تقوته نفسك أمرك بالصدقة ورغبك فيها لتخرج ما فى يديك وتحتاج رجاء أن يظفر بك فى حال الغفلة وان كنت غنيا أمرك بالامساك ورغبك فيه وخوفك الفقر والحاجة وقال لك ابدأ بمن تعول ولعلك تكبر وتضعف ويطول عمرك يريد بذلك أن تصير الى حال البخل فيظفر بك وان كنت تصوم وقد عرفت بالصوم وأحببت أن تريح نفسك قال لك قد عرفت بالصوم لا تفطر فيضع الناس أمرك على أنك قد كبرت وتغيرت وفترت وعجزت فان قلت مالى وللناس قال لك صدقت أفطر فان المحسن معان سيضعون أمرك على أحسن الوجوه فان قبلت ذلك منه وأفطرت على أن الناس سيضعون أمرك على أحسن الوجوه والمنزلة لا تسقط عندهم بافطارك فقد عطبت وان أنت نفيت ذلك تركه ونصب لك بابا آخر فقال لك عليك بالتواضع ليشهرك عند الناس وكلما ازددت تواضعا على قبوله منه للشهوة والشهرة ازداد كلبا عليك فاتق ما وصفت لك والجأ الى الله فى أمورك كلها واترك كل شيء من الدنيا لعمل الآخرة رغبة منك فى الآخرة وحبا لها وايثارا لها على الدنيا فبحبك اياها

تصل اليها و بقدر حبك لها تعمل لها واقل الدنيا وابغضها فبقدر بغضك لها تزهد فيها وانظر ان كنت ذا علم نخف أن توقف يوم القيامة فيقال لك بعداً وسحقاً بعد العلم والتبصر ملت الى الدنيا وتركت العلم والعمل واخترت ما أسخط الله ما غرك بربك الكريم أيها المغرور فليعبد الله العالم بطاعة العلم و ليترك طاعة الجهل وليترك الاغترار. واعلم أن الشيطان يوم القيامة يتبرأ من جميع من أطاعه فى الدنيا وهو يقول فى الدنيا من ظن أنه ينجو منى بحيلة فنى حبالى وقع قال الله تبارك وتعالى ﴿ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وقال ﴿ياأيهاالناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد﴾ فافهم واحذر وافطن وانظر وحارب واستعد وكابد وجاهد واستعن بالله تعالى. واعلم أن العبد اذا قام الى الصلاة يريد بها ثواب الله وحده ﴿فثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا و لا يلقاها الا الصابرون﴾ وان أراد بها ثواب الله وحمد غيره هلك. واعلم أن أولى الأشياء بالعبد أن يخلص عمله كله لله والكلام فيه كثير غير أن الأصل فى اخلاص العمل أن يعمل العبد العمل كله يريد به الله لايحب أن يطلع عليه أحد من الناس فان اطلع أحد على عمله كره ذلك بقلبه ولم يسر بذلك فلم يحب أن يحمده أحد على شئ من عمله ولم يتخذ به منزلة عندهم فهذا أصل اخلاص العمل والله المستعان. وأما الرياء فهو أن تحب أن يحمدك الناس على شيء من عملك أو تقوم لك به منزلة عندهم ومن أراد العمل اقتصر على القليل ومن لم يرد العمل لم يكتف بالكثير. واعلم أن الناس فى العمل على ثلاثة أصناف. صنف أهملوا أنفسهم فى العمل من البر فعملوا ليعرفوا بالخير فهم الهالكون. وصنف أهل رهبة من الله ورغبة فيما عنده يكابدون الأعمال بالصدق والاخلاص و يتقون فسادالأعمال و لايحبون المحمدة من المخلوقين و لا المنزلة عندهم و لا يعملون شيئا من العمل للناس و لا يتركون

من أجلهم شيئا وأحيانا تعرض لهم العوارض وأحيانا يسلمون منها . وصنف قوى اخلاصهم واستقامت سريرتهم وعلانيتهم أخلصوا العمل لله وتركوا الدنيا بعد معرفتهم بها ونظروا اليها بالعين التي ينبغي أن ينظر بها اليها فرأوا عيوبها فمقتوها وصدقوا الله فى مقتهم لها وتركوها زهدا فيها وصدقوا الله فى ذلك فمات ذلك من قلوبهم وذاب ولم يكن لها فى قلوبهم قرار لقوة التعظيم لله فى قلوبهم فلما استولت العظمة على قلوبهم لم يكن للدنيا ولا لأهلها فى قلوبهم مستقر ولا قرار فالحمد لله ذى المن والفضل العظيم . ومن الرياء أن العبد يرائى أهل الدنيا بالدنيا فى لباسه ومركوبه ومسكنه وفرشه وطعامه وشرابه وخدمه حتى الدهن والكحل ونحو ذلك يريد بها صيانة نفسه وهو رياء وليس كالرياء بالأعمال التى يبتغى بها وجه الله لأن المرائين من المؤمنين يخاف عليهم من النار لقوله فى الحديث ولكنك فعلت ليقال فلان كذا وكذا فقد قيل ذلك . وهذا الذى راءى بالتكاثر والتفاخر وطلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا مرائيا لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان وهذا مع ما فيه من الفساد أهون من الباب الآخر وكلاهما شديد والله المستعان وذلك أن المفاخر انما يريد اقامة مرتبته عند الناس فلو كانت له الدنيا كلها لاحتاج اليها لما معه من حب الدنيا وذلك أن قلبه مشغول عن الله تعالى وعن طلب الآخرة وهو مع هذا خائف وجل من أن تنزل به نازلة تغير حاله فيتغير من كان له مطيعا فما أشد مضرة هذا الباب . وعلامة المريد النظر الى من هو دونه فى الرزق والى من هو فوقه فى العمل للآخرة ويتواضع ولا ينافس أهل الكبر والفخر والرياء والتكاثر ولا يأخذ ما أخذ لنفسه ولا يترك ما ترك لنفسه وما أخذه فانما نيته فيه القوة على دينه واقامة فرائضه والاستغناء عن غيره ويدع جميع ما كان للناس من ذلك . وأما العجب فأصله حمد النفس ونسيان النعمة وهو نظر العبد الى نفسه وأفعاله وينسى أن ذلك انما هو منة من الله

تعالى عليه فيحسن حال نفسه عنده و يقل شكره و ينسب الى نفسه شيئا هو من غيرها وهى مطبوعة على خلافه فان غفل هلك واستدرج وكان معجبا بعبادته مزريا على من لم يعمل عمله قد عمى عن عيوب نفسه فيكون مستكثرا لعمله مسرورا به راضيا عن نفسه فرحا بما يسعى فى هواها غضبه لها و رضاه لها و لايخلو المعجب بعمله من أن يكون مرائيا لأنهما قرينان لايفترقان ولا يكون المعجب محزونا و لا خائفا أبدا لأن العجب ينفى الخوف. واعلم ياأخى أن الناظر الى الله فيما يعمل قد نفى العجب عنه لعلمه أن العمل انما هو من الله تعالى وهو قائم بالشكر له مستعين بالله عز وجل على كل حال متهم لنفسه قد نفى الأعمال كلها عنها فليس لها عنده فيها حظ و لا نصيب. واعلم أنهم صنفان. صنف علماء أقوياء فهم الذين نظروا الى الله تعالى فيما يعملون فحمدوا الله على ما وهب لهم من قليله وكثيره. وصنف نظروا الى السبب الذى أعطاهم الله فاشتغلوا بشكر السبب والصنف الأول أقوى من هؤلاء أولئك لايعرض لهم العجب لعلمهم به وهؤلاء ربما أعجبوا بالسبب و ربما انتفى عنهم فهم مكابدون له فان قاموا بشكر ذلك فخاتمتهم حسنة وهم دون أولئك وان ركنوا الى مايدخل عليهم من العجب فقد هلكوا الا أن ينبه الله من شاء منهم فيتوب عليه. والعجب كثير وهو آفة المتعبدين من الأولين والآخرين وهو من الكبر والكبر آفة ابليس التى أهلكه الله بها. وأما الشهرة واشارة الناس الى العبد فانها لن تضر الا من أرادها والمرء ملبس زين عمله ان خيرا فخير وان شرا فشر. فكم من مستتر بعمله قد شهره الله به وكم من متزين بعمله يريد به الاسم واتخاذ المنزلة عند الناس قد شانه الله به وانما يصلح ذلك و يفسده الضمير فان أحب الشهرة جمع الشهرة والرياء والعجب جميعا وان أراد الله وحده و كان مخلصا لم يضره ذلك عرف أولم يعرف و ربما الحقه حب معرفتهم اياه بالعمل فيخرج به الى الباب الذى يحبط الأعمال ومن ذلك حب

معرفتهم اياه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والغضب لله وفى الله فان قام بذلك ونفى مايحبه وكانت نصيحته لله وللمؤمنين ونجاة نفسه نجا وان اعتقد شيئا من اتخاذ المنزلة أوحب الثناء أوطلب رياسة أو ليقبل قوله فقدشرب السم الذى لا يبقى ولا يذر ولا عاصم من ذلك الا الله - والرياء والعجب والكبر والشهرة انما هى من أعمال القلب فتوسل ياأخى الى الله فى اصلاح قلبك فان سلم قلبك وعلم الله من ارادتك أنها له خالصة خلصك الله من كل آفة دخلت عليك والله يقسم الثناء كما يقسم الرزق ومن خاف الله خوف الله منه كل شئ ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شئ ومن أحب الله أحبه كل شئ والله مسبب العبادة وانما تصحيح العمل بالحوادث على قدر صحة القلب ومع صحة القلب دلالة العقل وسياسة العلم وسابقة الخوف فاذا أردت عملا فابتغ بذلك ثواب الله وأكثر ماتؤمل من الله النجاة من النار والوصول الى نعيم الجنة يهون عليك العمل ويخلصه الله من الآفات ويقويك عليه فاذا عملت فاشكر وانظر هل ينقص من بدنك شئ فى ليلك ونهارك لتعقد النية فيما يستقبل وانظر اذا أصبحت كيف مضت عليك ليلتك بتعبها ونصبها وبقى لك ثوابها وسرورها يكن ذلك قوة لك على ماتستقبل فالحسنة لها نور فى القلب وسرور يجد العبد حلاوة ذلك السرور وضياء ذلك النور ولم يدع الله جل ذكره المطيعين حتى جعل لهم بالطاعة اللذة والنشاط وقرة العين وحلاوة القرب اليه ولم يدعهم حتى حببهم الى الناس وحتى نظروا اليهم بالهيبة لهم والاجلال مع مافى قلوبهم من التواضع والخوف لله فان لم يعرفهم الناس وكانوا من أهل الجهالة بهم كانوا أرفع خلق الله فى الدنيا ومن كان بالطاعة عاملا كان من أعز الناس عند الناس وأغناهم بالله ومن هاب الله فى السريرة هابه الناس فى العلانية وبقدر مايستحى العبد من الله فى الخلوة يستحى الناس منه فى العلانية وينبغى للعالم

أن تكون محبته فى العمل بالحسنات سترها ونسيانها فانه سيحفظها له من لا ينساها ويحصى له مثاقيل الذر من عمله وان ظهرت الحسنات فليعرف نفسه ولا يغرنه ثناء من جهله ففكر أيها العامل فى العواقب فان أحببت أن يحبك الناس أو يفطنوا بحسناتك اذا عملتها ليكرموك ويجلوك فقد تعرضت لمقت الله عز وجل لك . ويحك انك ان أسقطك الله سقطت فلا تغتر من الوجهين جميعا وان سلمت لك آخرتك سلمت لك دنياك وان خسران الآخرة خسران الدنيا والآخرة جميعا ومن ربح الآخرة ربحهما جميعا . واعلم أنك ان غضبت على الناس فى شىء هو لنفسك فأبديته لهم أو لم تبده لهم علم الله ذلك من قلبك فقد تعرضت لغضبه اذا أظهرت أنك انما غضبت لنفسك . واعلم أن الله جل ذكره لا يخفى عليه من أمرك خافية وليس الفرق بين غضبك عليهم وبين سرورك بهم وفرحك بثنائهم عليك بحسناتك وأنت تريد ثوابها من ربك لقد ابتليت أيها العبد بحسناتك وعظم فيها بلاؤك ولعلها أضر عليك من بعض سيئاتك فان بلغ بك البلاء أن تفرح اذا مدحوك بغير عملك أو بأكثر من عملك فقبله قلبك أحبط الله عملك ثم تصير الى حال حب مجىء الاخوان اليك فى أوقات الأعمال فتفرح وان أتوك فى وقت فراغك غمك ذلك والله سائلك عن ذلك كله وتظهر منك الحزن وتوهم الناس أن ذلك من شدة الاهتمام بالآخرة وانما ذلك منك تصنع تحب أن يحمدوك على ذلك فأنت اذن قد هلكت من الوجهين جميعا فخف الله فى سراء نفسك وعلانيتها واحتقر حسناتك جهدك واستكثر منها ما استطعت حتى يعظم قدرك عند الله وتعظم حسناتك واستكبر صغير ذنبك حتى يصغر عند الله وخف من صغير ذنوبك أن يحبط الله به عملك كله وارج بحسناتك أن يمحو الله بها عنك كل سيئة عملتها فارج حسناتك وخف سيئاتك ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ وينبغى للعبد

أن يعرف عجزه وضعفه فيقطع سببه من نفسه ويرجع الى العز والمنعة ويتوجه الى الملك القادر على مايريد بالاعتصام والتوكل والاستصغار والانتصار به على الأعداء فيجد عند ذلك العز والروح والفرج والمنعة ويفوض أمره الى الملك الجبار فما اختارله من شئ رضى به وسلم فان عرض له بعد ذلك غم أو روع علم أن ذلك بلوى من الله فيرجع اليه حينئذ بالانكسار والافتقار اليه لما فرط منه ويطلب الروح والفرج بالتقوى وهو استماع العبد الى قول ربه ماأمره به فعله وما نهاه عنه تركه حتى تكون كلها مجموعة له فى روضة واحدة. فانظر ياأخى ولا تدع مافيه المخرج الاخرجت منه وماكان مما فرط منك مما لاحيلة فيه الا الندم والاستغفار فاندم عليه ندماصحيحا بالقلق منك والاضطراب فى حضرة الله والاجتهاد قبل فوات الايام وهجوم الموت عليك وأكثر مع الندم الصحيح ذكر ماندمت عليه ولا تفتر عما أمكنك من الاستغفار ثم عليك بعد بالتخلص من العائق الذى يشغل عن الله جل ذكره حتى تكون مؤثراً لله على ماسواه وهذا هو الطريق الى سبيل النجاة والله المستعان. واعلم أن من دلالات العقول والعلوم تأسيس التقوى فاذا كان ذلك كذلك صار العبد حى القلب قابلا للموعظة معظما لما عظم الله مصغرا لما صغر الله فاذا كان ذلك كذلك فقد أحيا قلبه بالعلم والعمل ولو أن رجلا أحيا قلبه فى كل يوم ألف مرة ويكون بين الحياة والحياة موتة لخفت عليه حتى تكون حياته دائمة تموت به خواطر نفس ليس لها قرار والخاطر اذا صرم أصله وقطع دخل عليه الحزن والبكاء فلا يكون مسرورا بالعارض ولا مشغولا بالنعمة عن المنعم فهذا سبيل النجاة ان شاء الله والله المستعان. واذا لم يكن مع العبد روع وغم عند الخاطر فهو ميت. فاذا كان كذلك فليرجع الى التقوى والاخلاص والصدق والتخلص مما يكره الرب والحياة يتولد من العلم المفهوم فاذا علم وفهم

العلم بما أمره الله به قبل الموعظة لنصحه بتعظيمه ماعظم الله والقلب الحي تكفيه غمزة فينتبه والقلب الميت لو قرض بالمقاريض لم ينتبه ولم يحي وذلك أن الله عز وجل يقول ﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾ وذلك لمن قبل وأجاب الداعي ومن لم يقبل الموعظة ولم يجب الداعي فانه كما قال عز وجل ﴿أموات غير أحياء وما يشعرون﴾ ومن علم أنه ميت فقد حيي بعلمه أنه ميت ولا ينفعه العلم الا بالقبول وايثار الرب على هواه فمن كان مقرا بأنه عاص وليس يتحول وليس معه الروع والغم الشديد وهو على حالته التي ليس يرضاها ولا يبادر بالتوبة والتطهير فهو ميت ولا ينفعه علمه الا أن يتوب الله عليه قبل موته فيحيا بالتوبة ويرجع الى الرغبة والرهبة والطاعة . ومن أراده الله وفقه ونبهه من الزلة وأيقظه من الغفلة وانما هذه كلها مواريث حب الدنيا واتباع الهوى وطول الامل . وينبغي لمن كان يبتغي لنفسه طاعة ربه أن يرجو ماثقل عليه من البر ويتهم ماخف عليه من ذلك لأن قليل الصدق يثقل خفيف العمل والكذب من النية في العمل يخفف ثقيل العمل وقليل الصدق أوزن وأرجح من كثير الكذب . واعلم أن ارادتك العمل عمل فانظر في ارادتك حتى يصح لك عملك ويراك الله لنيتك طالبا ولها مصححا كما يراك في عملك مخلصا فان الأعمال بالنيات . واعلم أنك ان ظفرت بتصحيح النية مع قليل العمل ربحت عملك وظفرت بأكثر من عملك واعلم أن عدوك ينظر الى ابتداء نيتك وابتداء عملك وقد يخفى عليك سقم نيتك كما يخفى عليك سقم غيرك فاحذر أن تكون نيتك سقيمة فقم على تصحيحها فان العمل تابع للنية ان صحت صح وان فسدت فسد . واعلم أن العدو اذا رأى في نيتك سقما رغبك في ذلك العمل ولم يثقله عليك بل يخففه عليك مخافة أن يقنطك بالسقم وود حينئذ أن الناس كلهم أحبوك في ذلك العمل ومدحوك اذا ظفر منك بسقم النية ويزيدك قوة ونشاطا في عملك ويحسنه عندك وفي

أعين الناس ويحببهم اليك فكلما أثنوا عليك استحليت عملك وخف عليك وقد ستر عنك داء الحسنات وداء السيئات ومن داء الحسنات أنه لا يمنعك من تركها الا مخافة أن تسقط من أعين الناس. واعلم أن ربحه منك اذا سقمت نيتك أكثر من ربحه منك اذا أحببت الدنيا واتسعت منها ومن داء السيئات سقم نيتك . واعلم أن العدو ربما أفسد الحسنات أولا بسقم النية وربما أفسدها آخرا بتعظيم الناس لك فاذا علم أنك لاتحب ذلك ولم تجبه الى معصية خلاك وذاك فاحذر على عملك كله من حيلة الخبيث واذا رأيت العمل قد خف فكن أشد ماتكون له حذرا اذا خف على نفسك العمل فهو أفسد مايكون اذا صح عندك. واعلم أن الشيطان أعرف بك وبما تهواه نفسك منك ولا تدع العمل من أجل آفته ولكن اعمل بنية وصحة واستعن بالله وكن حذرا طالبا للخلاص كارهاً معانداً لفساد العمل لاتريد الثواب الا من الله وحده وطلب الدار الآخرة ولاتعمل ليعطيك فى الدنيا ثوابا فان الذى قدر الله عز وجل أن يصل اليك من رزق أو أجر أوثناء فانه صائر اليك فعليك بالصدق واتخذه ذخراً ليوم ينفع الصادقين صدقهم. وانظر اذا صح عملك عندك فكن أخوف مايكون من فساده ولاتأمن عليه من الفساد فتفسده فان آفة العمل الأمن عليه واعلم أن الأمن على الحسنات أضر عليها من السيئات والأمن على السيئات أضر عليك من السيئات . واعلم أن أمنك على الحسنة أحب الى ابليس من السيئة وقنوطك بعد السيئة أحب الى ابليس من السيئة واستصغارك لسيئة كبيرة أحب اليه من سيئة بعد سيئة واستصغارك لسيئة أردتها ثم تركتها أحب اليه من كبيرة عملتها ثم استغفرت منها لعظمها عندك فافهم ما ألقى اليك من هذا الباب واحذره. واعلم أن ابليس الخبيث يجرى على ألسنة الناس مدح الصادق ليفسد عليه صدقه ويزيد الكاذب فى عمله قوة حتى يسوى بين

الصادق والكاذب فاحذر تجديد القوة فى العمل عند تجديد المدح فان له سطوة وسلطانا يزيد الكاذب كذبا ويفسد على الصادق صدقه فلا تظهر الخوف من قلبك ولا تظهر قلة الخوف فان اظهار قلة الخوف هو من قلة الخوف وهذا باب فيه فساد للعمل كبير وهو رياء فيه لطف وله حلاوة واياك أن تقول واحزناه على الحزن وأخاف أن لا أكون أخاف واحزناه على الأحزان فان هذه أشياء من دقائق مداخل ابليس والله سائلك عن بكائك واظهارك الخوف والحزن واظهارك أنك لست بحزين واظهارك أنك لاتخاف وما تظهر من الانكسار والتواضع واظهارك الهم بأمر الآخرة وذمك نفسك وماذا أردت بذلك كله ولابليس فى هذه الخصال مذاهب تلتبس على كثير من الناس وهى تنسب الى خشوع النفاق فان كنت صادقا فيها فاحذر ابليس عندها وفى وقتها حذرا شديدا والله المستعان . وانظر كيف يكون احتمالك اذا قال لك غيرك ما تقوله أنت لنفسك من الذم والوقيعة فيها حتى يتبين لك عند ذلك أصادق أنت فى فعلك أم كاذب فاذا كان باطنك كظاهرك لم تبال كيف كان أمرك وقم على باطنك أشد من قيامك على ظاهرك فانه الموضع الذى فيه الله مطالع فنظفه وزينه لينظر الله اليه أشد ما تزين ظاهرك لنظر غيره فافهم ما أقول لك بعناية منك وقبول . واعلم أن فرائض جوارحك انما تقوم بفرائض قلبك . واعلم أن النية والصدق والاخلاص فريضة تقام بها الفرائض وتنبنى عليها الأعمال وترك الذنوب فريضة فكل أمر فيه معصية فهو مردود ومحال أن يتقرب الى الله بمعاصيه ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ واعلم أن الله فرض الارادة له بالايمان والأعمال يراد بهما وجهه فأصاب المؤمن الصادق بنيته الفريضتين جميعا الظاهرة والباطنة واعلم أنك ان عملت بما وصفت لك ثم عرضت عليك الدنيا بما فيها على أن

تظهر حسناتك أو ترائى بها ما فعلت . واعلم أن المريد فى ترك الميتة يخاف من الله أن يشبع منها و يخاف منه أن ينال منها وهو مستغن عنها و يخاف منه أن يدخر منها وهو محتاج اليها فهو يخاف من الله أن يعصيه فيما أحله له و يخاف أن يشبع مما أباحه له . فمن قام فى هذا المقام من أهل الدنيا فقد بلغ الغاية من الزهد فيها وأقام الأشياء كلها التى فى الدنيا مقام الميتة فانما ينال منها البلغة عند ما اضطر اليها و يخاف من الله ان ترك أخذ تلك البلغة فى وقت الضرورة أن يعذب على تركها كما يخاف أن يعذب على أخذ الحرام البين . واعلم أن تمام الأشياء كلها انما هو بالقيام بما أمرك الله به والانتهاء عما نهاك الله عنه . واعلم أنه ليس من عقلك أن تأخذ ميتة فتخزنها ولا ان فاتت حزنت عليها ولا ان وجدتها فرحت بها لأنك منها على مقت لها بما وتقذر منك لها فاذا خفت منها أن تنالها نفيت المخافة التى حلت بقلبك حلاوتها وهى الدنيا فتجتزىء منها بما أقام صلبك وأديت به فرضك ودع ماسوى ذلك يكابده غيرك والذى تحتاج اليه من الدنيا يسيرها وهو ماتستر به عورتك وتقيم به صلبك لأداء فرائضك وما كان وراء ذلك فهو من الدنيا ومنتهى طلب الآخرة ترك الدنيا ومنتهى طلب الدنيا جمع ماأحببت من الدنيا فاذا رأيت نفسك تأنس بقرب الدينار والدرهم وتستوحش لفقدهما فاعلم أنك محب للدنيا ومن كان محبا للدنيا فهو قال للآخرة . انتهى

فصل فى الصدق والعقل

واعلم أن الأصل الذى يحترز به مما تقدم ذكره انما هو الصدق والعقل والصدق محله القلب واذا كان كذلك فينبغى الاعتناء بشأنهما . وما قاله الشيخ الامام يمن بن رزق رحمه الله فى ذلك فيه غنية عن غيره و بيان تام . قال رحمه الله

اعلم يا أخى علما يقينا لاشك فيه أن الصادق لايكذب أهله ولا يألوهم نصحا فى ارتياده لهم فان أخاك من صدقك ونصحك وان خالف صدقه ونصحه هواك وان عدوك من كذبك وغشك وان وافق ذلك هواك. واعلم يا أخى أنى لما أطلت الفكرة وصححت فى ذلك النظر علمت أن الله جل ثناؤه بارىء النسم وولى النعم ومالك الأمم لم يخلقنى واياك عبثا ولاهو تاركى واياك سدى وأن لى ولك معادا نقف فيه بين يدى الملك الجبار للحكم بيننا وللفصل فينا وأنه لم يخلقنى واياك حين خلقنا لهزل ولا للعب ولا لفناء دائم وانما خلقنا لبقاء الأبد ودوام النعم فى جواره وجوار ملائكته وأنبيائه أو فى الشقاء الدائم للأبد. فالعاقل متيقظ لما خلق له مستعد لما هو صائر اليه فانتبه من رقدته وأفاق من سكرته فعمل وجد وأبصر فزجر النفس عن دار الغرور الخاتلة الخادعة الزائلة التى قدولت بخدعتها وفتنت بغرورها وشوقت بحطامها فلما عرفها العاقل الكيس حق معرفتها زهد فيها ورغب فى دار البقاء والسرور وتقرب الى مالك الدار بجميع مايحب مما يطيق التقرب به اليه ورتب ببابه وأما المغتر بالدنيا المؤثر لهواه فيها فهو معتنقها. أيها الميت عن قريب والمبعوث بعد موته الى دار المقامة المسؤل عن اقباله وادباره فى دار الدنيا الموقوف عن قليل بين يدى الملك الجبار الذى لايجور. هل أعددت لذلك الموقف حجة تدافع عنك أو أعددت للسؤال جوابا فان الله يقول ﴿ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر﴾ فاياك يا أخى والنزول بمحلة المخدوعين. واعلم أن السيد الكريم نعمه كثيرة لاتحصى وأن عطاياه كثيرة لاتجازى وأن مواهبه كثيرة لاتكافأ. واعلم يا أخى أنى لم أر نعمة متقدمة من الله عز وجل لخلقه أفضل من نعمة العقل التى جعلها الله دلالة لخلقه على معرفته والوصول بها الى محض الايمان به والذى أطلعهم الله به على مكنون علمه حتى

ورثوا البصائر ونفوا به خاطر الشك وكابدوا وساوس الشيطان ومعاريض فتنته واستضاؤا بنور العقول فى طريق حيرتهم فتجنبوها وخرجوا من ظلم الشك واعتقدوا بها معرفة الله والايمان به والاخلاص والتوحيد وأفردوا الله جل جلاله وتقدست أسماؤه بالربوبية والعظمة والكبرياء. واعلم أن أهل اللب استدلوا به على خلق أنفسهم وعلى خلق الخلق كلهم وأنهم موسومون بسمة الفطرة وآثار الصنعة والنقص والزيادة مع تغيير الأحوال فأول ابتداء الله لهم أن وهب لهم العقول التى بها وصلوا الى الايمان وبالايمان وصلوا الى نور اليقين وبنور اليقين وصلوا الى خالص التفكر وبخالص التفكر وصلوا الى استقامة القلوب وباستقامة القلوب وصلوا الى الصدق فى الأعمال واخلاصها لله تعالى فورثهم ذلك البصائر فى قلوبهم فوضحت الحكمة فى صدورهم وجرت ينابيعها على ألسنتهم فهجموا بفطن قلوبهم على غوامض الغيوب والارادة والاخلاص الذى ركب فيهم وأدركوا بصفاء يقينهم غائص الفهم وأدركوا بغائص فهمهم العلم المحجوب فعرفوا الله حق معرفته وتوكلوا عليه حق توكله وسلموا اليه الخلق والأمر فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة وينابيع للحكمة فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتتلذذ فى حجب الغيوب وتخطر فى طرقات الجنات. فالحمد لله الذى لا اله الا هو العظيم الذى من والاه نعمه وأغناه. واعلم ياأخى أن من صدق الله أوصله الى الجولان فى ملكوت السموات بقلبه ثم يرجع اليه بطرف ماقد أفاده السيد الكريم فصار قلبه وعاء لخير لاينفد وعجائب فكر لاتنقضى ومعادن جواهر لاتفنى وبحور حكمة لاتنزح أبدا ومع ذلك ملكوا الجوارح والأبدان. واعلم ياأخى أن فى ابن آدم مضغة ان صلحت صلح سائر جسده وان فسدت فسد سائر

جسده وهى القلب . واعلم أنه لا ينتقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولسانه ومن أجل ذلك صار القلب واللسان ملكى البدن والجوارح والقلب هو المسلط على استخدامهم وذلك أنه معدن العقل والعلم والعناية بجميع الخير والشر مستودع القلب. واعلم ياأخى أنى وجدت اللسان مترجما عن القلب ارادته وذخائر بصائره و وجدت الذكر جلاء لصدأ القلوب وتيقظا من وسن الافئدة. واعلم أنى وجدت الشكر على من اختصه الله بنور العقل أكثر والحجة عليه آكد فمن هنا ألزم الحجة وانقطعت المعاذير مع الاعذار والانذار فلله الحجة البالغة علينا وعلى أهل العقول من خلقه وما أعرف أن أحداً أتى الا من قبل تضييع الشكر لأنه ليس من ولد آدم أحد الا وهو مختص بنعمة العقل الا قليل فمنهم من حثى له من الشكر وحثى عليه ومنهم من أعطى من العقل دون ذلك فشكر الله على قليل ماأعطى فزاده الله حتى علا فى درجة العقل ومنهم من كفر النعمة فلم يأخذها بشكر فنقص عن درجة العقل لأن العبد قد أعظم الله عليه النعمة فى العقل فينبغى أن يكون شكره على قدر عظيم النعمة عليه . واعلم أن العقل والهوى ضدان مركبان فى العبد كتركيب الجوارح وهما يعتركان فى قلب ابن آدم فأيهما غلب استعلى على صاحبه واستولى على العبد فكانت أعماله كلها بالمستولى عليه فكان له تبعا فشكر العبد اذا كان لله على نعمة عقله أن يتبع دلالة عله وعقله فيؤثر دلالتهما وما يدعوان اليه على هو ى نفسه. واعلم أن الأمر عظيم على قدر مانرى من غلبة الهوى علينا واستمكان الدنيا من قلوب علمائنا وجهالنا فلما كان ذلك منا كذلك عز وجود الصدق على كثرة وجود معرفته ووصفه وقل العمل به والقيام بحقه وقد فشا الكذب وكثر الرياء والتزين للدنيا وسلوك أودية الهوى ونزول أودية الغفلة ولا يؤمن السبيل أن يركب على تلك الغفلة فتتلف النفس وأن الهوى قد قام مقام الحق يعمل به ويقضى بقضائه ويحكم بحكمه

وقام سوء الأدب والمكر والخديعة مقام العقول وقامت المداهنة مقام المداراة وقام الغش مقام النصح وقام الكذب مقام الصدق وقام الرياء مقام الاخلاص وقام الشك مقام اليقين وقامت التهمة مقام الثقة وقام الأمن مقام الخوف وقام الجزع مقام الصبر وقام السخط مقام الرضا وقام الجهل مقام العلم وقامت الخيانة مقام الأمانة فصار من قلة الأكياس لاتعرف الحمق ومن قلة أهل الصدق لايعرف أهل الكذب الا عند أهل الفهم والعقل والبصيرة فاعتدل الناس فى قبح السريرة وقلة الاستقامة فى أمور الآخرة الا من عصم الله فأصبحنا وقد حيل بيننا و بين النقص الذى نكرهه من أنفسنا وحيل بيننا و بين أن ندخل فى الزيادة التى نحبها لأنفسنا عقوبة لقبح أسرارنا فجرينا فى ميدان الجهل وغلب علينا سكر حب الدنيا فنحن نستبق فى هذين السبيلين ونتنافس فى الاستكثار منهما فصح عندى أن من الجهل بأمر الله والاغترار به القيام على هذه الحالة والسلامة منها أيسر وأقرب رشدا وهو أن يكون المرء فى البلد الذى لايعرف فيه مع التخلص الى خمول الذكر أينما كان وطول الصمت وقلة المخالطة للناس والاعتصام بالله والعض على الكسر اليابسة وما دنؤ من اللباس مالم يكن مشهورا والتمسك بالقرآن والصبر على الشدائد وانتظار الفرج. واعلم أنى قد نظرت ببحث النفس والعناية بها فوجدت غفلتنا عظيمة وخطرنا عظيما والغفلة عن الخطر أعظم من الخطر لأنه انما يعظم الخطر عند أولى العقول فكلما عظم الخطر وعلمت أنه عظيم وكنت من أهل البصيرة حركك عظيم الخطر فانتقلت من عظيم الغفلة الى حال التيقظ ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

فصل فى ذكر الطمع وقبحه

وقال رحمه الله ينبغى لك ياأخى أن لاتأذن لقلبك فى استصحاب مايعسر عليك

طلبه وتخاف اطفاء نور القلب من أجله وكن فى تأليف ماينك وبين الله محمود العاقبة واقطع أسباب الطمع فيستريح قلبك و يصير الى عز الاياس واماتة الطمع فيسد عليك سبيل الفقر و يسكن قلبك عن العناء و يسقط عنك بذلك الشغل بالمخلوقين واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل وقطعه واطلب راحة البدن باجماع القلب على عدم الشغل برؤية المخلوقين وتعرض لرقة القلب بدوام مجالسة أهل الذكر من أهل العقول والمعرفة وحسن الأدب التاركين لفضول الكلام فان بمجالسة هؤلاء يصفو القلب و يرق و يقدح فيه النور وتجرى فيه ينابيع الحكمة وافتح باب دواعى الحزن الى قلبك واستفتح بابه بطول الفكر واستجلب الفكر بالتوحش من الناس فان أبوابها فى مواطن الخلوات وتحرز من ابليس بالخوف الصادق واستعن على ذلك بمخالفة هواك واياك والرجاء الكاذب فان التوسع فيه ينزلك بمحلة المصرين من أهل المكر والاستدراج وذلك لأن للرجاء طرقا تؤدى الى الأمن والغفلة فاياك أن تتخذه مطية لسفرك وتخلص ياأخى الى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق مع كثير الرضا بذلك واستقلل كثير الطاعة واستجلب النعم بعظيم الشكر واستدم عظيم الشكر بخوف زوال النعم واطلب لنفسك العز باماتة الطمع وادفع ذل الطمع بعز الاياس واستجلب عز الاياس ببعد الهمة واستعن على بعد الهمة بقصر الأمل و بادره بانتهاز النعمة عند امكان الفرصة خوف فوات الامكان ولا امكان كالأيام الخالية مع صحة الابدان واحذر التسويف فان دونه ما يقطع بك عن بغيتك واياك ياأخى والتفريط عند امكان الفرصة فانه ميدان يجرى بأهله بالخسران واياك والثقة بغير المأمون فان للشر ضراوة كضراوة الذئاب ولاسلامة كسلامة القلب ولا عمل كمخالفة الهوى ولا مصيبة كمصيبة العقل ولا عدم كقلة اليقين ولا جهاد كجهاد النفس ولا غلبة كغلبة الهوى ولا قوة كرد الغضب ولا معصية كحب النفاق وان حب الدنيا من حب

النفاق ولاطاعة كقصر الأمل ولاذل كالطمع وفقنا الله واياك لما اليه دعانا وأعاننا واياك على اجتناب ماعنه نهانا ولا حول ولاقوة الا بالله العلى العظيم

فصل فى التزين

وقال رحمه الله وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال العقول معادن الدين والعلم دلالة على أعمال الطاعات والمعرفة دلالة على آفات الأعمال والبصائر دلالة على اختبار عواقب الأمور واختيار مواردها وتصريف مصادرها والتزين اسم لثلاث معان فتزين بعلم ومتزين بجهل ومتزين بترك التزين وهو أعظمها فتنة وأحبها الى ابليس. واعلم أن الأساس الذى ينبغى للمريد أن يبنى عليه دينه معرفته نفسه وزمانه وأهل زمانه فاذا عرف عيوب نفسه وأراد ماخذا ليسلم به من شر نفسه ان شاء الله تعالى فليبدأ بالخلوة وخمول نفسه فلعله حينئذ أن يدرك بذلك الحزن فى القلب والخوف الذى يحتجز به عما نهى الله عنه والشوق الذى يدرك به أمله من محبة الله والا لم يزل متحيرا متلذذاً متزيناً بالكلام يأنس بمجالس الوحشة ويثق بغير المأمون ويطمئن لأهل الريب ويحتمل أهل الميل الى الدنيا ويغتر بأهل الحرص والرغبة ويتأسى بأهل الضعف ويستريح الى أهل الجهل ميلا منه الى هواه الى أن يفجأه الموت وحلول الندم. واذا وجدت المريد المدعى للعمل والمعرفة يأنس بمن يعرف ولايهرب ممن لايعرف وينبسط ويمكن نفسه من الكلام بين ظهرانى من يعرف فاتهم حاله اما أن لايكون صادقا فى ارادته أو يكون جاهلا بطريق سلامته أو مغلوبا على عقله وعلمه مستحوذاً عليه هواه وما التوفيق الا بالله العلى العظيم. واعلم ياأخى علما يقينا لاشك فيه أنا لم نبن أساس الدين على طلب السلامة فيه من الخطأ ولا على حسن السيرة منافى الأخلاق والآداب ولكنا ابتنيناه على أساس الهوى وعلى

ماخف محمله على قلوبنا واستخفته أنفسنا واستحلته ألسنتنا فأمضينا فيه أعمالنا طمعا فى الزيادة من التقوى بزعمنا ودركنا حسن السيرة منا فى الاخلاق والآداب فنظرنا بعدذلك فاذا قد رجعت علينا أعمال ايثار الهوى بالنقص من الزيادة فى الدين وبقبح السيرة منا فى الأخلاق والآداب بنظرنا لأمور الدنيا والآخرة فورثنا ذلك الخب والغش والمداهنة فصيرنا الغش والمداهنة مداراة وصيرنا الخب عقولا وآدابا ومروآت يحتمل بعضنا بعضا على ذلك فأعقبنا ذلك تباغضا فى القلوب وتحاسدا وتقاطعا وتدابرا فتحابينا بالألسن مع الرؤية وتباغضنا بالقلوب مع فقد الرؤية نذم الدنيا بالألسن ونميل اليها بالقلوب وندافعها عنا فى الظاهر بالقول ونجرها بالأيدى والارجل فى الباطن فأصبحنا مع قبح هذا الوصف وسماجته لا نستأهل به خروجا عن النقص ولا دخولا فى الزيادة فانا لله وانا اليه راجعون والله المستعان وأصحابنا لا نجد رجلا صادقا فنتأسى به ولا خائفا فنلزمه للزومه له ولا محزونا يعقل الحزن فنباكيه فقد صرنا نتلاهى بفضول الكلام ونأنس بمجالس الوحشة ونقتدى بغير القدوة مصرين على ذلك غير مقلعين ولا تائبين منه ولاهاربين من مكر الاستدراج فنعوذ بالله من التولى عن الله والسقوط من عين الله والشغل بغير الله ان الله جل ذكره أوجب على نفسه للطاعة ثوابا أى ماوعد به سبحانه من التفضل والاحسان وعلى المعصية عقابا فالثواب لا يجب للعبد على الله الا من بعد تصحيح العمل وتخليصه من الآفات وتصحيح ذلك وتخليصه لا يتم الا بالمعرفة والاعتزام واحتمال مؤنته وتصحيح العمل والاعتزام والاحتمال والصبر على العمل لا يكون الا من بعد ثبات الخوف فى القلب والخوف لا يوجد الا من بعد ثبات اليقين فى القلب وثبات اليقين لا يكون الا من بعد صحة تركيب العقل فى العبد فاذا صح تركيب العقل فى العبد وثبت وقع الخوف بما قد أيقن به فجاءت عزيمة الصبر من غير تكلف فاحتملت النفس حينئذ مؤنة العمل طمعا فى ثواب ماقد

أيقنت به على فعل الطاعة ورهبة عقاب ماقد أيقنت به على فعل المعصية فترت المعصية والشهوة هربا من عقوبتهما واحتملت الطاعة بالاخلاص رجاء ثوابها فكلف الأحمق الكيس ولم يعذر على لزوم الحمق وكلف الجاهل التعليم ولم يعذر على غلبة الهوى وكلف العامل الصدق والاخلاص والتيقظ فى عمله ولم يعذر على الشهوات والغفلة وترك الاخلاص فيه وكلف العاقل الصدق فى قوله ولم يعذر بالميل الى الكذب وكلف الصادق المخلص الصبر عن ابتغاء تعجيل ثواب عمله فى الدنيا من المخلوقين من حب الدنيا والتكرمة والتعظيم وعندها انقطع العمال خاصة وحل بهم الجزع وتركوا عزيمة الصبر فى طلبهم تعجيل ثواب عملهم ولم يؤخروا ثواب الاعمال ليوم يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وخدعتهم الأنفس الأمارة بالسوء عند ستر سرائر اعمالهم حتى أبدوها للمخلوقين بالمعانى والمعاريض وأظهروا الاعمال ليعرفوا بفضيلة العمل ليزدادوا عند الناس فضيلة ورفعه فتعجلت أنفسهم ذخائر أعمالهم وحلاوة سرائرهم بحسن الثناء والتكرمة والتعظيم ووطء الأعقاب والرياسة والتوسعة لهم فى المجالس واغفلوا سؤال الله لهم فى عقدهم لمن عملوا وماذا طلبوا فخسروا أنفسهم وأعمالهم وخسارة ماهنالك باقية وندامة ماهنالك طويلة لما وردوا على الله فوجدوا عظيم ما كانو يؤملون من ثواب سرائر أعمالهم التى عاجلوا فيها أنفسهم فى الدنيا فمنعوها هنالك لانهم قد كانو اتعجلوا ثوابها من المخلوقين وخرجوا من خير أعمالهم صفر اليدين فانا لله وانا اليه راجعون ماأقبح الفضيحة بالعالم العامل البصير الناقد العارف غب قلة الصبر وابتغاء تعجيل الثواب والميل الى الدنيا وايثار شهواتها ولذاتها فينبغى للعاقل الحازم اللبيب العالم العامل العارف البصير الناقد أن يحذر ذلك كله ويتخذ الصبر مطية ولا يبغى تعجيل الثواب هنا وما التوفيق الا بالله العلى العظيم

فصل فى الغيبة والنميمه

وقال رحمه الله اعلم أن مخرج الغيبة انما هو من تزكية النفس والرضى عنها لانك انما تنقصت غيرك بفضيلة وجدتها عندك وانما اغتبته بما ترى أنك منه برىء ولم تغتبه بشيء الا وما احتملت فى نفسك من العيب أكثر وانما يقبله منك مثلك فلو عقلت أن فيك من النقص أكثر لحجزك ذلك عن غيبته ولاستحييت أن تغتابه بما فيك أكثر منه ولو علمت ان جرمك عظيم بغيبتك غيرك وظنك أنك مبرأ من العيوب لحجزك ذلك ولشغلك عن ذلك وكيف وانما يلق الأموات الأموات ولو كانوا أحياء اذاً ما احتملوا ذلك منك ولتناهوا . واعلم أن ميت الأموات أحمد فى العاقبة من ميت الاحياء وتفسير ميت الاحياء أموات القلوب وهم أحياء فى الدنيا فمن كانت هذه صفته كثرت أوزاره وعظمت بليته فاحذر ياأخى الغيبة كحذرك عظيم البلاء أن ينزل بك فان الغيبة اذا نزلت وثبتت فى القلب وأذن صاحبها لنفسه فى احتمالها لم ترض بسكناها حتى توسع لأخواتها وهى النميمة والبغى وسوء الظن والبهتان والكبر وما احتملها لبيب ولا رضى بها حكيم ولا استصحبها ولى لله قط فانا لله وانا اليه راجعون

فصل فى الاستدراج

وقال رحمه الله الاستدراج اسم لمعنيين فأحد المعنيين استدراج عقوبة للسيئة تنبيها على الانابة والمعنى الثانى استدراج لاانابة فيه ولا رجوع فنعوذ بالله من الاستدراج وانما يستدرج العبد على قدر بغيته فمنهم من يستدرج بالملك والسلطان وطاعة الناس له ومنهم من يستدرج بالدنو من الملوك والسلاطين والحظوة عندهم ومنهم من يستدرج بالتوسعة فى تجارته بالتوسعة فى المال ومنهم من يستدرج بالأهل

والولد والغاشية والتبع و وطء الأعقاب ومنهم من يستدرج بعلمه بأن يكرم بسببه و يحمد و يعظم و يسمع قوله فهو مستدرج بنيل حظه من علمه ومنهم العابد يستدرج من طريق العجب فى عمله والقوة على ذلك فى بدنه ومنهم ذو البصيرة يستدرج بالزيادة فى بصيرته لجميع من ذكرنا من المستدرجين كلهم لايخلو من الرياء والعجب وكل مزين له ماهو فيه لايرى الا أنه على الطريق مقبول منه احسانه وقد عمى عن فتنة ماهو فيه من الاستدراج ومنهم من ينبه فينتبه فيرجع الى الانابة و يفزع الى الاستكانة ومنهم من يهمل فيهمل نفسه الى حضور أجله وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ و لا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه و رزق ربك خير وأبقى ﴾ فهذه فتنة الاستدراج فنعوذ بالله من ذلك والمستدرج مفتون فلا يعلم بفتنته مزين له عمله مستحسن ماهو فيه طالب للزيادة على ماهو عليه مقيم فاحذر فتنة الاستدراج واعلم أن الاستدراج عقوبة للمضيعين شكر النعم

فصل فى اليقين

وقال رحمه الله اعلم أن للموقن علامة واضحة تعرفها من نفسك ومن غيرك وهى أن الموقن يعظم عنده الخطأ والزلل وان كان غير مؤاخذ به لغفلته عنها و ركونه اليها بالشهوات وهجوم ابليس على قلبه وطمع نفسه فيما هو أعظم منها اذا عمل منها شيئاً ظن أنه قد استوجب النار وأنه مسلوب بها ماأنعم عليه به فاذا كان العبد كذلك كان موقنا وهو يعلم . ان قلت مابال أقوام عارفين يذنبون . قلت ليعرفهم الله فضله عليهم واحسانه اليهم عند اساءتهم الى أنفسهم فتجدد عندهم النعم و يستقبلون الشكر فيصيرون بذلك الى أعلى درجاتهم انتهى

فصل فى العجب

وهذا راجع الى ماتقدم ذكره من الاستدراج أعنى استدراج الملوك وغيرهم لكن بقى من الكلام على ذلك بقية يحتاج الى ذكرها فى هذا الفصل . قال رحمه الله فالعامة معجبون بما أوتوا من الأهل والولد والأموال والأرباح والمساكن والعلماء معجبون بعلمهم وما بسط لهم فيه من الذكر والقراء معجبون بما نالوا من الثناء والتزمت(١) بقراءتهم والعباد معجبون بما نالوا من القوة على اظهار الزهد والصلاة والصوم فليس من هذه الأصناف صنف الا وهو يحب التعظيم والمحمدة عند من هو دونه وعند من هو فوقه وأصل ذلك كله من التجبر وهذه فنونه فاذا ثبت التجبر فى قلب عبد ثبتت فنونه جميعا . والتجبر أصل منه يتفرع جميع الشر من الغضب والطمع والرياء وحب التعظيم والرياسة والمنزلة والسمعة والتزين والطيش والعجلة وسوء الخلق والحرص والشره والمكر والخديعة والجريرة والغش والخلابة(٢) والكذب والغيبة والنميمة والحسد والقساوة والجفاء والشح وقلة الحياء مع فنون جميع الشر فنعوذ بالله من الشر كله

فصل فى التواضع

وقال رحمه الله اذا ثبت التواضع فى القلب ثبت فيه جميع الخير من الرأفة والرقة والرحمة والاستكانة والقنوع والرضى والتوكل وحسن الظن وشدة الحياء وحسن الخلق ونفى الطمع وجهاد النفس وبذل المعروف وسلامة الصدر والتشاغل عن النفس والمبادرة فى العمل بالخير والبطاء عن الشر كل امرىء على قدر

(١) التزمت كالتلون وزنا ومعنى

(٢) الجريرة الذنب . والخلابة . بكسر الخاء الخديعة

ما فيه من البر يكون فعله على قدر ذلك و يكون حذره على قدر ذلك . فان كنت تسأل عن العجب الذى دخل أصحاب الأعمال من العباد فسأخبرك بفتنتهم وشدة بليتهم فتوقها واحذرها واستعن بالله فانه ليس شىء أعجب الى ابليس الخبيث من فتنة العابد لأن فتنة أهل الدنيا مكشوفة بطلبهم الدنيا والناس قد عرفوهم بطلبها وفتنتها فبهم من يحتملها وهو يعلم أنه مفتون فيها وأما فتنة العابد فهى أعظمها فتنة وأعظمها بلية وأعظمها صرعا لأنهم قد تركوا عبادة الدنيا وجدوا فى طلب الآخرة وكابدوا المفاوز والقفار وجاهدوا صعود العقاب وجاهدوا أنفسهم على ترك الدنيا لمعرفتهم بالنفس وماتدعو اليه ولمعرفتهم بالدنيا وماتدعوهم اليه وأقبلوا على طلب الآخرة وايثارها بالصدق منهم وحسن الارادة غير أن الله جل ذكره امتحن هذا الخلق فى كل أحوالهم فى تمسكهم بالدنيا وفى تركهم لها وفى طلبهم الآخرة وايثارهم لها بالجد والاجتهاد وجعل فى كل نوع من ذلك مؤنة لاتدفع الا بالصبر و وعد ابليس وعدا فهو منجزه له الى يوم القيامة بأن أسكنه هو وذريته صدور بنى آدم يجرى منهم مجرى الدم وذلك لمن أطاع منهم ولمن عصى و لأوليائه وأعدائه فليس للعابد فى عبادته أن ينفى الشيطان عن قراره أو يزعجه عن المسكن الذى أسكنه الله فيه ومكنه منه وهذه من المحن التى امتحن الله بها خلقه لينظر كيف يعملون غير أن العبد اذا تيقظ بقلبه خنس الخبيث عنه فلم يكن له شىء الامع غفلته وطبع الله الخلق كلهم على الغفلة والتيقظ وأيد الله العابد بمكايدته ابليس فليس أحد أحوج الى صحة تركيب العقل فيه من هذا العابد الذى قد قصد خلافه وقوى على احتمال ترك الأسباب التى يصل بها ابليس الى ابن آدم من فنون الشهوات فحذف ذلك أجمع وخلفه خلفه ثم قرب من العقبة التى ان جاوزها كان منحدرا الى الجنة باذن الله فتجرد له ابليس وعلم أنه لم يبق عليه الا هذه الدرجة التى ان سلم منها نجا فلا يسلم فى مثل زمانك

مع كثرة هذه الفتن والمحن الا من كان على مثل ماوصفت لك

فصل فى النية والعبادة

وقال رحمه الله ينبغى للعبد أن يصحح نيته التى هى قوام عمله ويجمع لذلك قلبه وذهنه وعنايته ويقرر عمله فيما يأتى ويتبصر فى عبادة ربه ويقصد معرفة ربه ومكايدة عدوه ومجاهدة نفسه واياسه اياها من عملها لطلب الثواب لأنها ان انقطعت عن عبادتها لم تبلغ درجة العفو لعظيم ماجنت من الاساءة ولو أن تلك العبادة والاحسان بازاء ذنب من ذنوبها لاستأهلت بذلك الذنب العقاب الا أن يغفر فكيف بجميع اساءتها مع قلة مايستقبل من صماد(١) التوبة والمراجعة ثم يحملها على طاعة الله مااستطاعت فان عارضه ابليس بشىء أو رفعت نفسه رأسها لتذكره شيئاً من احسانها منعها بما قد عرفه الله من قديم اساءتها ويذكرها عيوبها فتنقمع عند ذلك ويكون ذلك زاجرا لعدوه ان شاء الله تعالى عندما يريد من خديعته ليوقعه فى العجب بالباطل فلوكان عجبه عجب حقيقة من احتمال نفسه طاعة ربها بهشاشة منها وسرور وزهد فيما يكره الله لكان أولى الأشياء باليقين مع صدقها فى الطاعات الرجوع الى الشكر لأن العمل بطاعة الله نعمة من الله على العامل فيما يسرله من العمل ومن غفل عن الشكر فى العمل كان جاهلا بربه جاهلا بالعمل جاهلا بالنعم ومن عقل الشكر وذكر نفسه احسان الله رجع الشيطان بعون الله صاغرا ناكصا على عقبه فألزم نفسك الندم وارجع الى ماعرفك ربك من معرفة نفسك وعدوك وارغب الى الله فى العصمة من شر نفسك وشر عدوك واسأله الكفاية فانه لم يلجأ اليه أحد فى شىء من ذلك الاوجده قريبا مجيبا فاذا صار العبد الى هذه الدرجة أعطى هذه المعرفة فلايكون له همة ولا بغية ولا مسألة

(١) صماد بكسر الصاد مايسد به القارورة

الا النقلة من ضيق الدنيا وغمها مخافة أن تعارضه فتنة من فتنها تحول بينه و بين معرفته و يرتجى أن يصير الى الآخرة و روحها ليأمن فيها على نفسه من روعات ابليس وجنوده وأنا أوصيك أن تطيل النظر فى مرآة الفكرة مع كثرة الخلوات حتى يريك شين المعصية وقبحها فيدعوك ذلك النظر الى تركها

فصل فى العلم

وقال رحمه الله اعلم أن لدواعى الخير علامات يستجلب بها دواعى الحزن والتفكر فهو بين ذلك مسرور لأنه جعل ذلك فى الدنيا بغيته وأمله واذا أدرك أمله و وجد بغيته طاب عيشه كما أن طالبي الدنيا اذا أدركوا آمالهم من نعيمها و زهرتها أحاط بهم السرور فكذلك طالب الآخرة وهو بعد ذلك من نفسه وعدوه و زوجته و ولده وأهل زمانه خائف وجل لا يأمن من الشيطان الا مع استذكاره قول الله عزوجل ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ فحينئذ يقوى قلبه و يستصغر كيد من كايده وهو مع ذلك معتصم بربه واثق به فمن طلب الآخرة فلا يغفل وليبن أمره على طلب السلامة من الخطأ وعلى أساس الصدق فيما بينه و بين ربه و لا يخاف على قليل عمله اذا خلصه لله من الآفات كلها أن لا ينميه الله له و يكثره و لا سيما اذا كنت فى زمان قد كثرت فيه الشبهة والاختلاف فان تخليصك قليل عملك من بين ظهرانى أهل الشبهة والاختلاف حتى تكون عاملا على حكم الكتاب والسنة عند الله كثير فكن فى زمانك أشد تيقظا للتخلص الى معرفة ما كان عليه السلف الماضون من اتباع حكم الكتاب والسنة . واعلم أن المعرفة اذا استحكمت فيك لم تدعك مع التقصير فى العمل بل تنقلك من درجة الى درجة حتى تبلغك غايات ما عملت من الخير أو يأتيك الموت وأنت طالب لغاياتها وكما أن الارض لا تنبت بغير ماء فكذلك العمل لا يصلح بغير معرفة فكلما

ازداد العبد بالله معرفة ازداد يقيناً وكلما ازداد يقيناً ازداد لله خوفاً وكلما ازداد لله خوفاً ازداد لربه طاعة وكلما ازداد لربه طاعة ازداد له حباً وكلما ازداد له حباً ازداد اليه شوقاً وكلما ازداد اليه شوقاً ازداد للموت حباً . فاذا كان كذلك كان مغموماً فى حالة مسرور وذلك أن المغموم على الحقيقة لا يتأسى بأهل السرور فى الدنيا ولا يجرى معهم فيما هم فيه وذلك أن المغموم جمع همومه كلها فنصبها بين عينيه ثم جعلها هماً واحداً فقصر به أجله وهجم به على معاينة أحوال آخرته وأهوالها والمغموم بالحقيقة نبهه الغم على التسويف فعمل للنقلة من دار الغموم الى دار السرور . وسأصف لك حال المغمومين ان شاء الله تعالى . اعلم أن لله عباداً تدبروا فعرفوا فلما عرفوا أيقنوا فلما أيقنوا خافوا فلما خافوا علموا فلما علموا صمتوا فلما صمتوا عملوا فلما عملوا أشفقوا فلما أشفقوا جاهدوا فلما جاهدوا رغبوا فلما رغبوا صبروا فلما صبروا أبصروا مساوى أنفسهم فلما أبصروا مساوى أنفسهم قصدوا مجاهدتها بالقلوب فارتفعوا عن أعمال الجوارح الى تصحيح القلوب فنقلوا طباعهم عن الريب والدناءة وجانبوا فى أحوالهم كلها ومعاملاتهم أحوال أهل المكر والخديعة والخب وألزموا أنفسهم محجة الطريق فى أفعالهم كلها ومنطقهم كله فاستخلصوا باطن الأعمال التى لا تظهر للمخلوقين وأراحوا أبدانهم من ظاهر الأعمال الا ما لزمهم من أداء الفرائض المحتومة فصارت أعمالهم سراً بين قلوبهم التى هى أرجح وزناً وأحمد ذكراً عند الله وعلقوا قلوبهم بحب لقاء الله فصغرت الدنيا فى أعينهم فاذا أقبلت عليهم خافوا وحزنوا خوفاً من الاستدراج والمكر وان أدبرت عنهم سروا وفرحوا ودافعوا الأيام مدافعة جميلة مستترين عن الأهل والولد والاخوان والجيران فهمتهم فى باطن أمورهم كالديباج حسناً وفى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم مغمومون يكاشرون(١) الناس بوجوههم وقلوبهم باكية وصفاتهم أكثر من أن يحيط الواصف

(١) يكاشرون أى يضاحكون

بها في الكتب . والكلام في ذلك يكثر فهذه صفات المغمومين على الحقيقة المسرورين بالله جل ذكره الفرحين به المنقطعين اليه والحمد لله رب العالمين

فصل فى عيوب النفس

وقال رحمه الله اخوانى انه من لم يعرف نفسه وعيوبها فهو من استقامة دينه على اعوجاج . واعلم أن من حسن سيرة العارف بعيوب نفسه أن لايبنى دينه على قبح ولا فساد وأصل العلم الغريب يدرك بفطن العقول المرضية وبنور الحكمة الثاقبة وبمخالفة الأهواء وبفوائد المعرفة الشافية وباصابة الحق فى القول والعمل بالبصيرة ولا يبلغ هذه المراتب العالية الامن تقلد حب الآخرة موقنابها وراغبا فيها ومؤثرا لها على ماسواها وخلع عن قلبه حب الدنيا وزهد فيها بالحقيقة واستشعر التواضع وهجر الهوى فينبغى للعاقل الحازم اللبيب العالم العامل العارف البصير أن يحذر ذلك كله ويتخذ الصبر مطية ولا يبتغى تعجيل الثواب ويتحرك لعزيمة الصبر وبالله التوفيق

فصل فى الاشياء التى يستعان بها على معرفة عيوب النفس

وقال رحمه الله اعلم أنى وجدت الذى يعين على معرفة عيوب النفس والعمل فى مجاهدتها مخالفة الهوى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . ياأخى انه لن يعدمك من عدوك خاطر الشر فى القلب للمعصية فادفعه عنك بحاكم العلم من القلب للطاعة . وانه لن يعدمك من نفسك سرعة القبول لموافقة الهوى فادرأه عنك بقلة المساعدة لخلاف الهوى وأنه لن يعدمك من عدوك التثبط(١)

(١) التثبط التقاعد

عن العمل فادفعه عنك بتعجيل المبادرة الى العمل . وانه لن يعدمك من نفسك التشبث بالكسل فادفعه عنك باغتنام الصحة. وأعلم ياأخى أن القلب اذاترا كمت عليه أقذار الذنوب وأطفاس الشهوات(١) عمي واسود ونكس وطفيء نوره فلم يبصر عيوب نفسه وأبصر بعينه عيوب غيره فشغل به عن عيوب نفسه فليس شيء أولى بالمدعين للارادة من أن يتوسلوا الى الله عز وجل بطلبهم منه صلاح قلوبهم ليسلموا من شرور أنفسهم وغلبة أهوائهم . واعلم أن القلب اذا لم يثبت فيه الحزن خرب كما أن البيت اذا لم يسكن خرب

فصل فى الحزن والخوف

وقال رحمه الله اعلم أن العلم والعمل بالعلم لا ينفع العبد الا باستقامة قلبه والاعاد العلم عليه فصار جهلا وعاد العمل فصار ضررا مع أن فساد قلوبنا هو الذى فرق بيننا وبين سلوك طريق الاستقامة والاتباع للقوم الذين يصلحون عند فساد الناس وهم الذين لم يتركوا من الفرائض شيئاً الاأدوه لم يتركوا الصلاة والزكاة والحج والجهاد والصيام والغسل من الجنابة والطهور للصلاة كل ذلك واجب عليهم وهو شيء معروف لم يزد فيه ولم ينقص منه فما بال الفساد واقع علينا ونحن لم ننكر هذه الفرائض كما لم ينكروها وانا لنعمل فى الظاهر بأ كثرها غير أن القلوب منا مائلة الى حب مازهد القوم فيه والأنفس منا قابلة لحب هواها مستثقلة لما فى الحق من الصبر والمكروه. وسأعطيك دواء لفساد قلبك ينفعك الله به اذا كانت لك حياة ان شاء الله تعالى اعلم ياأخى أن القوم صبروا على مكروه مادلهم عليه الحق فصبروا فى الغضب والرضا والشدة والرخاء والعسر واليسر والعافية والبلاء فكانت أهواؤهم تابعة للحق على ما أحبت الأنفس وكرهت فكان الحق لهم قائداً والهوى لعقولهم

(١) الطفس قذر الانسان اذا لم يتعهد نفسه

تابعا فاستقامت منهم السيرة بلزومهم محجة الحق فى مواطن غضبهم و رضاهم وطمعهم وتقواهم وكانوا اذا امتحنوا فى هذه المواطن ظهر منهم قول الحق فى مواطن غضبهم وهم له فى ذلك الوقت ألزم وأشد تمسكا منهم فى مواطن الرضا فان عارضهم طمع دنيا ظهر منهم التنزه والورع والتقوى والتأنى وفقد منهم الحرص والرغبة خوفا منهم و كان منهم كالطباع لم يتصنعوا فيه وطباعنا اليوم بخلاف ذلك كله وكانوا أخوف لله و له أحذر مخافة أن لا يقبل منهم عملا فلا تفرحن بكثرة العمل مع قلة الخوف واغتنم قليل العمل مع الخوف فان قليل حزن الآخرة الدائم فى القلب ينفى كل سرور سررت به وألفته من سرور الدنيا وقليل سرور الدنيا فى القلب ينفى عنك جميع حزن الآخرة والحزن لا يصل الى القلب الا مع تيقظه وتيقظه حياته وسرور الدنيا لغير الآخرة لا يصل الى القلب الا مع غفلته وغفلة القلب موته والحزن يوقظه ويستنبط له اليقظة من خالص عين اليقين و بخطرات غامض الفهم تكون خطرات اليقين وعلامة ثبات اليقين فى قلب العبد استدامة الحزن فيه

فصل فى الزهد والخلوة

وقال رحمه الله تعالى اعلم أنى لم أجد شيئا أبلغ فى الزهد فى الدنيا من ثبات حزن الآخرة فى القلب وعلامة ثبات حزن الآخرة فى القلب أنس العبد بالوحدة وموضع هياج الحزن السرور ومعدنه ومفتاحه العقل ومحال أن يكون محزونا مسرورا فى حالة واحدة وجميع الطاعات توجد بالتكلف والحزن لا يوجد بالتكلف الا أن يصل الى القلب الذى يكون منه الحزن وذلك أن أهل الطاعة قدموا بين يدى الأعمال لطيف معرفة الأسباب التى بها يستديمون صالح الأعمال و يسهل عليهم مأخذها توطينا منهم لأنفسهم استصحاب نيتهم

الى انقضاء آجالهم فصيروا أعمالهم فى الدنيا يوما واحداً وليلة واحدة وكلما مضت ليلة استأنفوا الثانية وطلبوا من أنفسهم حسن الصحبة ليومهم وليلتهم وكلما مضى عنهم يوم بحسن الصحبة منهم أو ليلة راقبوا أنفسهم فيها على جميع الطاعات وكان ذلك عندهم غنيمة وذكروا اليوم الماضى فسروا به فصبروا أنفسهم على اليوم المستقبل لخوف انقضاء الأجل فيه أو فى ليلته وطرحوا شغل القلب بذكر غد واستعملوا أبدانهم وجوارحهم فيه وتفرغوا له فقصرت عنهم الآمال وقربت عندهم الآجال وتباعدت عنهم أسباب وساوس الدنيا وعظم شغل الآخرة فى قلوبهم فنظروا اليها بعين صحيحة النظر نافذة البصر وتقربوا الى الله بالأعمال الزاكية فاستقامت لهم السيرة حين وجدوا حلاوة الطاعة وطاوعتهم الزيادة فى التقوى فقرت بالخوف أعينهم وتنعموا بالحزن فى عبادتهم حتى نحلت أجسامهم و بليت أجسادهم وقل مع المخلوقين كلامهم وتلذذوا بمناجاة خالقهم فقلوبهم بملكوت السموات متعلقة وفكرهم بأهوال القيامة مقبلة مدبرة وأبدانهم بين المخلوقين عارية فعموا عن الدنيا وصموا عنها وعما فيها ووضح لهم أمر الآخرة حتى كأنهم اليها ينظرون والحمد لله رب العالمين . ثم نظرت فى ذلك فلم أر شيئاً أقرب ولا أجمع لذلك كله من حمية الأنفس عن ألفها وقطع مجاورة المخلوقين بمنع القلوب عن الأخبار التى بها تهيج القلوب من الأشغال القواطع عن التفرغ للحزن أو البحث عن أمر الآخرة والترك للدنيا وما فيها فورثه ذلك حب الخلوات فأحبها ولزمها وأنس بها واستوحش من المخلوقين وذلك حين جرت عذوبة الخلوة فى أعضائه كما يجرى الماء فى أصل الشجرة فأورقت أغصانها وأثمرت عيدانها ولزم خوف ما يجىء به يوم القيامة سويداء قلبه فهاج له من الخلوة فنون من أصول الزهد فى الدنيا حتى أنه لو اجتهد فى فن منها على أن يستحكم له لعظمت عليه المؤنة واشتد عليه فيه

الصلاح فاذا بلغ الله العبد هذه الدرجة حببت اليه الخلوة. فأول مايستفيد من حب الخلوة الاخلاص فى العمل والصدق فى القول فيما بينه وبين الله تعالى وفى حب الخلوة راحة للقلب من غموم الدنيا وترك معاملة المخلوقين فى الاخذ والعطاء. ومخرج ذلك كله من صحة العقل فأسقط عن نفسه بالخلوة وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومداهنة المخلوقين ويحبب اليه بالخلوة خمول النفس واخماد الذكر فى الناس وهو طريق الصدق ومنه يكون الاخلاص ويحبب اليه بالخلوة الزهد فى معرفة الناس والانس بالله ويوهب له استثقال المخلوقين حتى يفر منهم فراره من الأسد وهو غير مفارق لجماعتهم . ويعطى من حب الخلوة طول الصمت من غير تكلف وغلبة الهوى بالصبر ومن الصمت والصبر غلبة الهوى . ويعطى من حب الخلوة الاشتغال بامر نفسه وقلة اشتغاله بذكر غيره وطلب السلامة مما فيه الناس . ويعطى بالخلوة كثرة الهموم والأحزان والفكر وهذه الخصال من أفضل العبادة ومخرجها من خالص الذكر . ويعطى بالخلوة الأعمال التى تغيب عن أعين العباد وتظهر لرب العباد والبلاد وقليل ذلك كثير ومخرج ذلك من الصدق . ويعطى بالخلوة التيقظ من غفلة أهل الدنيا وما يذكره منها الخاص والعام ويعطى بالخلوة ترك الرياء والتزين وكل ذلك من دواعى الاخلاص وهو محض الصدق . ويعطى بالخلوة ترك المراء وترك الخصومات والجدال وذلك ينفى الرياسة من القلب . ويعطى بالخلوة قلة الخلف فى الوعد والتوقى من الكذب والأيمان والحنث فيها ومخرج ذلك من الصدق. ويعطى بالخلوة قلة الغضب والقوة على كظم الغيظ وترك الحقد والشحناء ومعاملة الخلق بسلامة الصدور . ويعطى بالخلوة رقة القلب والرحمة وهما ينفيان الغلظة والقساوة وهما من دواعى الخوف وبالخوف الثابت فى القلب يخشع العبد ويبكى من خشية الله تعالى فى الليل والنهار وهى من غايات

العبادة . ويعطى بالخلوة تذكر نعم الله عليه واحسانه اليه وطلب الشكر والزيادة من الطاعة . ويعطى بالخلوة وجود حلاوة العمل والنشاط فى الدعاء ويجرى ذلك من القلب مع تضرع واستكانة . و يعطى بالخلوة القناعة والتوكل والرضا بالكفاف للعفاف والاستغناء عن المخلوقين . و يعطى بالخلوة عزوب النفس عن الدنيا وشهواتها وفتنتها والشوق الى لقاء الله ويخرج ذلك من حسن الظن بالله وخوف التقصير فى العمل . و يعطى بالخلوة حياة القلب وضياء نوره ونفاذ بصره فى عيوب الدنيا ومعرفته بالنقص والزيادة فى دينه . و يعطى بالخلوة الانصاف للناس من نفسه . و يعطى بالخلوة خوف ورود الفتن التى فيها ذهاب الدين والاشتياق الى الموت والأنس بكلام رب العالمين وهو القرآن لما قد وجد من حلاوة المناجاة فى القرآن الذى جعله الله نورا وشفاء للمؤمنين فاذا التبس عليك هذا الطريق واشتبهت عليك الأمور فقف نفسك على الارادة من الترغيب والترهيب والتشويق الى ماندب الله اليه المؤمنين فانك ترجع بصيرا من حيرتك وعالما من جهالتك ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم وانظر الى كل موطن يضطرك الى الصبر فاهرب منه فانك تعجز عن القيام به . واعلم أنه لايثبت لك قدم على محجة دين الله وفيك خوفان خوف الفقر وخوف الغنى والثروة فان ذلك مفتاح فقر الأبد وخوفك من السقوط من أعين الناس هو الذى يسقطك من عين الله وينسيك حظك منها فادرأ ذلك عنك واطلب التخلص وهيء لذلك خوفين خوف أن مثلك لايستأهل أن يبلغ مايؤمل من الآخرة فان تفضل عليك ربك ببلوغ أملك فأتبعه الشكر ولتحضره خوفا شديدا لأنك لاتقوم بالشكر لما أنعم به عليك كما ينبغى فان لم تفعل ذلك خفت عليك أن تسلب النعمة فترجع الى أسوأ حالك فاذا ألزم العبد نفسه هذين الحالتين وتمسك بهما رجوت ان يؤمنه الله ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم . وقد روى

عن بعض العلماء بالله أنه قال لست آمن على نفسي الفتنة وأن يحال بيني وبين الاسلام فهؤلاء يخافون هذا وهم الصفوة الذين اختارهم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم خافوا مع سابقتهم وطاعتهم وجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهجم عليهم أقل مما أنت فيه من الفتنة فيحول ذلك بينهم وبين ما كانوا يعرفون من حلاوة الايمان فكيف بك يامسكين ولاسابقة لك الا فى الشر ولاحلاوة عرفتها قديما من الاسلام الاحلاوة المعاصى وأنت بارك فى دولة الفتنة وزمان الشر تحب البقاء طمعا فى الزيادة وأنت مع ذلك لاتنقم عليها حبها لخدعتك وأنت لاتعلم أنك مخدوع . واعلم أن المطيع اذا كان غير عالم بما يلزمه من الطاعة فى عبادة ربه ولاعارف بمكايدة عدوه هانت على ابليس صرعته لأنه ليس نوع من العبادة الا ولها ضد من الفتنة فمن لم يعرف الخير وضده من الشر ولاسيما فى العبادة خاصة ثم اجتهد خلاه ابليس واياها لما يعلم من قلة علمه بعبادته ومايجب عليه فيها ولم يتعرض له فى نفس عبادته بشىء ويقصد له جهة آفاتها التى تبطل عبادته من شهوة النفوس التى تسارع فى قبول ذلك فيتزين عنده أن ذلك خير من عندها وأنه سيجزى ويثاب فيصدقها بما تلقى اليه من ذلك فتزهو النفس لرضى صاحبها عنها ويحقق ابليس ظنه به وبالخدع له فاذن قد صرع وخذل ولجأ الى نفسه بميله عن طريق الشكر ويظهر له من فتنة عدوه مايستصغر به المخلوقين وتكون نفسه عنده أنه لاعدل لها زكاء وطيبا وهى أخبث الأنفس وأنتنها وأسقطها من عين الله تعالى فكلما سولت له نفسه من عمل احتمل فيه الأذى مع مساعدته اياها وشدة رضاه عنها من تحمل لبس الخشن وأكل الطعام الجشيم وطول السهر والصبر على ظاهر العبادة بما يفتتن به ويستميل به ابليس قلوب الجهال . ولقد قال بعض الحكماء انى لأعد كلامى فيما لابدلى منه مصيبة واقعة أستعين بالله على السلامة منها وانى لأعد صمتى عما لايعنينى

غنيمة واحداث نعمة ألتمس الشكر عليها اذ عملت ان من وراء كل كلمة رقيباعتيدا وأنزل مااضطررت اليه من القول مصيبة نازلة وما كفيت من الكلام غنيمة باردة . ويروى عن بعض الحكماء أنه قال ان من شر كسب الدين والدنيا تنقيص العبد غيره والوقيعة فيه وهى الغيبة ويقال أنها تفطر الصائم وتنقض الوضوء وتحبط الأعمال ويستوجب بها صاحبها المقت من الله تعالى والغيبة والنميمة مخرجهما من طريق البغى والنمام قاتل والمغتاب آكل ميتة والمباهى متكبر وهؤلاء الثلاثة أمرهم واحد بعضها مفتاح لبعض وذلك كله مجانب لأحوال المتقين

فصل فى معرفة أصل الأشياء التى تتفرع منها فنون الخير

وقال رحمه الله سأل سائل حكيما فقال أخبرنى بأصل الأشياء التى منها تتفرع فنون الخير وتجرى بها المنافع وتصح عليه الأعمال ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . فقال له الحكيم اعلم أن أصل الأشياء التى تتفرع منها فنون الخير وتجرى بها المنافع وتصح عليه الأعمال بعد اليقين بمعرفة النعم والقيام بأداء الشكر والعمل به وأن يصح عندك أن جميع الخير مواهب من الله تعالى وتعلم أن جميع المعاصى كلها عقوبة من الله تعالى وهى من طريق الخذلان وذلك من علامات السخط فاذا اعترفت بذلك كثرت حسناتك وقلت سيئاتك لأنك اذا علمت أن الاحسان نعم ومواهب من الله تعالى ازددت فى الشكر واستقللت كثير شكرك عند صغير نعمه عليك لأن الجبار العظيم من بها عليك وساقها اليك فقل عندك كثير الشكر وكبر عندك صغير النعم فجريت حينئذ فى ميدان الزيادة من عمل الخير وعلمت معرفة الرضا وطمعت فى العفو واذا علمت أن الاساءة التى اكتسبتها انما هى خذلان من الله وانها من طريق السخط فزعت الى التضرع فنزلت بساحته والى الاستكانة

فصحبتها والى التواضع فاتخذته خدنا فاذا كان ذلك كذلك لجأت الى التوبة فاستجرت بها ولبست جلباب الحياء مما سلف منك وشهد الله عليك به وشاهده منك من الاساءة مع ماتعرف من كثرة احسانه فلم تتعرض بعد ذلك لشئ مما يكره وعمدت الى المعاصى فعاديتها منك ومن غيرك فتكره أن يعصيه أحد من خلقه كلهم بصغيرة أو كبيرة فراجعت الاحسان مجتهداً وأنت مع ذلك عارف بالنعمة عليك فى التنبيه والرجوع وان ذلك تفضل منه عليك فالتمست لطيف الشكر بعد اقلاعك عن الاساءة بشدة المضادة لها فعظم شكرك عند التحويل الى الاحسان بعد الاساءة فاذ ذاك قدصرت فى جميع أحوالك شاكراً ذاكراً ولم يعجزك معرفة الاحسان فشكرت حينئذ الشاكر المشكور الذى وعد على الشكر الزيادة ووعده لاخلف فيه وعرفت الاساءة من أين كان مخرجها فراجعت الاحسان بالعتاب منك لنفسك ولمن زين الاساءة لك ودعاك اليها فهذا الأصل الذى تتفرع منه فنون الخير وبه تغلق أبواب الشر ولاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

فصل فى كيفية تهوين سلوك الطريق والوصول اليه بعون الله تعالى

وقال رحمه الله سئل رجل من أهل العلم فقيل له أوضح لنا المنزلة التى ينال العباد بها القرب من ربهم ويقوون بها على معرفته ويبلغون بها رضوانه والأمر الذى يقربهم اليه ويقصر بهم عنه أيضاحا شافياً حتى يكون ذلك عندنا بينا فقال سأوضح لك ذلك ان شاء الله تعالى فافهم قولى بفهم لايخالطه سهو وتذكر فيه بتذكر لايخالطه غفلة واصبر عليه صبرا لايخالطه جزع فانك ان تفعل ذلك ينهج لك منهاج الطريق وتسلم من تقصير طريق الهلكة والتوفيق بالله تعالى

اعلم أن مبتدأ الأمور والذى لاينتفع بشىء الابه العقل الذى جعله الله جل ذكره زينة لخلقه ونورا لهم . فبالعقل يعرف العباد خالقهم وأنهم مخلوقون وأنه المدبر وهم المدبرون وهو الباقى وهم الفانون فاستدلوا بعقولهم على مارأوا من خلقه فى أرضه وسمائه وشمسه وقمره وليله ونهاره وعلموا أن لهم ولهذا الخلق خالقا وأن لذلك كله مدبرا وأنه لم يزل ولا يزال وعرفوا به الحسن من القبيح وعلموا أن الظلمة فى الجهل والنور فى العلم هذا مادلهم عليه العقل . فقيل له كيف يكتفى العباد بالعقل دون غيره . فقال ان العاقل دله عقله الذى جعله الله قوامه وزينته على أن له رباً وعلم أن ربه لم يخلقه عبثا وأنه لم يخلق خلقه لعباً وعلم أن لخالقه محبة وكراهية وأن له طاعة ومعصية فلم يجد عقله يدله الا على ذلك وعلم أنه لا يوصل اليه الا بالعلم وطلبه وأنه لاينتفع بعقله ان لم يطلب ذلك و يعلمه فوجب على العاقل طلب العلم والأدب وهو الذى لاقوام له الا به . فقيل له صف لنا ماهذا العلم الذى لاينبغى للعاقل الا طلبه ولا يجوز له التقصير بنفسه عنه فقال طلب العلم الذى جاءت به رسله وأنبياؤه عنه من أمره ونهيه و وعده و وعيده وملائكته وكتبه و رسله وجنته وناره و بعثه وحسابه وحلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ومحبته وكراهيته . فقيل له هل يكتفى العالم بما علم من ذلك أو يحتاج الى غيره فقال لاينتفع العالم بما علم من ذلك دون الايمان به وأن يقر ذلك فى قلبه حتى يعلم أن الله هو الحق وأن ماسواه باطل وأن أحداً لايملك له نفعا لم يقدره الله له ولا ضراً لم يكتبه عليه . فقيل له فهل يجب عليه بعد الايمان غير ذلك أو يكتفى به . فقال نعم ان الله تبارك وتعالى أمر عباده بالطاعة والعبادة له والعمل بها ونهاهم عن معصيته وركوبها فمن آمن ولم يعمل كان متهاونا وتصديق الايمان العمل به . فقيل له فكيف العلم وكيف العمل . فقال أن تعمل بمحبة الله عز وجل وان خالف هواك وأن تعمل بطاعة الله وان أسخطك وأن تجتنب

سخط الله وان سرك وأن تدع كراهيته وان أعجبتك وأن تؤثر ماهو لهوان ساءك وان ترغب فيما رغبك وتزهد فيما زهدك وأن تجعل القرآن امامك ودليلك. فقال له السائل قد دللتنى على العمل فعرفت وعرفت فآمنت فلم يكن على فى ذلك كبير مؤنة ولا عظيم مشقة بل خفة وراحة مع ما استزدت به هداية وبصيرة ومعرفة فلما صرت الى العمل به لزمنى فى ذلك مؤنة شديدة وثقل كبير حتى حال بينى وبين كثير من لذيذ عيشتى ونعيم دنياى وحملنى على المكروه وصرفنى عن كثير من السرور فصف لى أمراً أقوى به على العمل فيما آمنت به فقد اشتدت على مؤنته وثقل على احتماله . فقال الأمور التى تقوى بها على العمل والأدب الصبر الذى هو تمامه وقوامه فانك ان صبرت انتفعت بعلمك وبلغت منه رضوان الله وقويت فيه على العمل وليس منزلة من منازل الخير الا وللصبر فيه عمل وبه تمامه . فبالصبر قوى العباد على أداء الفرائض والحلال والحرام وبالصبر قووا على اجتناب المحارم وبالصبر بلغوا الغاية من كرامة الله تعالى وثوابه فاذا صبرت على العمل انتفعت بالعلم والأدب وانك ان لم تصبر لم تعمل وان لم تعمل لم تنتفع بالايمان بما علمت ومن لم ينتفع بالايمان لم ينفعه العمل ومن لم ينتفع بالعمل لم يغن عنه العقل . فرأس أمر العباد العقل ودليلهم العلم ونورهم الايمان وسائقهم العمل ومقربهم الصبر فمن لم تكن له قوة على الصبر ضعف ومن ضعف لم يعمل ومن لم يعمل لم يتم له أمره ونوره وبقى فى ظلمة ومن ذهب عنه النور عمى وحاد عن الطريق ومن لم يبصر فليتبع الدليل وهو القرآن ومن اتبع العلم الذى هو النجاة من الهول العظيم وعمل له وصبر عليه صار الى غاية العلم والأدب . فقال له قد بصرتنى من فضل الصبر قوته وعلمتنى مارغبنى فيه وقوانى على العمل به مع ثقله على فصف لى أمراً أزداد بالصبر تبصراً وفيه رغبة وعليه حرصاً . فقال صبرك على الطاعة وطلبك لها وهربك من المعصية وبليتها هو الذى يرغبك فى الطاعة

و يبين لك فضلها . قال قد شرحت لى أمر الصبر وفضله فزدنى به تبصرا . فقال له هذا الدليل والامام كتاب الله هو الذى يبين لك فضل الصبر و يرغبك فى لزومه فان الله تبارك وتعالى وصف أعمال العباد وذكر ثوابهم فلم يذكر ثوابا يعدل ثواب الصبر فانه ذكر أنهم يوفون أجرهم بغير حساب فهو الدليل على فضل الصبر مع ماذكر من ثوابه فى مواضع من كتابه . فقال له صاحبه قد دلنى العلم وكتاب ربى على ماذكرت من فضل الصبر وثوابه فزادنى بفضله تبصرا وازددت عليه حرصا وفيه رغبة وبه تمسكا وعليه اعتماداً مع شدة منه على وثقل وصبر على خلاف ماأشتهى وحمل نفسى على ماأكره لطلبى فيه الأجر والفضل وابتغاء العمل والأدب فصف لى أمرا يخف به على مؤنة الصبر و يسهل على لزومه و يخف على احتماله و تذل صعوبته . فقال له أراك للخير مريداً وللفضل طالباً وعليه حريصا وتحب أن تكون قد قويت على مادلك عليه العلم بنفاذ من الصبر وقوة من العمل وذلك من علامات السعادة فان العبد كلما ازداد علما وفيه تفهما ازداد للخير طلبا وعليه حرصا خفف عليه الثقيل وقرب عليه البعيد ولهاً فى الدنيا عما يريد وانما الثقل والعسر تمثال الدنيا فى قلب العبد وهى مرصد ابليس وسلاحه فاذا قطع عنه ذلك استنار القلب وخرجت الظلمة منه فلم يكن للشيطان به احتمال بقوة و لا له فيه نصيب ووصل من الأمر الى مايريد . فقال له زدنى مايسهل به على ثقل احتمال الصبر و يخففه على . فقال له الأمر الذى يسهل عليك ثقل احتمال الصبر ويخففه عليك الرضا عن الله تبارك وتعالى بكل ماصنع بك واختاره لك وساقه اليك . فقال له صاحبه فأوضح لى كيف يهون على مؤنة الصبر برضائى عن الله ويخفف على احتماله . فقال ألست تعلم أنك انما انتسبت الى الرضا وسميته صبرا لأن الأمر الذى نزل بك مكروه عليك وان هواك ونفسك ينازعانك الى غيره فاحتجت الى الصبر فتدبرت واعتبرت فصرت من

ذلك الى موضع رضاه ثم يتجاوز بك الأمر حتى تصير الى موضع السرور حتى ترى لو صرف ذلك الأمر عنك لصرت منه الى تقوية نفسك وعلمت أن ماصرف عنك عقوبة لبعض ماأحدثت من ذنوبك أوقصرت فيه عن شكر ما أنعم الله به عليك فصرت منه الى الدرجة الرفيعة ومنازل أهل الرضا وانما يوصل الى ذلك بالمعرفة بالله وبمعرفته ينظر اليك فتعلم أنك لانظر لك من نفسك فترضى بما رضى به وترغب فيما رغبه وتزهد فيما زهده والزهد من الرضا . قال قد علمت فضل الرضا ووضح لى أمره فصف لى كيف يهون على أمر الصبر فى الزهد وكيف مأخذه فقد أرانى مع ماأصير اليه من الزهد مقيما على الصبر وأزداد أيضا مع زهدى فى الدنيا أموراً أحتاج فيها الى الصبر مخالفة لهوائى ورفضا لشهواتى وما تنازعنى نفسى من لذاتى فقد أرانى ازددت ثقلا وضجرا . قال أراك لاتقبل من الامور الا أصلحها ولا ترضى لنفسك الا بواضحها ولا تختار منها الا أرشدها وذلك من الامور التى أرجو لك بها القوة والنجاح لحاجتك والظفر بطلبتك وبلوغك أقصى الغاية من ارادتك فافهم قولى وتدبر نصحى فان الحجة فى ذلك واضحة والأمر فيه بين ألست تعلم أن الدنيا كانت باقية فى قلبك وأن حبها غالب عليك وأن سرورها فرح لك وان مكروهها شديد عليك فحملت نفسك على قطع ذلك مع حبك لها وايثارك لها ونزلها منك مع طلبك الفضل من احتمال الصبر وحملت نفسك على المكروه من أمر دنياك وصبرت عليها لشدة منه عليك لأن مكروهها عندك مكروه ولأن سرورها عندك سرور . فثقل عليك الصوم لقطعك الشهوة عن نفسك من الأكل والشرب . وثقلت عليك الصلاة والاشتغال بها لما تسره اليك نفسك من اللهو والحديث فى الباطل وثقلت عليك الزكاة والصدقة لما تحب أن تصرفه فيه من لذاتك . وثقل عليك التواضع لما ترى من تصغير شأنك ودناءة منزلتك عند أهل الدنيا . وثقل عليك

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لئلا يعاديك الناس أو ينقطع رجاؤك منهم أو يسمعونك ماتكره فيدخل عليك التنغيص فى سرورك . وثقل عليك القنوع والرضا لعظيم موقع الدنيا من قلبك وحبك الاكثار منها وحرصك عليها وكراهيتك للموت ونعيم ما بعده مع أشياء كثيرة يطول وصفها . وكل ذلك انما صار شدته عليك لحب الدنيا وانما ثقل عليك الصبر وملته وضيق الشيطان عليك المذاهب من أجل ذلك لأن سلاحه الذى به يقوى وكيده الذى يصل به الى أهل الدنيا الرغبة فيها وطلبها فاذا أنت زهدت فى الدنيا و رفضتها و رغبت فى الآخرة وطلبتها سهل عليك الأمر فآثرت الآخرة وطلبتها ورغبت فيها وأدبرت عنك الدنيا وثقلها وتولت عنك هاربة يبلائها وأتتك بمنافعها وصرفت عنك شرورها برغم منها وانقطع رجاء الشيطان وصغر كيده وولى وقل سلاحه فلا قوة له بك ونجوت بعصمة الله وتوفيقه من الضيق والتعسير والهلكة وصرت الى النعمة والسرور والراحة وخرج حب الدنيا من قلبك فلزمت الصيام وخف عليك لأنه لم تكن نفسك تنشرح الى الأكل والشرب وغيرهما من الشهوات ولزمت الصلاة واشتغلت بها لأن نفسك لم تكن تنازعك الى اللهو أو الخلوة الى حديث فى باطل وخفت عليك الزكاة والصدقة لأنك أعددت ماقدمته أمامك ولا تريد منه شيئا يبقى خلفك وخف عليك التواضع لان الاياس قد خرج من قلبك وهان عليك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الناس قد استووا عندك فلم ترج أحدا غير ربك ولم تخف شيئا غيره وخف عليك القنوع لانك رضيت من الدنيا باليسير ولم تنازعك نفسك الى غير البلاغ والكفاية وخف عليك الجهاد لأن الدنيا قد أخرجتها من قلبك وكرهت البقاء فيها وأحببت الموت لما ترجو من النعيم والسرور والحياة الدائمة التى أمامك فالزهد فى الدنيا راحة للقلب والبدن وهو جماع الخير وتمامه وليس شىء من أعمال البر الا وله ضد من

غيره فما قصر بك عنه فارفضه وازهد فيه يسلم لك عملك ويخف عليك ثقله فقال له صاحبه أوضحت فبينت وأرشدت فهديت وكشفت فأريت فصف لى كيف الزهد وما حده والذى ينبغى لى العمل به فقد استبان لى فضله ووضح لى رشده . فقال له صاحبه ان الزهد فى الدنيا واجب عليك وهو الورع لايجوز لك التقصير فيه ولا الرغبة عنه وهو اجتناب ماحرم الله عليك ونهاك عنه فهذا الأمر لازم لك لاعذر لك فى التقصير عن الزهد والقرب الى ربك طلبا للفضل ونفيا لكل أمر قصر بك عنه من المسارعة فى طاعته والمسابقة الى رضوانه فهذا ما ينبغى لك العمل به وادارة صلاح نفسك عليه . فقال أما ماحرم الله على ونهانى عنه فقد دلنى عليه العلم لأنه صار لاينبغى لى المقام عليه ولا العمل به فزهدت فيه ورفضته فصف لى الزهد الذى أرجو أن أنال به كرامة سيدى وأن أبلغ من ذلك محبته وأن أدفع به عنى كيد الشيطان ومكره فقال له ذلك الزهد فى فضول الدنيا والرضا منها بيسيرها والأخذ منها بقدر البلاغ الى غيرها و رفض ماسوى ذلك من فضولها وأمورها باخراج الناس من قلبك فلا تخف أحدا فى الله و لا ترد حمد أحد من الناس و يستوى الناس عندك فلا ترج أحدا غير الله ولا تطلب الا فضله وتنصح فى الله فى السر والعلانية و لا تخف لوم أحد من الناس و لا عذله وتحب فى الله وتبغض فى الله و لا تشغل قلبك بشىء غيره وتلزم التواضع والتذلل لربك وتخمل ذكرك وتغيب اسمك و لا ترد بذلك تعظيم أحد من الناس غير الله تبارك وتعالى وتحب الموت وتكون ممثلا له بين عينيك لرجاء مابعده وتزهد فى الحياة مخافة الفتنة والبلية فهذا أصل الزهد فاذا أنت وصلت الى ذلك نلت شرف الآخرة ونجوت بعون الله من بلية عاجلتك . فقال له صاحبه لقد ذكرت لى من أمر الزهد شيئا ضاق به ذرعى واشتد له غمى واعتصر له قلبي واستصعب به على أمرى وتفرق له رأيى واشتدت على

المؤنة فيه وقد كان الصبر والاحتمال له أيسر على مؤنة منه وأخف على حملا من الزهد وخشيت أن لا أقوى على احتماله و لا تطيق نفسي العمل بكماله و لا تقدر على القيام بتمامه وأن تمله نفسي وترفضه وترجع منه الى غيره مما فيه هلاكها وعطبها وقد عرفت فضل الزهد وعظيم قدره فصف الى أمراً أتقوى به على الزهد و يخففه علي . فقال له صاحبه قد فهمت قولك ولقد صعب عليك الذلول واشتد عليك اليسير وثقل عليك الخفيف وعميت عليك المداخل وما ألومك حيث اشتد عليك من أمرك ماذ كرت حين لم تعلم الأمر الذى له فى الدنيا زهدت والذى به عليه قويت و لو علمته لهان عليك من أمرك الشديد وخف عليك الثقيل وسهلت عليك موارده وسهلت عليك فيه المذاهب وخفت عليك فيه المؤنة فافهم قولى بعقل وتدبره بحكم وخذ فيه بقوة وجد . واعلم ان العباد زهدوا فى الدنيا ودعاهم الى الزهد فيها و رفضها خصال شتى بعضها أرفع وأعلى درجة من بعض وكلها داعية الى الزهد فيها . فأول درجات الزهد أن الله تبارك وتعالى خلق العباد فى الدنيا وجعل مافيها زينة لها وزهدهم فيها وخلق الآخرة ونعيمها وندبهم اليها و رغبهم فيها وأعلمهم أنهم عن الدنيا مرتحلون وأنهم الى الآخرة صائرون فرغب العباد فى الباقى و زهدهم فى الفانى فآثر الآخرة واطلبها وازهد فى الدنيا وارفضها لكيلا ينتقص من حظك فى الآخرة بما نلت من نعيم دنياك . وأما المنزلة الثانية من الزهد فى الدنيا فان الله عز وجل خلق العباد فى الدنيا فأوجب الموت عليهم وأعلمهم انهم ميتون وضرب لهم فيها أجلا فلم يعلموا فى أى الأوقات والساعات تأتيهم منيتهم فتحول بينهم و بين دنياهم ونعيم عيشهم ومفارقة أحبابهم فلما استقر الموت فى قلوبهم أسهروا فى الليل أعينهم واشتغلوا بهمومهم عن أهليهم وأولادهم ودام حزنهم و بكاؤهم و زهدوا فى الدنيا وأهلها ونعيمها فصار الليل والنهار عندهم بمنزلة الضيفان وكان المقوى لهم على الزهد فى الدنيا ذكر الموت

وقصر الأمل فهذه الخصلة شريفة من خصال الزهد فى الدنيا وأما الخصلة الثالثة فى الزهد فتصديق العبد ربه فيما أخبره به من نعيم الآخرة وما خوفه به من عقاب النار وعذابها وما حذره منه من الدنيا والاغترار بها فزهد فيها وأحب بالموت مفارقتها والتباعد عنها والخروج منها الى داره وقراره تبصراً منه بالدنيا وحالها فهذه الخصلة من خصال الزهد أشرف مما قبلها. فقال له صاحبه ماتركت لى الى الدنيا والركون اليها سبيلا ولقد استبان لى من قولك البر والحق ووضح لى من وصفك الصدق وقويت بحمد الله وتوفيقه على الزهد فيها ورفضها فصف لى بصفتك الشافية ونعتك النافع دواء لداء قلبى تخبرنى فيه عن الامر الذى يدلنى على هذه الخصال ويقوينى عليها. فقال الأمر الذى يدلك على هذه الخصال ويقويك عليها وينورها فى قلبك هو اليقين الذى لايخالطه شك والتصديق بربك الذى لايخالطه لبس فانه من صدق ربه أيقن ومن أيقن أبصر ومن أبصر زهد والزهد فى الدنيا شعبة من شعب اليقين وأفضل اليقين التوكل. قال فصف لى اليقين لأعرفه. فقال أن تعلم أن الله وحده لاشريك له وأنه الحق المبين وأنه كما وصف نفسه فى قدرته وسلطانه وخلقه وأن وعده حق وقوله صدق وكذا وعيده وكتبه ورسوله حتى تقر بذلك فى قلبك وتتبع كتاب ربك فهذا اليقين الذى لايشك فيه. قال صف لى التوكل لأعرفه. فقال التوكل هو العمل بطاعته وتصديق اليقين دلالته فمن أيقن وعلم أن الله خالق الأشياء والمقتدر عليها والمالك لها والمنفرد بها توكل عليه فى جميع أموره وقطع رجاءه عمن سواه من خلقه ولم يثق باحد ولم يأنس الابه فانقطع الى الله وتوكل عليه فى جميع حالاتك فهذه صفة العمل والتوكل ومأخذه. قال ماالذى يدلنى على الفكرة ويقوينى عليها فانى كلما أردت الفكرة لم أصل اليها ولم أقدر عليها. فقال أجل لاتصل الى ماتريد من الفكرة مع الاشتغال.

بغيرها فسبيل الوصول الى الفكرة الصيام وترك الاكثار من الطعام والشراب واعتزال الشهوات ولزوم الصمت الاعن ذكر الله والخير فى الخلوة والاعتزال ورفض الاشتغال بالفضول والله المستعان ولاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم

فصل فى السماع وكيفيته ومايمنع منه ومايجوز

فانظر رحمنا الله واياك الى ماقرر هذا السيد رحمه الله فى كيفية السلوك والأخذ أولا بالصيام وترك الاكثار من الطعام والشراب واعتزال الشهوات ولزوم الصمت الاعن ذكر الله والخير فى الخلوة والاعتزال ورفض الاشتغال بالفضول فلم يكتف رحمه الله بالخلوة ليس الا حتى ذكر الاعتزال مع الخلوة فلوكانت خلوة دون اعتزال لقال أن يفتح له ولاجل ذلك احترز بقوله والاعتزال . فأين هذا الحال من حالنا اليوم اذا أن الغالب على من ينسب الى الخرقة فى هذا الزمان انما شأنه كثرة الاجتماع وحضور السماع والرقص فيه حتى كأن ذلك مشروط فى السلوك نسأل الله السلامة بمنه . فمن أراد الخير فليعتزل عمن هذه صفته والا فالفتح عليه بعيد أعنى الفتح الحقيق الذى يقرب به من ربه عزوجل دون ادعاء والا فبعض هؤلاء يدعون الأحوال ويزعمون أنه يفتح عليهم فى حال رقصهم وتأخذهم الأحوال اذ ذاك ويخبرون بأشياء من أمر الغيب ولو وقع ذلك فى بعض الأحيان لكان مصادفة ثم أنهم يولون ويعزلون فى تلك الأحوال ويخبرون بمنازل أصحابهم فيقولون مثلا فلان أحد السبعة وفلان أحد العشرة وفلان أحد السبعين وفلان أحد الثلاثمائة الى غيرذلك ولا شك أنها أحوال نفسانية أوشيطانيه لأن الفتح من الله تعالى لايكون مع ارتكاب المكروهات أو المحرمات . وهذا السماع على ما يعملونه محرم . قال الامام أبو عبد الله القرطبي رحمه الله فى تفسيره لما أن تكلم على سورة الكهف فى قوله تعالى ﴿اذ قاموا

فقالوا ربنا رب السموات والارض﴾ هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته شكرا لما أولاهم من نعمته ثم هاموا على وجوههم منقطعين الى ربهم وخائفين من قومهم وهذه سنة الله فى الرسل والانبياء والفضلاء الأولياء أين هذا من ضرب الأرض بالاقدام والرقص بالأكمام خصوصا فى هذا الزمان عند سماع الأصوات الحسان من المردوالنسوان هيهات بينهما والله مثل مابين السماء والأرض. ثم ان هذا حرام عند جماعة العلماء انتهى. وقد تقرر فيما مر أول الكتاب أن الفقير المنقطع لا يتصرف الا فى واجب أو مندوب وأن المكروه عند هذه الطائفه كالمحرم لاسبيل الى ذكره فضلا عن فعله. وقد اختلف العلماء رحمة الله عليهم فى ضرب الطار على حدته هل يجوز أم لا. وكذلك اختلفوا فى الشبابة على حدتها. وقاعدة أهل الطريق الخروج من الخلاف فكيف يقدمون على شئ قد اتفق الناس على منعه ذلك محال فى حقهم. ثم مع ارتكاب بعضهم ماذكر يدعون الأحوال الرفيعة ويشيرون الى مقامات ومنازلات تستعظم فى الغالب على من هو متصف بالاقتداء والاتباع فكيف يحصل لأهل التخليط وارتكاب مالا ينبغى ذلك محال. ومن أشد مافيه من القبح ماأحدثوه فى السجود للشيخ حين قيام الفقير للرقص وبعده. وقد نقل الشيخ الامام أبو عبد الله القرطبي رحمه الله فى كتابه ماهذا لفظه. روى ابن ماجة فى سننه والنسائى. فى صحيحه عن أبى واقد (قال لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماهذا فقال يارسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فرأيت أنك أولى بذلك فقال لاتفعل فانى لوأمرت أحدا يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها حتى لوسألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه) هذا لفظ النسائى وفى بعض طرق حديث معاذ (ونهى

عن السجود للبشر وأمرنا بالمصافحة) قلت وهذا السجود المنهى عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم فترى الواحد منهم اذا أخذه الحال بزعمه يسجد للاقدام سواء كان للقبلة أوغيرها جهالة منه ضل سعيهم وخاب عملهم

﴿فصـــــل﴾ فانظر رحمنا الله واياك الى قصة معاذ المتقدمة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم انك أولى بذلك يؤخذ منها من الفوائد النفيسة التحرز عن مخالطة أهل الكتاب والبعد منهم اذ أن النفوس تميل غالبا الى ما يكثر ترداده عليها . ومن ههنا والله أعلم كثر التخليط على بعض الناس فى هذا الزمان لمجاورتهم ومخالطتهم لقبط النصارى مع قلة العلم والتعلم فى الغالب فأنست نفوسهم بعوائد من خالطوه فنشأ من ذلك الفساد وهو أنهم وضعوا تلك العوائد التى أنست بها نفوسهم موضع السنن حتى أنك اذا قلت لبعضهم اليوم السنة كذا يكون جوابه لك على الفور عادة الناس كذا وطريقة المشايخ كذا فان طالبته بالدليل الشرعى لم يقدر على ذلك الا أنه يقول نشأت على هذا وكان والدى وجدى وشيخى وكل من أعرفه على هذا المنهاج ولا يمكن فى حقهم أن يرتكبوا الباطل أو يخالفوا السنة فيشنع على من يأمره بالسنة ويقول له ماأنت أعرف بالسنة ممن أدركتهم من هذا الجم الغفير . وقد تقدم انكار بعض العلماء على الامام مالك رحمه الله فى فى أخذه بعمل علماء المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فكيف يحتج هذا المسكين بعمل أهل القرن السابع مع مخالطتهم لغير جنس المسلمين من القبط والأعاجم وغيرهما نعوذ بالله من الضلال . مع ان السماع المعروف عند العرب هو رفع الصوت بالشعر ليس الا فاذا فعل أحد ذلك قالوا أهمل السماع وهو اليوم على مايعهد ويعلم . ولأجل هذا المعنى قال الامام الشيخ رزين رحمه الله ماأتى على بعض العلماء المتأخرين الا لوضعهم الاسماء على غير مسميات

وهاهو ذابين ألاترى السماع كان عندهم على ماتقدم ذكره وهو اليوم على مانعاينه وهما ضدان لايجتمعان. ثم أنهم لم يكتفوا بما ارتكبوه حتى وقعوا فى حق السلف الماضين رضى الله عنهم ونسبوا اليهم اللعب واللهو فى كونهم يعتقدون أن السماع الذى يفعلونه اليوم هو الذى كان السلف رضوان الله عليهم يفعلونه ومعاذ الله أن يظن بهم هذا ومن وقع له ذلك فيتعين عليه أن يتوب ويرجع الى الله تعالى والا فهو هالك . ألاترى أن الشيخ الامام السهروردى رحمه الله لما أن تكلم على السماع قال فى أثناء كلامه ولاشك انك اذا خيلت بين عينيك جلوس هؤلاء للسماع وما يفعلونه فيه فان نفسك تنزه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم عن ذلك المجالس وعن حضوره انتهى . ولقد أنصف فيما وصف وهذاهو الحق الذى يجب اعتقاده فى حق السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين . وقد قيل عن الجنيد رضى الله عنه أنه قال ان السماع لايرجع مباحا الابعشرة شروط وهوأن يكون فى مكان لايطلع عليهم غيرهم لأنه لايطلع عليهم الا ذو محرم أعنى أن يكون منهم وامكان واخوان قال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله وأن يكون القوال هو الذى يمدهم قال الشيخ الامام الجنيد رحمه الله وأن يكون بغير أجرة وأن لا يكون بين أحد ممن يحضره شنآن وأن لا يحضره أحد من أبناء الدنيا وأن لايحضره شاب الى غيرذلك من الاوصاف الجميلة وحيث كان مباحا بهذه الشروط فان اتفق اجتماعها كان السماع المعروف عند العرب وهو انشاد الشعر برفع الصوت كما تقدم ولأجل هذا المعنى ذكر الشيخ ابوطالب المكى رحمه الله فى كتابه عن بعض السلف رضى الله عنهم انهم كانوا يدخلون الى خلواتهم فمن عجز منهم عن تمام المدة التى دخل عليها خرج فحضر السماع ثم رجع الى خلوته نشطا لأن القوال كان يمدهم فى بواطنهم ثم مع ذلك ينشد لهم من درر الشعر مايناسب حالهم

وتقوى به قلوبهم على السير الى المقامات العلية والنهوض اليها وترك التراخى والتسويف الشاغل عنها. ومثل ذلك كانوا يفعلون اذا عجز أحدهم عن تمام المدة التى دخل عليها الى الخلوة خرج الى مجلس عالم فحضره ثم يرجع الى خلوته قويا لأن حضور مجالس العلماء العاملين بعلمهم يحيي القلوب الميتة كما يحيي المطر الوابل النبات بل النظر اليهم تقتات به النفوس الأبية وينشرح صدرها ويحدث لها عند تلك الرؤية انزعاج وقوة باعثة على ماتؤمله من الخير كيف لا وهم أمناء الله فى أرضه وخلفاؤه فى خلقه وقد جعلهم الله عز وجل رحمة وكهفا لمن ياوى اليهم ويستظل بظلهم نصبهم هداة للمتحيرين ونورا للسالكين اللهم لاتحرمنا بركتهم ولا تخالف بنا عن سنتهم فأنت ولى ذلك والقادر عليه. فاذا تقرر هذا من حالهم وعلم فلاشك أن مايفعل اليوم من هذا السماع الموجود بين الناس مخالف لجماعتهم اذ أنه احتوى على أشياء محرمات أومكروهات أوهما معا وقد تقدمت الحكاية عن العلماء فى ذلك اذ أنهم جمعوا فيه بين الدف والشبابة والتصفيق. وقد تقرر فى الشرع أن التصفيق انما هو للنساء دون الرجال فهو ممنوع كما منعت الآلات المتقدم ذكرها. وبعضهم ينسب جواز ذلك للشافعى رحمه الله. وقد سئل الشيخ الامام أبو ابراهيم المزنى رحمه الله وكان من كبار أصحاب الامام الشافعى رحمه الله فقيل له ماتقول فى الرقص على الطار والشبابة فقال هذا لايجوز فى الدين فقالوا أماجوزه الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه فانشد رحمه الله تعالى

حاشا الامام الشافعى النبيه ... أن يرتقى غير معانى نبيه
أو يترك السنة فى نسكه ... أو يبتدع فى الدين ماليس فيه
أو يبتدع طارا وشبابة ... لناسك فى دينه يقتديه
الضرب بالطارات فى ليلة ... والرقص والتصفيق فعل السفيه

هذا ابتداع وضلال في الورى وليس في التنزيل مايقتضيه
ولاحديث عن نبي الهدى ولا لصحابي ولاتابعيه
بل جاهل يلعب في دينه قد ضيع العمر بلهو وتيه
وراح في اللهو على رسله وليس يخشى الموت اذيعتريه
ان ولى الله لايرتضى الا بما الله له يرتضيه
وليس يرضى الله لهو الورى بل يمقت الله به فاعليه
بل بصيام وقيام في الدجى وآخر الليل لمستغفريه
اياك تغتر بأفعال من لايعرف العلم ولايبتغيه
قد أكلوا الدنيا بدين لهم ولبسوا الأمر على جاهليه
جهل وطيش فعلهم كله وكل من دان به تزدريه
شبه نساء جمعوا مأتما فقمن في الندب على ميتيه
والضرب في الصدر كما قدترى ليس لهم غير النسا من شبيه
انكر عليهم ان تكن قادرا فهم رجال ابليس لاشك فيه
ولاتخف في الله من لائم وفقك الله لما يرتضيه

وقد تقدم أن من ثبتت عدالته لاينسب اليه الامايليق بحاله وبطريقته من الخصال الحميدة فمن ذكر عنه غيرما يناسبه كذب فيما ادعاه وأنكر عليه ألاترى أن المزني رحمه الله لما أن باشر الشافعي رحمه الله أنكر على من نسب اليه جواز السماع بما تقدم ذكره

﴿فصل﴾ وأشد من فعلهم السماع كون بعضهم يتعاطونه في المساجد وقد تقدم توقير السلف رضي الله عنهم للمساجد كيف لايكون ذلك وقدكانوا يكرهون رفع الصوت فيه ذكراً كان أوغيره. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رفع الصوت بالقراءة فيه . ومن ذلك ماورد من انشاد الضالة في المسجد

لقوله عليه الصلاة والسلام (من نشد ضالة فى المسجد فقولوا له لاردها الله عليك) ومن ذلك ماورد (من سال فى المسجد فاحرموه) وروى أبو داود والترمذى والنسائى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشراء والبيع فى المسجد وأن تنشد فيه ضالة وأن ينشد فيه شعر ونهى عن التحلق قبل الصلاة يوم الجمعة . وبعض هؤلاء يفعلون السماع على ماهو عليه اليوم فى المساجد ويرقصون فيها وعلى حصر الوقف التى فيها وكذلك يفعلون فى الربط والمدارس . وقد ذكر أن بعض الناس عمل فتوى وكان ذلك فى سنة احدى وستين وستمائة ومشى بها على الأربع مذاهب . ولفظها ماتقول السادة الفقهاء أئمة الدين وعلماء المسلمين وفقهم الله لطاعته وأعانهم على مرضاته فى جماعة من المسلمين وردوا الى بلد فقصدوا الى المسجد وشرعوا يصفقون ويغنون ويرقصون تارة بالكف وتارة بالدفوف والشبابة فهل يجوز ذلك فى المساجد شرعا افتونا مأجورين يرحمكم الله تعالى فقالت الشافعية السماع لهو مكروه يشبه الباطل من قال به ترد شهادته والله أعلم وقال المالكية يجب على ولاة الأمور زجرهم وردعهم واخراجهم من المساجد حتى يتوبوا ويرجعوا والله أعلم . وقالت الحنابلة فاعل ذلك لايصلى خلفه ولا تقبل شهادته ولايقبل حكمه وان كان حاكما وان عقد النكاح على يده فهو فاسد والله أعلم . وقالت الحنفية الحصر التى يرقص عليها لايصلى عليها حتى تغسل والأرض التى يرقص عليها لايصلى عليها حتى يحفر ترابها ويرمى والله أعلم . وقد قال الشيخ الامام أبو عبد الله القرطبي رحمه الله فى تفسيره حين تكلم على قصة السامرى فى سورة طه سئل الامام أبو بكر الطرطوشى رحمه الله مايقول سيدنا الفقيه فى مذهب الصوفية حرس الله مدته أنه اجتمع جماعة من الرجال يكثرون من ذكر الله وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ثم أنهم يوقعون أشعارا مع الطقطقة بالقضيب

على شيء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يخر مغشيا عليه ويحضرون شيئاً يأكلونه هل الحضور معهم جائز أم لا أفتونا يرحمكم الله وهذا القول الذي يذكرونه

ياشيخ كف عن الذنوب قبل التفرق والزلل
واعمل لنفسك صالحا مادام ينفعك العمل
أما الشباب فقد مضى ومشيب رأسك قد نزل

فأجاب بقوله يرحمكم الله مذهب هؤلاء بطالة وجهالة وضلالة وما الاسلام الا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما القضيب فأول من أحدثه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى وانما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق وقال الشيخ الامام أبو بكر الطرطوشي أيضا رحمه الله فى كتابه المسمى بكتاب النهى عن الأغانى وقد كان الناس فيما مضى يستتر أحدهم بالمعصية اذا واقعها ثم يستغفر الله ويتوب اليه منها ثم كثر الجهل وقل العلم وتناقص الأمر حتى صار أحدهم يأتى المعصية جهارا ثم ازداد الأمر ادبارا حتى بلغنا أن طائفة من اخواننا المسلمين وفقنا الله واياهم استزلهم الشيطان واستهوى عقولهم فى حب الأغانى واللهو وسماع الطقطقة واعتقدته من الدين الذى يقربهم من الله تعالى وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت به سبيل المؤمنين وخالفت العلماء والفقهاء

وحملة الدين ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ وقد سئل مالك رحمه الله عما رخص فيه أهل المدينة من الغناء . فقال انما يفعله عندنا الفساق ونهى عن الغناء واستماعه . وأما أبو حنيفة رحمه الله فانه يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكل ذلك مذهب أهل الكوفه سفيان وحماد وابراهيم والشعبي لااختلاف بينهم فى ذلك ولا نعلم أيضا بين أهل البصرة خلافا فى كراهية ذلك والمنع منه . وأما الشافعي رضى الله عنه فقال فى كتاب أدب القضاء ان الغناء لهو مكروه ويشبه الباطل والمحال أما سماعه من المرأة التى ليست بمحرم له فان أصحاب الشافعي مجمعون على أنه لايجوز بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرة أو مملوكة قال الشافعي وصاحب الجارية اذا جمع الناس لسماعها فهو سفية ترد شهادته وغلظ القول فيه وقال هو دياثة فمن فعل ذلك كان ديوثا وكان الشافعي يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن القرآن . وأما العود والطنبور وسائر الملاهي فحرام ومستمعه فاسق وقال صلى الله عليه وسلم (من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة الجاهلية) وهذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين لأنهم جعلوا الغناء دينا وطاعة ورأت اعلانه فى المساجد والجوامع وقد كان أولى الناس بالاحتياط لدينهم هذه الطائفة فانهم متلبسون بالدين ومدعون الورع والزهد حتى توافق بواطنهم ظواهرهم وقد قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ الآية قال الحسن ومجاهد والنخعي هو الغناء . وقال ابن مسعود لهو الحديث الغناء والاستماع اليه . وقوله تعالى ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قال مجاهد بالغناء والمزامير ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ قال أكثر المفسرين كل راكب وماش فى معصية الله فهو من خيل ابليس ورجله ﴿وشاركهم فى

الأموال والأولاد﴾ قال قوم كل مال أصيب من حرام وأنفق فى حرام . قال الطرطوشى رحمه الله ويجوز أن يقال مشاركته لنا فى الأموال والأولاد مايزينه لنا من الأيمان ثم يزين لنا الحنث فيها فنطأ الفروج بعد الحنث ونكتسب الأموال بالأيمان الكاذبة . وقال تعالى ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما سامدون هو الغناء بلغة حمير. وقال مجاهد هو الغناء لقول أهل اليمن سمد فلان اذا غنى . وروى أبو اسحاق ابن شعبان فى كتابه الزاهى باسناده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (لايحل بيع المغنيات ولاشراؤهن ولاالتجارة فيهن) زاد الترمذى ولا تعلموهن وأكل أثمانهن حرام وفيهن نزلت ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث﴾ زاد غيره (والذى بعثنى بالحق مارفع رجل عقيرته أى صوته بالغناء الابعث الله عز وجل عند ذلك شيطانين يرتدفان على منكبيه لايزالان يضربان بأرجلهما على صدره وأشار النبى صلى الله عليه وسلم الى صدره حتى يكون هو الذى يسكت) وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه سلم (كان ابليس أول من ناح وأول من غنى) وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (يمسخ قوم من أمتى آخر الزمان قردة وخنازير قالوا يارسول الله مسلمون هم قال نعم يشهدون أن لااله الاالله وأنى رسول الله ويصلون ويصومون قالوا يارسول الله فما بالهم قال اتخذوا المعازف والقينات والدفوف وشربوا هذه الأشربة فباتوا على شرابهم فأصبحوا وقد مسخوا) وروى على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء اذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وجفا أباه وبر صديقه وارتفعت الأصوات فى المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة

شره وشربت الخمور ولبس الحرير واتخذت القينات والمعازف ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء أوخسفا أومسخا) وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من أشراط الساعة أوالقيامة اضاعة الصلوات واتباع الشهوات وتكون أمراء خونة ووزراء فسقة فقال سلمان رضى الله عنه بأبي وأمى يارسول الله ان هذا كائن قال نعم ياسلمان عندها يكذب الصادق و يصدق الكاذب و يؤتمن الخائن ويخون المؤتمن ياسلمان عند ذلك يكون الكذب ظرفا والزكاة مغرما ان أذل الناس يومئذ المؤتمن يمشى بين أظهرهم بالمخافة يذوب قلبه فى جوفه كما يذوب الملح فى الماء هما و لا يستطيع أن يغير عندها ياسلمان يكون المطر قيظا والولد غيظا والفيء مغرما والمال دولا ياسلمان عند ذلك يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وتركب ذوات الفروج السروج فعليهم من أمتى لعنة الله ياسلمان عند ذلك يجفو الرجل والديه و يبر صديقه و يحتقر السيئة قال أو يكون ذلك يارسول الله قال نعم ياسلمان عند ذلك تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس والبيع وتطول المنابر وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة والألسن مختلفة دين أحدهم لعقة على لسانه ان أعطى شكر وان منع كفر قال أو يكون ذلك يارسول الله قال نعم ياسلمان عندها يغار على الغلام كما يغار على الجارية البكر ويخطب كما تخطب النساء قال أو يكون ذلك يارسول الله قال نعم ياسلمان عند ذلك تحلى ذكور أمتى بالذهب والفضة عند ذلك يأتى من المشرق والمغرب قوم يلون أمتى فويل لضعيفهم من قويهم وويل لهم من الله تعالى ياسلمان عند ذلك تحلى المصاحف بالذهب والفضة و يتخذون القرآن مزامير بأصواتهم و ينبذ كتاب الله وراء ظهورهم ياسلمان عند ذلك يكثر الربا و يظهر الزنا ويتهاون الناس بالدماء و لا يقام يومئذ بنصر الله ياسلمان تكثر القينات وتشارك المرأة زوجها فى

التجارة عند ذلك يرفع الحج فلاحج تحج أمراء الناس تنزها ولهواً وأواسطهم للتجارة وقراؤهم للرياء والسمعة وفقراؤهم للمسألة(١)) وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم (كسب المغني والمغنية حرام وكسب الزانية سحت وحق على الله أن لايدخل الجنة لحماً نبت من سحت) قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله رأيت جابر بن عبد الله رضي الله عنه وجابر بن عمير يرتميان فمل أحدهما فجلس فقال الآخر أجلست سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (كل شيء ليس من ذكر الله تعالى فهو لهو وسهو الا أربع خصال مشي الرجل بين الغرضين وتأديبه فرسه وملاعبته زوجته وتعليمه السباحة) قال قتادة رحمه الله لما أهبط ابليس لعنه الله قال يارب لعنتني فما علمي قال السحر قال فما قراءتي قال الشعر قال فما كتابتي قال الوشم قال فما طعامي قال كل ميتة ومالم يذكر اسم الله عليه قال فما شرابي قال كل مسكر قال فأين مسكني قال الأسواق قال فما صوتي قال المزامير قال فما مصائدي قال النساء وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب الدف ولعب الطبل وصوت المزمار. وروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (كبر مقتا عند الله الأكل من غير جوع والنوم من غير سهر والضحك من غير عجب والرنة عند المصيبة والمزمار) وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (اذا شرب العبد الماء على شبه المسكر كان ذلك الماء عليه حراما ولعن الله بيتاً فيه دف أو طنبور أو عود وأخشى عليهم العقوبة ساعة بعد ساعة) وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لست من ددولا ددمني) قال مالك رحمه الله الدد اللعب

(١) لايخفى ما في هذه الاحاديث من الاخبار بالمغيبات فقد حدث جل ما فيها ان لم يكن كله فنسأل الله السلامة من هذه الفتن بمنه وكرمه

واللهو . وقال الخليل بن أحمد فى كتاب العين الدد النقر بالأنامل فى الأرض فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم تبرأ مما ينقر فى الارض بالأنامل فما بالك بطقطقة القضيب . قال الحسن رحمه الله ليس الدف من سنة المسلمين. وروى عبدالله ابن عمر قال سأل انسان القاسم بن محمد عن الغناء قال أنهاك عنه وأكرهه لك قال أحرام هو قال انظر ياابن أخي اذا ميز الله بين الحق والباطل من أيهما يحصل الغناء . وقال الشعبي رحمه الله لعن الله المغني والمغنى له وقال الحكم بن عيينة رحمه الله حب السماع يورث النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع . وقال الفضيل ابن عياض الغناء رقية الزنا. وقال الضحاك الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب . و كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله الى مؤدب ولده ليكن أول مايعتقدون من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن فانه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن صوت المعازف واستماع الاغانى واللهو بها ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب على الماء . وقال يزيد بن الوليد يابنى أمية اياكم والغناء فانه يزيد الشهوة ويهدم المروءة وانه لينوب عن الخمر ويفعل مايفعل المسكر فان كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء داعية الزنا. وقال ابن الكاتب اياك والغناء .وقال المحاسبي فى رسالة الارشاد الغناء حرام كالميتة وقال أبو حصين رحمه الله اختصم الى شريح فى رجل كسر طنبورا فلم يقض فيه بشيء

﴿فصل﴾ وأما من جهة الاستنباط فهو جاسوس القلب وسارق المروءة والعقول يتغلغل فى مكامن القلوب ويطلع على سرائر الأفئدة ويدب الى بيت التخييل فيثير كل ماغرس فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة بينما ترى الرجل وعليه سمت الوقار وبهاء العقل وبهجة الايمان ووقار العلم كلامه حكمة وسكوته عبرة فاذا سمع اللهو نقص عقله وحياؤه وذهبت مروءته

وبهاؤه فيستحسن ماكان قبل السماع يستقبحه ويبدى من أسراره ماكان يكتمه وينتقل من بهاء السكوت الى كثرة الكلام والكذب والازدهاء والفرقعة بالأصابع ويميل رأسه ويهز منكبيه ويدق الارض برجليه وهكذا تفعل الخمرة اذامالت بشاربها . وقد روى أن أعرابية دخلت الحاضرة فسقيت نبيذا فلما خامرها وصحت قالت أو يشرب هذا نساؤكم قالوا نعم قالت لئن صدقتم فما يعرف أحدكم من أبوه . وقال محمد بن المنكدر رحمه الله اذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم عن اللهو ومزامير الشيطان أسكنوهم رياض المسك ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدى وثنائى وأعلموهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . وقال بعض الزهاد الغناء يورث العناد فى قوم ويورث التكذيب فى قوم ويورث الفساد فى قوم . واحتج بعضهم على اباحة الغناء بما روى عن عائشه رضى الله عنها أنها قالت (دخل على أبو بكر رضى الله عنه وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تفاءلت به الأنصار يوم بعاث فقال أبو بكر رضى الله عنه أمزمار الشيطان فى بيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعهما ياأبا بكر فان لكل قوم عيدا وهذا عيدنا) والجواب عنه أن تعرف أولا حقيقة الغناء وذلك أن للفظ الغناء معنيين لغوى وعرفى فيحمل الحديث على اللغوى فقولها تغنيان أى ترفعان أصواتهما بانشاد الشعر ونحن لانذم انشاد الشعر ولا نحرمه وانما يصير الشعر غناء مذموما اذا لحن وصنع صنعة تورث الطرب وتزعج القلب وهى الشهوة الطبيعية وليس كل من رفع صوته بالغناء لحن وألذ وأطرب فالممنوع والمكروه انما هو اللذيذ المطرب ولم يعقل من هذا الحديث أن صوتهما كان لذيذا مطربا وهذا هو سر المسألة فافهمه . وقد روى البخارى هذا الحديث عن عائشه رضى الله عنها قالت فى آخره وليستا بمغنيتين فنفت الغناء عنهما والدليل على هذا

أنه مانقل عنها بعد بلوغها الا ذم الغناء والمعازف على مابينا . وقد كان ابن أخيها القاسم بن محمد وهو أحد فقهاء المدينة السبعة يذم الغناء وقد أخذ العلم عنها وتأدب بها . فان قيل أليس قد أنشد الشعر بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم فالجواب أنا لاننكر انشاد الشعر وانما ننكر اذا لحن وصنع صنعة تورث الطرب وتزعج القلب وهذا لايمكن نقله عن النبي صلى الله عليه وسلم. فان قيل أليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم (ان من البيان سحرا وان من العلم جهلا وان من الشعر حكما وان من القول عيالا) فالجواب أن صعصعة بن صوحان وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسر هذا الحديث فقال قوله ان من البيان سحرا هو الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بحجته من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فذهب بالحق وأما قوله وان من الشعر حكما فهى هذه المواعظ والأمثال التى يتعظ بها الناس وأما قوله وان من العلم جهلا فيتكلف العالم علم مالا يعلم فيجهل ذلك وأما قوله وان من القول عيالا فعرضك حديثك على من ليس من شأنه ولا يريده

﴿ فصـــــل ﴾ وقد قال بعضهم نحن لانسمع الغناء بالطبع الذى يشترك فيه الخاص والعام وانما نسمع بحق فنسمع بالله وفى الله ولا نتصف بهذه الأحوال التى هى ممزوجة بحظوظ البشرية . قلنا ان زعمت أنك فارقت طبع البشرية وصرت مطبوعاً على العقل والبصيرة بمنزلة الملائكة فقد كذبت على طبعك وكذبت على الله فى تركيبك وماوصفك به من حب الشهوات. وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من فارق الفه وادعى العصمة فاجلدوه فانه مفتر كذاب وكان يجب أن لاتكون مجاهداً لنفسك ولا مخالفاً لهواك ولا يكون لك ثواب على ترك اللذات والشهوات . وكان يجب أن تكون أنت وأصحابك تسبحون الليل والنهار لا تفترون وتستغفرون لمن فى الأرض . وكان يجب أن تبيح سماع العود

والطنبور وسائر الملاهي بهذا الطبع الذي لايشاركك فيه أحد من الناس

﴿ فصـــل ﴾ فان قيل أليس قد روى عن جماعة من الصالحين أنهم سمعوه قلنا مابلغنا أن أحدا من السلف الصالح سمعه ولا فعله وهذه مصنفات أئمة الدين وعلماء المسلمين مثل مصنف مالك بن أنس وصحيح البخارى ومسلم وسنن أبي داود وكتاب النسائي رضي الله عنهم الى غيرها خالية من دعواكم وهذه تصانيف فقهاء المسلمين الذى تدور عليهم الفتوى قديما وحديثا فى شرق البلاد وغربها فقد صنف المسلمون على مذهب مالك بن أنس تصانيف لاتحصى وكذلك مصنفات علماء المسلمين على مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من فقهاء المسلمين وكلها مشحونة بالذب عن الغناء وتفسيق أهله فان كان فعله أحد من المتأخرين فقد أخطأ ولا يلزمنا الاقتداء بقوله ونترك الاقتداء بالائمة الراشدين . ومن ههنا زل من لابصيرة له . نحتج عليهم بالصحابة والتابعين وعلماء المسلمين ويحتجون علينا بالمتأخرين سيما وكل من يرى هذا الرأى الفاسد عار من الفقه عاطل من العلم لا يعرف مأخذ الأحكام ولا يفصل الحلال من الحرام ولايدرس العلم ولا يصحب أهله ولا يقرأ مصنفاته ودواوينه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (مااسترذل الله عبداً الا حظر عليه العلم) فمن هجر أهل الفقه والحكمة وانقضى عمره فى مخالطة أهل اللهو والبطالة كيف يؤمن على هذه المسئلة وغيرها ﴿وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾ فيامن رضى لدينه ودنياه وتوثق لآخرته ومثواه باختيار مالك بن أنس وفتواه ان كنت على مذهبه وباختيار أبي حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل ان كنت ترى رأيهم كيف هجرت اختيارهم فى هذه المسألة وجعلت امامك فيها شهواتك وبلوغ أوطارك ولذاتك ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾

﴿فصـــل﴾ وقد روى عن بعض شيوخ الصوفية قال رأيت فى المنام أن الحق أوقفنى بين يديه وقال ياأحمد حملت وصفى على ليلى وسعدى لولا أنى نظرت اليك فى مقام واحد أردتنى خالصا لعذبتك قال فأقامنى من وراء حجاب الخوف فأرعدت وفزعت ماشاء الله ثم أقامنى من وراء حجاب الرضا فقلت ياسيدى لم أجد من يحملنى غيرك فطرحت نفسى عليك فقال صدقت من أين تجد من يحملك غيرى وأمر بى الى الجنة . وقال الجنيد رحمه الله رأيت ابليس فى النوم فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشىء أو تنال منهم نصيبا فقال انه ليعسر على شأنهم و يعظم على أن أصيب منهم شيئاً الا فى وقتين وقت السماع وعند النظر فانى أنال منهم فتنة وأدخـل عليهم به . وسئل أبو على الروذبارى عن السماع وكان من شيوخ الصوفية فقـال ليتنا تخلصنا منه رأسا برأس . وقال الجنيد اذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطـالة . وقال أبو الحارث الاولاسى وكان من الصوفية رأيت ابليس فى المنام وكان على بعض سطوح أولاس وعن يمينه جماعة وعن يساره جماعة وعليهم ثياب نظيفة فقال لطائفة منهم قوموا وغنوا فقاموا وغنوا فاستفزعنى طيبه حتى هممت أن أطرح نفسى من السطح ثم قال ارقصوا فرقصوا بأطيب مايكون ثم قال ياأبا الحارث ماأصيب شيئاً أدخل به عليكم الا هذا . وقال الجريرى رأيت الجنيد رحمه الله فى النوم فقلت كيف حالك ياأبا القاسم فقال طاحت تلك الاشارات و بادت تلك العبارات ومانفعنا الا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات . فأين هذا يرحمك الله مما وصف الله به العلماء فقال ﴿ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾

﴿فصـــل﴾ وقد استدل عظيم من شيوخهم على اباحة الغناء فقال ان

الطفل يسكن الى الصوت الطيب والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمول اذا سمع الحداء . قال وقد روى أن بعض ملوك العجم مات وخلف ابنا صغيرا فأرادوا أن يبايعوه فقالوا كيف نصل الى عقله وذكائه فاتفقوا على أن يأتوا بقوال فان أحسن الاصغاء علموا كياسته فلما أسمعوه القوال ضحك الرضيع فقبلوا الأرض بين يديه وبايعوه . فالجواب انظروا ياذوى الألباب كيف قادهم ركوب الهوى وعشق الباطل وقلة الحيلة الى هذه السخافة وحسبك من مذهب امامهم فيه الأنعام والصبيان فى المهد . وهكذا يفضح الله تعالى من اتبع الباطل وحسبك من عقول لاتقتدى بأحبار المسلمين وعلمائهم وتقتدى بالابل فائن كان كل ماطربت به البهائم مندوبا أومباحا فانا نرى البهيمة تدور على أمها وأختها وتركب بنتها فيلزم الاقتداء بالبهيمة فى مثل هذا

﴿فصل﴾ فان سألوا عن معنى قراءة القرآن بالألحان . فالجواب أن مالكا قال ولاتعجبنى القراءة بالالحان ولاأحبه فى رمضان ولاغيره لانه يشبه الغناء ويضحك بالقرآن فيقال فلان أقرأ من فلان . قال وبلغنى أن الجوارى يعلمن ذلك كما يعلمن الغناء . أين هذا من القراءة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بها . قال ولايعجبنى النبر والهمز يقول لايرجع فى القرآن ولايقطع بالألحان لان ذلك لايتم الا بزيادة همزات فى القرآن والزيادة فى القرآن لاتجوز . وقيل لمالك هل يقرأ الرجل فى الطرقات قال لا الا الشىء اليسير وأما الذى يديم ذلك فلا يجوز. قيل له فالرجل يخرج الى السوق أيقرأ فى نفسه ماشيا فقال أكره أن يقرأ فى السوق . وسئل عن القراءة فى الحمام قال ليس موضع قراءة وان قرأ الانسان الآية فلا بأس بذلك . قيل له فالرجل يخرج الى قريته فيقرأ ماشيا قال نعم . قال سحنون لابأس أن يقرأ الراكب والمضطجع وسئل عن الرجل يختم القرآن فى ليلة قال ماأجود ذلك لمن أطاقه . قال مالك

ولم تكن القراءة فى المصحف فى المسجد من أمر الناس القديم وأول من أحدثه الحجاج . قال وأكره أن يقرأ فى المصحف فى المسجد . فان سألوا عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (ماأذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به) فالمعنى مااستمع الله لشيء كاستماعه لنبي يجهر بالقرآن لان أصل الغناء رفع الصوت على ما بينا وبهذا فسره فى آخر الخبر فقال يجهر به . قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ أى سمعت . قال أبو عبيد وجماعة من العلماء لايجوز تلحين القرآن وانما معنى الحديث التحبير والتحزين . قال عيسى الغفارى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أشراط الساعة فقال (بيع الحكم وقطيعة الرحم والاستخفاف بالدم وكثرة الشرط وأن يتخذ القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا بأفضلهم الا ليغنيهم غناء) فان سألوا عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم (زينوا القرآن بأصواتكم) فان معناه التحزين . قال شعبة نهانى أيوب أن أتحدث بهذا الحديث مخافة أن يتأول على غير وجهه . وهذا الجواب عما رواه عبد الله بن مغفل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الفتح فقال لولا أن يجتمع الناس علينا لحكيت تلك القراءة وقد رجع . وان سألوا عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) قال سفيان بن عيينة معناه ليس منا من لم يستغن به يعنى بالقرآن وهكذا فسره أبو عبيد فقال معنى الحديث لاينبغى لحامل القرآن أن يرى أحدا (من أهل الأرض أغنى منه ولو ملك الدنيا كلها . وقال النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم صغيراً أوصغر عظيما) . وقال ابن مسعود نعم كنز الصعلوك آل عمران يقوم بها من آخر الليل . والدليل على أن التغنى بمعنى الاستغناء دون الصوت قول الأعشى

وكنت امرأ زمنا بالعراق   عفيف المنام طويل التغنى

قال أبو عبيد يريد الاستغناء . والعرب تقول تغنيت تغنيا وتغانيت تغانيا بمعنى استغنيت قال بعض العرب يعاتب أخاه

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن اذا متنا أشد تغانيا

وقال الكسائى مررت على عجوز من العرب قد اعتقلت شاة فى بيتها فقلت لها ماتريدين بهذه الشاة قالت نتغنى بها ياهذا نريد نستغنى . وقال بعض الصالحين من تلذذ بالحان القرآن حرم فهم القرآن . وقال أبو هريرة أنتم أقرأ ألسنة ونحن أقرأ قلوبا . وقال ابن مسعود نحن قوم ثقلت علينا قراءة القرآن وخف علينا العمل به وسيجىء قوم يخف عليهم قراءة القرآن ويثقل عليهم العمل به . وقال كعب الاحبار ليقرأن رجال القرآن هم أحسن أصواتا من المعازف ومن حداة الابل لاينظر الله اليهم يوم القيامة . وقد أمعن وأجاد الشيخ الامام الحافظ الجليل أبو عبد الله القرطبي رحمه الله فى هذا الموضع وبينه أتم بيان وأحسنه فى كتاب التفسير له فمن أراده فليقف عليه هناك اذ أن هذا الكتاب يضيق عما أتى به وما ذكر انما هو اشارة لأولى الألباب والله الموفق للصواب

﴿فصـــل﴾ ثم قال الطرطوشى رحمه الله ومما اشتهرت به هذه الطائفة اتباع الشهوات والتنافس فى ألوان الأطعمة . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فان كان لامحالة فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس) قال أبو جحيفة أكلت ثريدا بلحم سمين فتجشيت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال اكفف عنا جشاءك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا . وروى أن فاطمة رضى الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الكسرة قالت قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال أما انه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام . وقال يحي بن معاذ لو أن الجوع

يباع فى الأسواق لما كان ينبغى لطلاب الآخرة أن يشتروا غيره . وقال الشافعى رحمه الله ماشبعت منذ خمسة عشر عاما الا شبعة فطرحتها لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة . وقال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله لما خلق الله سبحانه وتعالى الدنيا جعل فى الشبع القسوة والجهل وجعل فى الجوع العلم والحكمة . وقال بشر بن الحارث رحمه الله الجوع يصفى الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله الجوع للمريدين رياضة وللتائبين تجربة وللزهاد سياسة وللعارفين مكرمة . وسئل الجنيد رحمه الله عن صفة الصوفية فقال طعامهم طعام المرضى ونومهم نوم الغرقى . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله نعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغنياء . وقال رجل لبعض المشايخ رحمهم الله انى جائع فقال كذبت قال ومن أين علمت قال لأن الجوع فى خزائنه الوثيقة لا يطلع عليها من يفشى سره ولا يعطاه من لا يشكره . وروى أن بعض الفقراء اشتكى الى شيخه الجوع ثم ذهب فرأى درهما مطروحا مكتوبا عليه أما كان الله عالما بجوعك حتى قلت انى جائع . وقال فتح الموصلى رحمه الله أوصانى ثلاثون شيخا عند فراقى لهم بترك عشرة الأحداث وقلة الأكل . ويروى عن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على ابن عون فى الحبس واذا عمال بنى أمية مقيدون فى الحديد فحضر غداؤهم فجعل الخدم ينقلون الألوان فقالوا هلم ياأبا يحيى فقال ماأحب أن آكل مثل هذا الطعام وأن يوضع فى رجلى مثل هذا الحديد . وقال أبو هريرة رضى الله عنه خرج النبى صلى الله عليه وسلم فلقيه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فقال ماأخرجكما فقالا الجوع فقال وأنا والذى بعثنى بالحق ماأخرجنى الا الذى أخرجكما قوموا فأتوا بيتا من الأنصار واذا الرجل غائب فقالت امرأته مرحبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم أين فلان قالت خرج يستعذب لنا من الماء واذا بالرجل وعليه

قربة ماء فلما نظر الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ماأجد من الناس اليوم أكرم أضيافا مني فأتاهم بعذق من رطب و بسر وتمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا اجتنيته فقال يارسول الله تخيروا على أعينكم ثم أخذ المدية فقال النبي صلى الله عليه وسلم اياك والحلوب فذبح لهم شاة فأكلوا وشربوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم و فى لفظ عن هذا النعيم

﴿فصـــــل﴾ ويقال أن هذه الطائفة تضيف الى ماهي فيه من الباطل استحضار المرد فى مجالسهم والنظر فى وجوههم وربما زينوهم بالحلى والمصبغات من الثياب وتزعم أنها تقصد بذلك الاستدلال بالصنعة على الصانع. قال الأستاذ القشيرى رحمه الله وهو من رؤساء طائفتهم قولا عظيما فى الرد عليهم وكشف فضائحهم. من ابتلاه الله بشئ من ذلك فهو عبد أهانه الله وخذله وكشف عورته وأبدى سوأته فى العاجل وله عند الله سوء المنقلب فى الآجل. وروى أبو داود فى السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من خبب زوجة امرىء أو مملوكه فليس منا) خبب أى أفسد وخدع وأصله من الخب وهو الخدع ويقال فلان خب هب اذا كان فاسدا مفسدا. قال الواسطى رحمه الله وهو من كبار الصوفية اذا أراد الله هوان عبد ألقاه الى هؤلاء الأنتان الجيف أولم تسمعوا الى قول الله تعالى ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه (لاتتبع النظرة النظرة فانما لك الأولى وليست لك الآخرة) وقال بقية ابن الوليد رحمه الله قال بعض التابعين رضى الله عنه كانوا يكرهون أن يحدق الرجل النظر الى الغلام الأمرد الجميل الوجه. قال ابن عباس رضى الله عنهما للشيطان من الرجل ثلاثة منازل فى نظره وقلبه وذكره. وقال عطاء رحمه الله كل نظرة يهواها القلب لاخير فيها. وقال سفيان الثورى رحمه الله لو أن رجلا عبث بغلام بين أصابع

رجليه يريد الشهوة لكان لواطاً. وقال الحسن بن ذكوان رحمه الله لاتجالسوا أبناء الأغنياء فان لهم صورا كصور النساء وهم أشد فتنة من العذارى. وقال بعض التابعين ماأخاف على الشاب الناسك فى عبادته من سبع ضار كخوفى عليه من الغلام الامرد يقعد اليه. وقال بعض التابعين رضى الله عنهم اللوطية على ثلاثة أصناف صنف ينظرون وصنف يصافحون وصنف يعملون ذلك العمل وروى أن أحمد بن حنبل رحمه الله جاء اليه رجل ومعه ابن له حسن الوجه فقال لاتجئنى به مرة أخرى فقيل له انه ابنه وهما مستوران فقال علمت ولكن على رأى أشياخنا. وكان محمد بن الحسن صاحب يحيى بن معين لم يرفع رأسه الى السماء أربعين سنة فجاءه غلام حدث ليجلس اليه فأجلسه من خلفه. فأما إتيان الذكور فهى الفاحشة العظمى وهو محرم مغلظ التحريم. قال الله تعالى ﴿أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ قال مالك ويرجم الفاعل والمفعول به أحصنا أولم يحصنا وبه قال ربيعة وأحمد ابن حنبل واسحاق. وقال الحسن البصرى وعطاء والنخعى وقتادة والأوزاعى وأبو يوسف ومحمد هو كالزنا ان كان بكرا يحد وان كان ثيبا يرجم ولا فرق بين أن يفعله مع غلام أو امرأة أجنبية والحجة لمالك أن النبى صلى الله عليه وسلم (قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) وأيضا فان الله تعالى رجمهم بالحجارة فقال تعالى ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ الآية وروى أن أبا بكر استشار الصحابة رضوان الله عليهم فى رجل كان ينكح كما تنكح المرأة فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه أرى أن يحرق فكتب أبو بكر رضى الله عنه الى خالد بن الوليد رضى الله عنه فأحرقه بالنار. وروى عنه أيضا أنه قال يرجم اللوطى. وقال ابن عباس رضى الله عنهما يرمى من شاهق جبل أعلى مافى البلد منكسا ثم يتبع بالحجارة. ويروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه

أنه قال يهدم عليه البيت . وقال عثمان رضى الله عنه يقتل . وروى أن قوم لوط كانت فيهم عشر خصال أهلكهم الله تعالى بها كانوا يتغوطون فى الطرقات وتحت الآشجار المثمرة وفى الأنهار الجارية وفى شطوط الأنهار وكانوا يحذفون الناس بالحصباء فيعورونهم واذا اجتمعوا فى المجالس أظهروا المنكر وأخراج الريح منهم واللطم على رقابهم وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا ويأتون بالطامة الكبرى وهى اللواط . قال الله تعالى ﴿أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر﴾ والنادى المجالس والمحافل . ومن ارتقى فى هذا الباب عن حالة الفسوق وأشار الى أن ذلك من باب بلاء الزواج وانه لا يضر فهذه وساوس الشيطان وادعاء العصمة وهو الكفر ونظير الشرك فاحذر مجالستهم فان اليسير منه فتح باب الخذلان وادخال الهجران بينك وبين الحق ثم يقال وهبك أيها المغرور قد بلغت رتبة الشهداء أليس قد شغلت ذلك القلب بمخلوق . وفى الحديث (يقول الله تعالى حرام على قلب سكنه حب غيرى أن أسكنه حبى) وأما قولهم انهم يستدلون بالصنعة على الصانع فنهاية فى سعاية الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم . قال الله تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ الهه هواه﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما الهوى شر اله يعبد من دون الله . قال الله تعالى فى فى باب الاعتبار ﴿أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت﴾ . وقال تعالى ﴿أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن﴾ وقال جل وعلا ﴿ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس﴾ الآية وقال تعالى ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ الآية. وقال تعالى ﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ فعدلوا عما أمرهم الله به من الاعتبار الى مانهاهم عنه

بقوله ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ الآية

﴿فصــــل﴾ وأما الدف والرقص بالرجل وكشف الرأس وتخريق الثياب فلا يخفى على ذى لب انه لعب وسخف ونبذ للمروءة والوقار ولما كان عليه الأنبياء والصالحون . روى أهل التفسير عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حلم وحياء وصبر وامانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن(١) فيه الحرم يتواصون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب . قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم لين الجانب سهل الخلق دائم البشر ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح يتغافل عما لا يشتهى قد ترك نفسه من ثلاث المراء والاكثار ومالا يعنيه وترك الناس من ثلاث كان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم الا فيما رجا ثوابه واذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير فاذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث ومن تكلم انصتوا له حتى يفرغ يعنى يسكتون ويغضون أبصارهم والطير لا يسقط الا على ساكن انتهى كلامه . ولو لم يكن فى السماع والرقص شئ يذم الا أنه أول من أحدثه بنو اسرائيل حين اتخذوا العجل الها من دون الله تعالى فجعلوا يغنون بين يديه ويصفقون ويرقصون فبقى حالهم كذلك الى أن جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام ووقع من قصتهم ماقد ذكره الله تعالى فى كتابه فهم أصل لما ذكر وما كان هذا أصله فينبغى بل يتعين على كل عاقل أن يهرب منه ويولى الظهر عنه ان كان عاجزا عن تغييره وأما ان كان له قدرة على ذلك فيتعين عليه والله الموفق . وقد قال عليه الصلاة والسلام (حبب الى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة) قال الامام الطرطوشى رحمه

(١) لا تؤبن فيه الحرم أى لا تذكر بما لا ينبغى

الله هؤلاء زعموا أن قرة أعينهم فى الغناء واللهو والنظر فى وجوه المرد

﴿فصـــل﴾ وقال رحمه الله وأما تمزيق الثياب فهو يجمع الى مافيه من السخافة افساد المـال. روى أن النبي صلى الله عليه وسلم (نهى عن قيل وقال واضاعة المـال وكثرة السؤال). وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه (مر النبي صلى الله عليه وسلم بشاة ميتة أعطيتها مولاة لميمونة من الصدقة فقال هلا انتفعتم باهابها فقالوا أنها ميتة قال انمـا حرم أكلها). قال العلمـاء ويحجر على السفهاء وهم المبذرون لأموالهم ومافى السفه أعظم من تمزيق الثياب. وقال أنس رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف بالبيت وعليه جبة صوف فيها اثنتاعشرة رقعة واحدة منها من أديم أحمر. وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انقطع شسع نعله فقال انالله وانا اليه راجعون. ومن أمثالهم من أصلح ماله فقد صان الأكرمين دينه وعرضه وتمزيق الثياب داخل فى قوله تعالى لابليس ﴿وشاركهم فى الأموال والأولاد﴾ واذا كان الكسب خبيثا كان مآله الى مثله انتهى كلام الطرطوشى رحمـه الله

﴿فصـــل﴾ وقال الشيخ أبو عبد الله القرطبي رحمه الله فى تفسيره فى قوله تعالى ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث﴾ سئل عبدالله بن مسعود عن قوله تعالى ومن الناس من يشترى لهو الحديث فقال الغناء والله الذى لا اله الا هو يرددها ثلاث مرات وعن ابن عمر هو الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن ابراهيم قال قال عبدالله بن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب. وقال مجاهد وزاد أن لهو الحديث المعازف والغناء. وقال القاسم بن محمـد الغناء باطل والباطل فى النار. وقال ابن القاسم سألت عنه مالكا فقال قال الله تعالى ﴿فماذا بعد الحق الا الضلال﴾ أفحق هو. وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال صوتان ملعونان فاجران انهى عنهما صوت مزمار ورنة شيطان عند نعمة وفرح ورنة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب . وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن جده عن علي رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بعثت بكسر المزامير) خرجه أبو طالب الغيلاني . وخرج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (بعثت بهدم المزامير والطبل) . وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من جلس الى قينة يسمع منها صب فى أذنيه الآنك (١) يوم القيامة) . وقد روى مرفوعا من حديث أبي موسى الأشعرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من استمع الى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين فقيل وما الروحانيون يارسول الله قال قراء أهل الجنة) خرجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول . ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه) . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به الذى يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل والمجون الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن فهذا النوع اذا كان فى شعر يشبب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرمات لايختلف فى تحريمه لأنه اللهو والغناء المذموم باتفاق فأما من سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح كالعرس والعيد وعند النشاط على الأعمال الشاقة كما كان فى حفر الخندق . فأما ماابتدعه الصوفية اليوم من الادمان على سماع الاغانى بالآلات المطربة من الشبابة والطار والمعازف والاوتار فحرام . قال ابن العربى فأما طبل الحرب فلاحرج فيه لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو . وذكر أبو الطيب طاهر

(١) الآنك بالمد وضم النون خالص الرصاص

ابن عبد الله الطبري قال أما مالك ابن أنس فانه نهى الغناء وعن استماعه وقال اذا اشترى جارية و وجدها مغنية كان له ردها بالعيب وهو مذهب سائر أهل المدينة . قال النحاس وهو ممنوع بالكتاب والسنة . قال الطبري وقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه . قال أبو الفرج بن الجوزي وقد قال القفال من أصحابنا لاتقبل شهادة المغني والرقاص . قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله واذ قد ثبت أن هذا الأمر لايجوز فأخذ الاجرة عليه لايجوز . وقد ادعى أبو عمر بن عبد البر الاجماع على تحريم الاجرة على ذلك . وذكر القرطبي أيضا في سورة سبحان في قوله تعالى ﴿ و لاتمش في الأرض مرحا ﴾ قال استدل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه . قال الامام أبو الوفاء بن عقيل قد نص القرآن على النهي عن الرقص فقال ﴿ و لاتمش في الأرض مرحا ﴾ وذم المختال والراقص أشد والمرح الفرح أولسنا قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الطرب والسكر فما بالنا لانقيس القضيب وتلحين الشعر معه على الطنبور والطبل لاجتماعهما فما أقبح ذا الحية سيما اذا كان ذا شيبة يرقص و يصفق على توقيع الألحان والقضبان خصوصاً اذا كانت أصوات نسوان و ولدان وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ثم مآله الى احدى الدارين يشمس بالرقص شموس البهائم و يصفق تصفيق النسوة والله لقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سن من التبسم فضلا عن الضحك مع ادمان مخالطتي لهم . وقال أبو الفرج بن الجوزي ولقد حدثني بعض المشايخ عن الغزالي أنه قال حماقة لاتزول الا باللعب . وذكر القرطبي أيضا في قوله تعالى ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال في الآية مايدل على تحريم المزامير والغناء واللهو لقوله تعالى واستفزز من استطعت منهم بصوتك على قول مجاهد وما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التنزه عنه

﴿ فصـــــل ﴾ وقد حكى عن امام هذه الطريقة وهو الشيخ الجنيد رحمه الله

أنه سئل لحضور السماع فأبى ثم سئل فأبى فقيل له ألست كنت تحضره قال مع من وممن وقد حكى عن غيره من الأكابر أنه سئل لحضور السماع فأبى فقيل له أتنكر السماع قال ومثلى ينكره وقد فعله من هو خير منى ومنكم عبدالله بن جعفر الطيار. وانما أنكر ماأحدث فيه. وهذا كما قد سبق من أن الغناء هو رفع الصوت بالشعر فحضره هذا السيد لما أن كان كذلك فلما أن حدث فيه ماحدث تركه. وهذا أيضاً موافق لكلام الجنيد فى قوله مع من وممن لما تقدم عنه رحمه الله ان القوال هو شيخ الجماعة الذى منه يستمدون وبه يقتدون ولاشك أن هذه الصفة بعيدة من سماع هذا الزمان لما احتوى عليه مما لاينبغى كما هو مشاهد مرئى وقد وقعت الاشارة لبعضه .وهذا مع مافيه مما تقدم ذكره قل أن يسلم من حضور النساء فى المواضع المشرفة عليه من سطح أو غيره وسماعهن الأشعار المهيجة للفتنة والشهوات والمذوذات فان ذلك يحرك عليهن ساكنا لما تقدم من أن الغناء رقية الزنا وهن ناقصات عقل ودين سيما اذا انضاف الى ذلك أن يكون لهن طريق الى التوصل الى الرجال أوالرجال اليهن فأعظم فتنة وبلية سيما اذا انضاف اليه أن يكون المغنى شابا حسن الصورة والصوت ويسلك مسلك المغنيات فى تكسيرهم وسوء تقلباتهم فى تلك الحركات المذمومة مع ماهو عليه من الزينة بلباس الحرير والرفيع من غيره وبعضهم يبالغ فى أسباب الفتنة فيتقلد بالعنبر بين ثيابه لتشم رائحته منه ويجعل على رأسه فوطة من حرير لها حواش عريضة ملونة يصففها على جبهته ولهم فى استجلاب الفتن بمثل هذا أمور يطول ذكرها. ثم العجب من هذا المسكين الذى عمل السماع لهم وجمعهم له كيف يطيب خاطره أو يسكن باطنه برؤية أهله لما ذكر اذ أن ذلك كله فتنة عظيمة قل من يسلم عند سماعها أو رؤيتها فانا لله وانا اليه راجعون أين غيرة الاسلام أين نجدة الرجال السادة الكرام أين الهمم العالية العفيفة عن الحرام أين اتباع السلف الاعلام

فتحصل مما تقدم ذكره أن كل من حضر السماع من الرجال والشبان ومن اطلع عليه من النساء أو سمعهم افتتن وقل أن يرضى بما عنده من الحلال غالبا فتتشوف نفوسهم الى ارتكاب المحرمات فمنهم من يصل الى غرضه الخسيس وهى البلية العظمى ومنهم من لايقدر على ذلك لقلة ذات يده أو غيره من العوائق المانعة له فيكون آثما فى قصده ولو وقف الأمر على ماذكر لرجيت لهم التوبة والاقلاع والاقالة مما وقعوا فيه لكن البلية العظمى ان كثيرا منهم يتدينون بذلك و يعتقدون به القربة الى الله عز وجل سيما ان عملوه بسبب المولد فهو أعظم فى الفتنة لأنهم يعتقدون أنهم فى أكبر الطاعات واظهار شعائر الدين وتعطى هذه القاعدة التى انتحلوها أنهم أعرف بالشعائر من سلفهم نعوذ بالله من المحن والفتن ومن الابتداع وترك الاتباع . وبالجملة ففتنته أكثر من أن تحصر وهذا مع مافيه من اضاعة المال والرياء والسمعة لو قيل لاحدهم تصدق ببعض ماتنفقه فيه على المضطرين المحتاجين سرى الشح بذلك وبخل وماذلك الا لوجوه. الوجه الأول خبث الكسب غالبا لان المال الذى يتحصل من وجه خبيث لايخرج الافى وجه خبيث مثله بذلك جرت الحكمة. الثانى ايثار الشهوات والملذات. الثالث الرياء والسمعة. الرابع محبة الثناء والمحمدة والقيل والقال كما تقدم. الخامس محبة النفوس فى الظهور على الأقران. السادسة ان صدقة السر خالصة للرب عز وجل فلا يقدر عليها الا ذو حزم ومروءة واخلاص فالسعيد السعيد من تمسك بنور الشريعة وسلك منهاجها وشد يده عليها وترك كل ما أحدثه المحدثون وعمل على خلاص مهجته وأهله و ولده ولا خلاص الا بالاتباع وترك الابتداع سلك الله بنا الطريق الأرشد انه ولى ذلك والقادر عليه بمحمد وآله

﴿فصـــل﴾ وقد تقدم فى أول الكتاب أن تصرف المكلف لم يبق الا فى قسمين وهما الوجوب والندب فاذا كان هذا فى حق غير الفقير المنقطع فما

بالك بالفقير المنقطع المتوجه الى ربه الذى ترك الدنيا وشهواتها وملذوذاتها خلف ظهره فهو أولى وأوجب بالمطالبة بالاتباع وترك الابتداع أكثر من غيره واذا كان ذلك كذلك فالسماع اذا سلم بما تقدم ذكره لم يدخل فى باب الواجب والمندوب بدليل ماتقدم عن الجنيد رحمه الله حيث قال لا يصير السماع مباحا الا بعشرة شروط وقد تقدم أكثرها والفقير أولى بل أوجب أن يحتاط لنفسه ويتقى مواضع الريب ويسد عن نفسه أبواب المفاسد كلها فانه شبيه بالعالم فى الاقتداء به فصلاحه يتعدى لغيره وفساده كذلك فيتعين عليه أن يحفظ مهجته ومهجة غيره من المسلمين بالنهوض الى مايجب عليه أو يندب اليه ويترك ماعدا ذلك ويعرض عنه والله المستعان

﴿ فصـــل ﴾ وينبغى له أن يصون حرمة الخرقة التى ينسب اليها بترك الوقوف على أبواب أبناء الدنيا ومخالطتهم والتعرف بهم وقد تقدم قبح ذلك فى حق العالم ففى حق الفقير أولى وأحرى اذ أنه أقبل على طريق الآخرة وترك الدنيا وأهلها فوقوفه على أبواب من تقدم ذكرهم نقيض طريقه ومقصده بل ينقطع عنهم ظاهراً وباطنا أعنى أنه لاينقطع فى خلوته وقلبه متعلق بغيرما هو فيه فان تعلق خاطره بشئ من ذلك فهو منهم وان كان لم يدخل معهم فى الظاهر ولم يكثرهم . ألا ترى أنهم قد قالوا اذا رأيت الأمير على باب الفقير فاتهم الفقير لأنه ماجاء الا لنسبة حصلت فى الفقير من أجل مايتعاطونه من أمور الدنيا ولأجل ذلك جاء الأمير لحصول الجنسية أو كما قالوا . وقد يكون الفقير لايشعر بما أوجب ذلك فى حقه . حتى لقد حكى عن بعضهم أنه كان لايمر له خاطر فى الدنيا ثم حصل له فى بعض الأيام التفات اليها واذا بجندى يدق الباب فدخل اليه وجلس يتحدث معه فى الدنيا فرجع الشيخ الى نفسه وقال هذه عقوبة من الله من أين أتيت واذا هو قد ذكر الخاطر الذى مر به فتاب

الى تعالى وأقلع عنه وإذا بالجندى قد قام وخرج من حينه . فهذه كانت أحوالهم وسيرتهم الحسنة وهم قدوة لمن بعدهم ممن يتمسك بطريقهم أسأل الله أن لا يخالف بنا عن حالهم . ومع وهذا فلا تنكر الاجتماع بهم أعنى اذا جاءوا الى الفقير راغبين فقد وردت السنة بحسن البشاشة عند اللقاء والأخذ مع المضطرين والمساكين فيما نزل بهم ولاشك أن احتياج ابناء الدنيا للمريد وخطره أعظم من احتياج غيرهم من الفقراء والمساكين الى المريد المنقطع الى ربه عز وجل لأن الفقير المسكين أقرب الى ربه سبحانه وتعالى اذهو فى حالة الاضطرار والمسكنة عليه ظاهرة بخلاف أبناء الدنيا لأن الغالب عليهم الشرود عن باب ربهم لأجل تعلقهم بمن هو فوقهم أو من هو مثلهم من ابناء الدنيا فيحتاج المريد اذا أتوا اليه أن يباسطهم لكى يتوصل بذلك الى موعظتهم وسياسة اخلاقهم ليسرق طباعهم بالرفق والتيسير وعدم التنفير قاصدا بذلك وقوفهم بباب ربهم وارشادهم اليه لا لغرض دنيوى لأن نجاة هؤلاء من باب خرق العادة بخلاف الفقير والمسكين فاذا خلص واحدا ممن هذه صفته فلا شك أنه من الجهاد وفى الجهاد من الفضيلة ما فيه فيحتاج أن يغتنم ماسيق اليه من هذا الخير العظيم ويشد يده عليه بشرط أن يتحفظ على مقامه الذى هو فيه من تدنيسه بالتشوف الى ما فى أيديهم أو التعزز بعزهم الفانى أو الركون الى شىء من أحوالهم الزائلة فاذا سلم من ذلك فلا ينافى قضاء حوائج المضطرين من المسلمين على أيديهم لأن له بذلك المنة عليهم لأنه ساق اليهم خيرا عظيما ومعروفا جسيما لكن بشرط يشترط فيه وهو أن يريهم أن الحظ والمنفعة والحاجة الكبرى لهم فى استقضاء حوائج المسلمين منهم بعد أن يحقق عنهم أنهم مضطرون الى ذلك أكثر من أرباب الحاجات اليهم وأن ذلك متعين عليهم من غير أمره لهم بذلك فكيف مع اطلاعه واطلاعهم وهذا باب كبير متسع فيكفى التنبيه عليه . وبالجملة فالفقراء السالكون من مضى

منهم نفعنا الله بهم قد انقسموا فى هذا الباب على ثلاثة أقسام . فنهم من كان لا يخالط أحدا من غير جنسه فان وقع لأحدهم شيء من ذلك استعمل التحيل فى التخلص منه . كما حكى عن سفيان الثورى أنه لما أن تولى الخلافة من يعتقده ويرجع اليه هرب منه الى البلاد وسافر الى مواضع لا يعرف فيها فبقى الخليفة يسأل عنه و يبحث عن أمره الى أن اجتمع به بعض من يعرفه فتكلم معه فى أن اجتماعه بالخليفة فيه خير كثير للمسلمين فكان جوابه أن قال يصلح ما يعلم فساده فاذا فرغ من ذلك أتيته وجلست معه وعلمته مالم يعلمه أو كما قال . وقد حكى عن بعضهم أنه أظهر التوله حين اتيان السلطان اليه بأن جعل على بابه أحمالا من الخبز فوضعها وجلس هناك فلما أن رأى السلطان مقبلا أخذ رغيفا وجعل يعض فيه و يأكل بنهمة فجاء السلطان فسأل عنه فقيل لهوذا فسلم عليه فردعليه السلام فكلمه فأبى عن جوابه فسأله لم لا ترد على الجواب فقال أخاف أن تشغلنى عن أكلى أو أن تأكل معى فيذهب هذا الخبز وأنا لا أشبع أوكما قال فرجع السلطان عنه وهذا باب السلامة ولا يعدل بالسلامة شيء . القسم الثانى أنهم يجتمعون بهم اذا أتوا اليهم بالشروط المتقدم ذكرها . القسم الثالث الاتيان اليهم وفيه خطر من أجل مخالطتهم والوقوف على أبوابهم لقضاء حوائج المسلمين اذ أن ذلك جمع بين أمرين متضادين أحدهما حسن وهو قضاء حوائج المسلمين والتفريج عنهم والثانى ضده وهو اهانة خرقة الفقير بالوقوف على أبواب من لا ينبغى . وقد قال بعضهم ما أقبح أن يسأل عن العالم فيقال هو بباب الأمير فاذا كان هذا القبح فى حق العالم فما بالك به فى المريد الذى خلف الدنيا وراء ظهره وأقبل على الآخرة يطلبها وتوجه الى الله عز وجل بالانقطاع اليه ولو لم يكن فيه من القبح الا أنا مأمورون بالتغيير عليهم فى بعض أحوالهم والوقوف ببابهم ينافى ذلك . وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله يختار الطريقة الوسطى لا شرقية ولا غربية لا يقف

بنابهم ولا ينفر منهم بل يستقضى حوائج الضعفاء والمساكين منهم اذا أتوا اليه وأما من لم يأت منهم اليه فانه كان لا يرسل اليه أصلا ومن نزلت به ضرورة وأتى اليه يحيله على الصدقة والتوبة مما جنى وأما الارسال اليهم فكان لا يرسل لمن يعرف ولا لمن لم يعرف فمن كان يعرفه منهم اذا جاء ذكر له مااطلع عليه من ضرورات المسلمين فأزالها وهذا الذى درج عليه هو حال أكثر السلف أعنى الطريقة الوسطى المتقدم ذكرها والله الموفق هذا حاله مع زيارة من ينسب الى الدنيا . وبالجملة فمن يأتى الى زيارة المريد ينقسمون على ثلاثة أقسام . الأول اتيان أبناء الدنيا له . والثانى زيارة المريدين والصلحاء . والثالث زيارة من شاركه فى الخرقة من جهة شيخه أو من جهة العالم الذى اهتدى بهديه فالقسم الأول قد تقدم ذكره وأما القسم الثانى فيتعين عليه أن يلقى من أتاه برحب وسعة صدر وأن يكثر التواضع لهم ويرى الفضل لهم عليه فيما فعلوه ويرى نفسه أنها مقصرة فى حقهم اذ أنه قعد عن زيارتهم حتى احتاجوا الى زيارته فيعوض لهم عن ذلك كثرة الأنس واظهار الود بشرط أن يكون ذلك منه باطنا كما فعله ظاهرا والمقصود أن يبالغ فى الأدب معهم بتوقير كبيرهم واحترامه واللطف بصغيرهم فى ارشاده وتهذيب أخلاقه وتهيىء أمره للسلوك والترقى وان استطاع أن لا يخرج عنه أحدا من هذه الطائفة الا عن أكل فليفعل لأنه قد ورد عن السلف رضى الله عنهم أنهم كانوا لا ينصرفون الا عن ذواق فان لم يمكنه ذلك الا بتكلف مثل أخذ دين أو ما يقاربه فالترك أولى به . وقد حكى عن بعضهم انه جاءه أضياف فقدم لهم خبزا وملحا وقال لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم لكن يعوضهم عن ذلك أمدادهم فى بواطنهم ان كان من أهل ذلك فان لم يكن من أهل الامداد فيدعو لهم بظاهر الغيب ولعل أن يكون فيهم وهو الغالب من هو أرفع منه قدرا وأعظم شأنا فيكون دعاؤه اذ ذاك يعود عليه بركته . لما ورد أن المرء اذا دعا لأخيه

فى ظهر الغيب فان الملك يقول له ولك مثل ذلك أوكما ورد . وقد قال بعض السلف كل حاجة أحتاجها وأريد أن أدعو بها لنفسى أدعو بها لأخى فى ظهر الغيب لأنى اذا دعوت لنفسى كان الأمر محتملا للقبول أو ضده واذا دعوت لأخى فى ظهر الغيب فالملك يقول ولك مثل ذلك ودعاء الملك مستجاب . وقد حكى عن بعضهم أنه جاء الى زيارة أخيه فقال له المزور ياأخى أما كان لك شغل بالله عن زيارتى فقال له الزائر شغلى بالله أخرجنى الى زيارتك . وقد حكى عن بعضهم أيضا انه كان اذا سأله أحد من اخوانه فى حاجة يبكى ثم بعد ذلك يقضى حاجته فسئل عن موجب بكائه فقال أبكى لغفلتى عن حاجة أخى حتى أحتاج أن يبديها لى وهذا الذى ذكر هو جار على جادة غالب حال الناس وبعض الأكابر يعوض عن ذلك ماهو فى الايثار أكثر وأعم وله فى ذلك اقتداء حسن صحيح . كما حكى لى من أثق به ان الفقيه الامام المعروف بابن الجيزى جاء الى زيارة الفقيه الامام المحدث المعروف بالظهير التزمنتى وكان اذ ذاك منبسطا مع من حضره فلما أخبر بمجىء الفقيه ابن الجيزى الى زيارته انقبض عن ذلك وزال بسطه فدخل عليه وهو منقبض فسلم عليه فرد عليه السلام ولم يزد عليه شيئاً ولم يكن كلامه له الا جوابا فلما ان خرج رجع الى ما كان عليه من البسط مع من حضره فسئل عن موجب ذلك فقال استصغرت نفسى أن يكون مثل هذا السيد يزور مثلى فأردت أن أكافئه ببعض ما يستحقه فوجدت نفسى عاجزة عن مكافأته فآثرته بالأجر كله حتى يكون فى صحيفته دونى لما ورد اذا التقى المسلمان فأكثرهما ثوابا أبشهما لصاحبه فآثرته بذلك أو كلاماً هذا معناه . وهذا له أصل فى الاتباع للسنة المطهرة وهو ماروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كنت اذا لقيت عليا ابتدأنى بالسلام فلقيته اليوم فلم يسلم على حتى ابتدأته بالسلام

فقال له اجلس فجلس واذا بعلى بن أبى طالب قد جاء فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لم تبتدئ ابا بكر اليوم بالسلام فقال يارسول الله رأيت فيما يرى النائم قصرا فى الجنة لم ارمثله فقلت لمن هذا القصر فقيل لمن يبتدئ اخاه بالسلام فأردت أن أوثر اليوم أبا بكر على نفسى أوكما قال . وهذا أعظم فى الاكرام وأبر فى الاحترام فمن كانت له استطاعة على مثل هذا الايثار فهو أولى به لكن يخاف على فاعل ذلك فى هذا الزمان أن ينفر الناس غالبا عن باب ربهم و يوقعهم فيما لاينبغى فارتكاب الطريقة المتقدمة والحالة هذه أولى بل أوجب اللهم الا أن يقع ذلك مع من له رسوخ فى السلوك كما تقدم وصف من وقع له ذلك والله الموفق

﴿ فصـــل ﴾ اعلم رحمنا الله واياك أن لقبول الدعاء مواضع عديدة ينبغى الاعتناء بها ليعرف المكلف أماكنها فيتعرض لها لقوله عليه الصلاة والسلام (أن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله) فمن جملة النفحات ماتقدم ذكره من دعاء المؤمن لأخيه فى ظهر الغيب . والثانى المضطر وهو الأصل لعمومه قال الله تعالى ﴿أمن يجيب المضطر اذا دعاه﴾ وهذا لفظ عام دون الاتصاف بصفة دون أخرى وكثير من يقع له الغلط والوهم فى هذا القسم فيرى أنه مضطر فيدعو فلا يستجاب له فيقول أنى هذا فيقع له الجواب بلسان الحال ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ اذ أنه لو حصلت له حالة الاضطرار مارد وماخيب لأن الله سبحانه وتعالى لايخلف الميعاد. ومثال ذلك فى الحسن ماكان سيدى أبو محمد رحمه الله يقول مثله مثل من ركب فى السفينة فهو مضطر الى ريح يمشى بها والى بحر هاد قليل الآفات لكنهم مطمئنون بسفينتهم راكنون اليها وفى هذا السكون من عدم الاضطرار مافيه فلو جاء الريح العاصف وتحرك عليهم هول البحر لكان اضطرارهم أكثر من الأول لكنهم عندهم قوة فى أنفسهم بالسفينة التى هى سبب السلامة غالبا فلو انكسرت السفينة مثلا و بقى كل واحد منهم أوجماعة على لوح

لاشتد اضطرارهم أكثر من الثانى لكنهم يرجون السلامة لما تحتهم من الألواح وذلك قدح فى حقيقة اضطرارهم فلو ذهبت الألواح و بقوا بعد ذلك فى لجج البحار لا بريرى و لا جهة تقصد و لا لوح يرام أن يصعد عليه فهذه الصفة هى حقيقة الاضطرار أو كما قال . فمن اتصف بهذه الصفة وهو فى حالة الاتساع من أمره كان مضطرا حقيقة فلا يشك و لا يرتاب فى اجابته وماوقع الغلط الافى صفة التحصيل لهذه الصفة الجليلة التى أخبرنا الله تعالى بها فى كتابه العزيز الثالث من مواطن الاجابة عند نزول الغيث . الرابع عند الأذان . الخامس عند اصطفاف الناس للصلاة . السادس عند اصطفافهم للجهاد . السابع الثلث الأخير من الليل فى كل ليلة الى طلوع الفجر . الثامن الدعاء عند المحتضر فان الملائكة حضور يؤمنون على دعاء الداعى . التاسع الدعاء من الصائم عند افطاره . العاشر الدعاء من المسافر عند سفره . الحادى عشر وهو آكدها الساعة التى وردت فى يوم الجمعة وقد تقدم بيانها . الثانى عشر يوم الاثنين وليلته وقد تقدم بيانه الثالث عشر ليلة القدر وهى أم الباب وخلاف العلماء فيها مشهور معروف الرابع عشر الدعاء من الوالدين لولدهما . الخامس عشر الدعاء عند حدوث الخشوع واقشعرار الجلد والخوف والقلق وغلبة الرجاء فان هذه المواطن كلها محل للاجابة . السادس عشر وهو أعظمها وأولاها الدعاء باسم الله الأعظم وقد اختلف الناس فى تعيينه اختلافا كثيرا حتى قال بعضهم ان ذلك راجع الى الاتصاف بحالة الاضطرار كما تقدم ومنهم من قال انه قوله تعالى ﴿ والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ﴾ ومنهم من قال ﴿ الله لا اله الا هو الحى القيوم ﴾ و ﴿ الم الله لا اله الا هو الحى القيوم . وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ ومنهم من قال ﴿ لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ﴾ ومنهم من قال آخر سورة الحشر الى غير ذلك وهو كثير . السابع عشر يوم عرفة . الثامن عشر شهر رمضان . التاسع عشر

فى السجود . و بالجملة فالدعاء له أركان وأجنحة وأسباب وأوقات فان صادف أركانه قوى وان صادف أجنحته طار فى السماء وان صادف أسبابه نجح وان صادف أوقاته فاز فمن أركانه الاضطرار وقد تقدم . وأجنحته قوة الصدق مع المولى سبحانه وتعالى فيما يرجوه ويؤمله منه ويخافه . وأسبابه الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . وأوقاته الاسحار . وما تقدم ذكره انما هو فيمن هو على جادة التكليف . وأما من هو فى مقام الرضى أومايقاربه فقد يكون السؤال فى حقه ذنبا يتعين عليه التوبة والاستغفار منه . كما قد حكى عن بعض السلف أنه قال تجاسرت البارحة وسألت ربى المعافاة من النار وكما حكى الشيخ الامام أبو طالب المكى رحمه الله عن بعضهم أنه قال كل المقامات نلت منها شيئاً الاهـذا الرضا فانى مانلت منه الامقدار سم الخياط . ومع ذلك لوأخرج أهل جهنم أجمعين وأدخله جهنم وملأها بجسده وعذبه بعذابهم أجمعين لكان راضيا بذلك وقد تقدم ماجرى للكليم عليه الصلاة والسلام مع العابد . و بالجملة فالأمر راجع الى حال من وقع له ذلك و فى أى وقت يقع له ذلك وقد يكون فى بعض الأحيان الرضا فى حقه أولى وأفضل بالنسبة الى حاله وما اختص به فى وقته ذلك وقد يكون فى وقت آخر الدعاء والتملق واظهار الفاقة والاضطرار والحاجة أولى وأفضل وكل ذلك مأخوذ من السنة المطهرة وعن السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين . ثم نرجع الى ما كنا بسبيله من أقسام الزائر والمزور . القسم الثالث الاشتراك فى الرضاعة فى مجالس العلم ومجالس الشيوخ فمن جاءه من هذا القسم فهو من الخاصة به فان استطاع أن يكون لهم أرضا فليفعل اذ أن احترامهم احترام لشيخه الذى أخذ عنه . و آداب المريد مع شيخه لاتنحصر ولاترجع الى قانون ولايقدر المريد أن يقوم بحقه فى الغالب اذ أن حقيقة أمر الشيخ أنه وجده فى بحار الذنوب والغفلات فأخرجه من كل ذلك وأدخله الجنة وهو أمر

لايقدر أحد أن يجازى عليه الاالله تعالى

﴿فصـــل﴾ وينبغى له أن يكون أهم الامور عنده وآكدها الخلوة عن الناس والانفراد بنفسه دونهم كما تقدم لأن الخلوة سبب للفتح غالبا - وليحذر أن يقبل ماتلقيه اليه نفسه أوالشيطان من محبة الاجتماع بالاخوان أوالميل اليهم أوالميل الى رؤيتهم فان النفس مجبولة غالبا على حب الراحة والبطالة وهى لاتجد لذلك سبيلا مع دؤوب الخلوة ولاتجد السبيل الى أن تسرقه أوتميل به عما هو بسبيله الابسبب الاجتماع بالاخوان غالبا اذبالاجتماع بهم تجدالسبيل الى الزيادة والنقصان فيما يريده ويختاره وفيه من الخطر مافيه أوعكسه وهو الداء الذى ليس له دواء فى الغالب الاالتوبة والاقلاع والتحلل وكان فى غنية عن ذلك كله وهذه دسيسة قل من يشعر بها الا من نور الله بصيرته . وقدقال الشيخ الامام أبو عبد الرحمن الصقلى رحمه الله فى كتاب الدلالات له عن بعض شيوخه أنه قال كنت أخلو لأسلم من ضررى للناس فصرت أخلو لأغنم فصرت أخلو لأفهم فصرت أخلو لأعلم فصرت أخلو لأتنعم . فانظر رحمنا الله واياك الى هذه المقامات الجليلة التى انتقل منها واليها واحدة بعد واحدة . فاولها طلب سلامة الناس منه كما تقدم اذ أن طلب السلامة من الناس فيه تزكية للنفس ووقوع فى حق اخوانه المسلمين فاذا خلا بنفسه لكى يسلم الناس من لسانه وبصره وسمعه وبطشه وسعيه وحسده الى غير ذلك مما يعتوره فى خلطته لهم فيحصل بسبب ذلك فى القسم الذى شهد له صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه بالاسلام حيث يقول عليه الصلاة والسلام (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) وقد تقدمت الاشارة الى ذلك كله . فلما أن حصل هذا المقام السنى ترقى بعده الى ماهو أسنى منه وهو حصول الغنيمة فهو فى أعمال الآخرة يتهيأ اذ أن الخلوة التى هو فيها أعانته على افتراس ذلك والنهوض اليه لعدم العائق . ثم بعد حصول

هذا المقام السنى ترقى الى ماهو أسنى منه وهو الفهم عن الله تعالى فى آياته و فى أحكامه وفى تدبيره فى خلقه واحسانه الى أوليائه وقربه منهم وعلمه بحالهم اذ هو سبحانه وتعالى الكريم الذى من بذلك وسهل الأمر عليه فيه والفهم عن الله أعم من هذا كله وانما هو اشارة ما لما عدا ماذكر . ثم انتقل بعد هذا المقام السنى الى ماهو أسنى منه وهو العلم لانه نتيجة الفهم اذ أنه اذا فهم علم وهذا العلم عام فى العلم بالله تعالى والعلم بأحكام الله اذ أنه لا يوجد جاهل بأحكام الله عليه عالما بالله والعلم بالله ليس له حد ينتهى اليه بخلاف العلوم الشرعية فان لها نهاية على ماقد علم فلما أن حصل هذه الدرجة السنية انتقل منها الى ماهو أسنى منها وهو التنعم فى خلوته والتلذذ بالطاعات التى يحاولها اذ أنه عبد قد خلعت عليه خلع القرب فاتصف بالمقامات السنية التى لايستحقها و لابعضها الابفضل المولى سبحانه وتعالى وكرمه وامتنانه اذ لافرق بينه وبين اخوانه من المسلمين فكونه خلع عليه دونهم هذا فضل عميم لايقدر أن يقوم بشكر بعضه اللهم لاتحرمنا ذلك فانك وليه والقادر عليه بمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم وسلم . فاذا حصل فى هذه الدرجة انتفع بنفسه وانتفع به من عرفه ومن لم يعرفه . فاذا حصل فى هذا المقام السنى جاءته الألطاف تترى اذ أنه تشبه فيه بالملائكة الكرام الذين لا يأكلون و لا يشربون وبذكر ربهم يتنعمون اذ أن الذكر لهم كالنفس لنا ومن هذا حاله تكون العبادة له كالغذاء لان الغذاء جمع أشياء منها شهوة النفس للأكل والشرب وقوام البدن والاعانة على فعل الطاعات . ومن حصل فى هذا المقام الذى تقدم ذكره فقد تم له النعيم . ألا ترى أن بعضهم كان يأكل أكلة فى الشهر و بعضهم فى ثلاثة أشهر و بعضهم فى ستة أشهر و بعضهم لاهذا و لاهذا كل ذلك راجع الى حال التنعم فى الخلوة كما تقدم . ومن هذا الباب انقطع كثير من المريدين لانهم لم يحكموا الآداب فى الوصول الى هذا المقام فيريدون أن يتشبهوا بمن هو فيه

فينقطعون وماذاك الا أن هذا غذاؤه بالتنعم الذى هوفيه وقد مضت حكمة الحكيم سبحانه وتعالى أن هذا البدن لاقوام له الا بقوت فالقوت المعنوى الذى حصله هذا الذى تقدم ذكره أغناه عن القوت الحسى وهم لم يحكموه وتركوا القوت الحسى . وقد قال الشيخ الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله اعلم أن الله عز وجل قد تكفل لهذا الهيكل برزق لاقوام له الا به قال وهذا الرزق الذى تكفل به ليس من شرطه أن يكون محسوسا فتارة يكون محسوسا وتارة يكون معنويا أو كما قال ولاجل الجهل بتحصيل هذا القوت المعنوى حصل لبعض من يتعانى كثرة المجاهدة أشياء رديئة مثل العربدة أو الجنون أو النشاف(١) الى غير ذلك فمن تأدب بهذه الآداب المذكورة فى الخلوة يغلب الرجاء أنه من الناجين والحمد لله رب العالمين . وقد سمعت سيدى أبا محمد رحمه الله يقول انه قد كان دخل فى مجاهدة بنية أمد معلوم فلم تقدر نفسه على اتمام المدة وضاق ذرعه بذلك قال فأردت ان أفطر ثم حصلت لى عزيمة على ترك ذلك فلما أن شعرت نفسى بهذه العزيمة غشى عليها فرأيت فى تلك الغشوة كأن انسانا يطعمنى فأكلت حتى شبعت ثم سقانى فشربت حتى رويت ثم استفقت وأنا شبعان ريان فقمت أغتنم الطاعة مبتدرا بقوة ونشاط ففرغت المدة وأنا على ذلك الحال ثم بقيت بعد مدة أخرى كذلك ولو بقيت على ذلك بقية العمر لرأيت أنى لاأحتاج الى غذاء بعدها لكن رجعت الى الغذاء خوفا منى على ترك السنة اذ أن السنة وردت بالغذاء . هذا الوجه الذى ذكره رحمه الله . وفيه وجه آخر وهو أنه لو تمادى على ذلك الحال لاشتهر أمره وعرفه الناس بذلك وهذا فيه مافيه . وبالجملة فبركة الخلوة لاتنحصر ولاتقف على حد ينتهى اليه كل

(١) النشاف بالتشديد كشداد من يأخذ حرف الرغيف فيغمسه فى رأس القدر ويأكله دون أصحابه اه قاموس

على قدر حاله ومرتبته وأقل فوائدها بل أعظمها وزبدتها مايحدثه الله عز وجل عند ذلك من الخشوع وتصاغر النفس والاحتقار بها وذلتها والاطلاع على مسكنتها وقلة حيلتها وفقرها واضطرارها الى سيدها ومدبرها . وقد سأل سفيان الثورى الأعمش رحمهما الله تعالى عن الخشوع فقال ياثورى أنت تريد أن تكون اماما للناس ولاتعرف الخشوع سألت ابراهيم النخعى عن الخشوع فقال ياأعيمش تريدأن تكون اماما للناس ولاتعرف الخشوع ليس الخشوع بأكل الخشن ولابلبس الخشن وتطأطىء الرأس لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء سواء وأن تخشع لله فى كل فرض افترض عليك . والغالب أن هذا قل أن يحصل الا مع كثرة الخلوات فالخلوة نور ذلك كله وبهاؤه وعليها تقرر الأحوال السنية والمراتب العلية فليشد المريد يده ليحصل مايترتب عليها من البركات والله الموفق للصواب

﴿فصـــل﴾ وآكد ماعليه فى خلوته النظر فى الجهة التى يقتات منها فليتحفظ على نفسه من الشبهات التى تطرأ عليه فيها اذ أن ذلك لايخلو من وجوه اما أن يكون يعرف أصلها مثل أن يكون من كسب يده أو ميراث أو غيرهما من وجوه الحل فهذا قد لطف الله به اذ يسر له ذلك من وجه حل وانقطع بسببه الى الخلوات وبركاتها واما أن يكون ذلك من جهة مايفتح الله تعالى به من الغيب فذلك على وجهين أحدهما أن يكون بغير واسطة والآخر بواسطة فان كان الأول فهو مثل القسم الذى قبله ملطوف به الا أنه قد يخشى على بعض من يقع له ذلك من الدسائس الواردة على النفوس وهى كثيرة لاتنحصر . وأما القسم الثانى وهو أن يكون تيسير ذلك على يد مخلوق فههنا يحتاج الى تفصيل . سمعت سيدى أبا محمد رحمه الله يقول ان ذلك ينقسم على أربعة أقسام . القسم الأول يسر ويضر . القسم الثانى عكسه لايسر ولايضر . القسم الثالث يسر ولا يضر

القسم الرابع عكسه يضر ولايسر . فالقسم الأول وهو الذى يسر ويضر هو الفتوح الذى يأتى من جهة فقير محتاج معتقد فان أنتَ قبلته منه سر بذلك ويتضرر فى نفسه لأجل فقره فهذا ينبغى للمريد أن لايرزأه فى شئ ويرده عليه بسياسة حتى لاينكسر خاطره أو يقبله منه ويكافئه عليه بما تيسر وليحذر أن يشوش عليه بدفع العوض له بل يعوضه دون اشعارله بذلك . وأما القسم الثانى وهو عكس الأول وهو الذى لايسر ولايضر فهو الفتوح الذى يأتى من عند من له جدة واتساع وهو مستور بلسان العلم وصاحبه ليس بمعتقد فان هو أخذه منه لم يسر بذلك ولم يضره أخذه منه فالمريد فى هذا القسم مخير ان شاء أخذ وان شاء ترك وذلك راجع الى حسب حاله فى الوقت ولو قدر على أن لايأخذ منه شيئاً لكان أولى به وأرفع لمقامه لأن هذه الطائفة ينبغى أن تكون يدهم هى العليا . كما جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (اليد العليا خير من اليد السفلى) وقد فسره فى الحديث فقال اليد العليا هى المنفقة واليد السفلى هى السائلة . وقد اختلف الناس فى هذا . وكان سيدى أبو محمد رحمه الله يقول ان المراد بالعليا والسفلى السائلة والمسئولة فان كنت سائلا فى قبول معروفك فيدك سفلى وان كنت مسئولا فيدك هى العليا . وكان رحمه الله يستدل على ذلك بما ورد أن المكلف لايخرج صدقة حتى يفك فيها لحيى سبعين شيطانا فاذاهم المكلف باعطاء صدقة واعتورته هذه الشياطين وغلبهم وأتاك بمعروفه فان أنت رددته عليه فقد أعنت الشياطين عليه وقد لاتسمح نفسه بعد ذلك أن يعطيها لغيرك فيحرم من هذا الخير العظيم وتجد الشياطين السبيل الى تقصير يده عن الصدقة وان أنت قبلت منه ذلك فقد أعنته عليهم ويئسوا منه فقد حصل لك بذلك الثواب الجزيل . واذا كان كذلك فيد الآخذ هى العليا والحالة هذه . ثم مع ماتقدم يحصل لأخيك المؤمن من الثواب فى الدار الآخرة

مايعجز عن وصفه . يشهد لذلك ماحكى أن شابا جاء الى شيخ هذه الطائفة وامامها الجنيد رحمه الله تعالى فقال له أنا جائع فهل من يطعمنى فقام انسان ممن له اتساع فقال عندى فأخذ الشاب ومضى معه الى بيته وقدم له طعاما كان الشاب يشتهيه فمد يده فرفع لقمة وبقى بها فى يده لحظة فقال له صاحب المنزل كل فاللقمة اذا أكلتها عندى خير من الدنيا ومافيها فوضع الفقير اللقمة من يده وخرج ولم يأكل عنده شيئاً وأتى الى الجنيد فقال مثل مقالته الأولى فقام فقير فقال عندى فذهب معه فقدم له خبزاً وبصلا فأكل حتى شبع ثم رجع فجاء الأول الى الجنيد فأخبره بما جرى فقال له اجلس فلما أن جاء الشاب سأله الجنيد هل أكلت قال نعم قال له وما أكلت قال خبزاً وبصلا فقال له وماقدم لك هذا قال له قدم لى طعاما مفتخراً فقال له مامنعك من أكله فقال له كنت جائعا فرفعت اللقمة وأنا أتخير أى قصر آخذه فى الجنة فبينما أنا كذلك واذا هو قد قال اللقمة اذا أكلتها عندى خير من الدنيا ومافيها فاستحييت من الله تعالى أن آكل طعام رجل خسيس الهمة ليس له همة الا فى الدنيا فتركته ومضيت وأما هذا فنيته أن لو كانت له الدنيا بحذافيرها فهو يستقلها تقديما أو كما قال . فهذه الحكاية تشعرك بأن الآخذ من هذه الطائفة يده هى العليا اذ أنه فى حقيقة الأمر يعطى مايبقى ويأخذ مايفنى فتأمل ذلك تجده صوابا وذلك محمول على أنه مستور بلسان العلم وأما لسان الورع فهو أمر آخر وهو متعذر فى هذا الزمان غالبا فمن وقع له الحال على ذلك فالأولى له أنه لايخالط الناس ويقيم فى البرارى والقفار أو يكون خرق الله تعالى له العادة فلايتكلم عليها . وأما القسم الثالث وهو الذى يسر ولا يضر فهو الفتوح الذى يأتى على يد بعض الاخوان المعتقدين الذى يعرف سببهم وهم من أهل اليسار فان أخذت منهم دخل عليهم السرور بذلك ولا يتضررون به . فهذا أحسن الأقسام كلها وأسلمها من الآفات المتوقعة

وأما القسم الرابع وهو الذى يضر ولا يسر فهو ما كان من بعض الناس وهو متصف بوصفين أحدهما أن يكون محتاجا لما يعطيه والثانى عدم اعتقاد الدافع للمدفوع له فان أنت قبلت منه ماأتاك به تضرر بذلك لحاجته اليه ولا تدخل عليه سرورا لعدم اعتقاده لك . وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله التزم فى نفسه طريقة غريبة قل من يقدر عليها من أصحابه وغيرهم الا من وفقه الله تعالى وقليل ماهم . وذلك أنه كان لايقبل صدقة واجبة كانت أو تطوعا ولا يقبل شيأ من أرباب الخدم وان كان معتقداً وان قلت خدمته وان تحرز ماأمكنه ومن أهدى له من الاخوان المعتقدين فيختلف حاله فى ذلك فبعضهم يرد عليه ما أتى به وبعضهم يقبل منه ثم يعوض له عن ذلك بلطف وسياسة وما أتاه من جهة الاخوان المتسببين المعتقدين نظر الى اكتسابهم فان كان مستوراً بلسان العلم نظر فى حال صاحبه هل يدخل عليه سرور بالأخذ منه أم لا فان ظهر له منه أنه سواء عنده أخذ منه أو رد عليه لم يأخذ منه شيئاً وان ظهر له أنه ينكسر خاطره عند الرد عليه وينجبر خاطره ويدخل عليه السرور حين الأخذ منه أخذه منه فمن اتصف بهذه الصفة فهو الذى يقبل منه . وهذه طريقة غريبة عزيزة لايقدر عليها الا من كان مثله أو يقاربه لاجرم أنه كان هو وأهله ومن يلوذ به من شظف العيش بحيث المنتهى فلقد كان يأخذ بفلس ليمونا فيأتدم به غدوة وعشية هو وأهله وقد بقى أهله فى بعض الأيام لاشىء عندهم يتقوتون به فأخذ ثوبا ودخل به الى البلد ليبيعه فلم يدفع أحد فيه شيئاً لأنه كان من زى المغاربة فرده وجاء الى المسجد ولم يدخل البيت خشية من الأولاد أن ينقطع رجاؤهم من القوت اذ ذاك فيزيد قلقهم فجلس فى المسجد حتى صلى العشاء الأخيرة رجاء أن يكون الأولاد قد ناموا فلما أن دخل عليهم وجدهم وهم مسرورون يكثرون من شرب الماء فسألهم عن ذلك فقالوا كأن كل واحدنا أكل خروفا وهم فى الشبع بحيث لايحتاجون

الى زيادة على ما هم فيه وبقى أمرهم كذلك مدة حتى فرج الله عنهم . وأنواع هذا كثيرة وهو باب لا يقدر عليه الا الأفراد من الأولياء لأنه وان صبر فى نفسه فالأهل والأولاد لا يصبرون فى الغالب فان وجد ذلك فهو من باب الكرامات ولأجل هذا المعنى قال سيدى أبو مدين رحمه الله العارف من أخذ نفسه بالورع وأطلق غيره فى ميدان العلم وما تقدم وصفه فهو من هذا القسم نفعنا الله بهم ورزقنا التصديق بأحوالهم اذ لم نكن أهلا للاقتداء بهم . اللهم لا تحرمنا من بركاتهم بمنك بمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما كثيرا

﴿ فصـــل ﴾ فى ذكر ما ابتلى به بعض من ينسب الى طريق القوم وغيرهم ممن تعلقت خواطرهم بفعل الكيمياء واستخراج ما فى الأرض من الاموال المدفونة فيها وهى التى اصطلحوا على تسميتها بالمطالب. وليحذر مما يفعله بعض الناس فى هذا الزمان من تعانيهم استخراج ما فى الارض مما تقدم ذكره وهذا قبيح لو فعله بعض العوام فهو فى حق المريد أقبح وأشنع اذ أنه خلف الدنيا وراء ظهره وأقبل على الآخرة بكليته لا مطلب له سواها وتعلق خاطره بما تقدم ذكره يشهد بكذبه فى طريقه من دعواه الانقطاع الى الله تعالى والتوجه اليه مع أن من تعلق خاطره بهذا فالغالب عليه فيما يظهر الفقر المدقع والديون الكثيرة ومخالطة من لا يرضى حاله فى دينه ودنياه وذلك سبب كبير الى وقوع الناس فى عرض من اتصف بذلك بسبب تعاطيه ما يوقع الناس فيه فيكون شريكالهم فى اثم وقيعتهم فيه وقد يؤول أمر فاعل ذلك الى الحبس والاهانة وغير ذلك مما هو معلوم من العوائد الجارية فى ذلك كله ولو لم يكن فيه من الذم الا أن من تعلق خاطره بذلك فهو متصف بحب الدنيا ومن أحب الدنيا فهو قال للآخرة اذ أنهما ضرتان متنافرتان فمهما أقبل الانسان على احداهما أضر بالأخرى ولو لم يكن فيه من الذم الا ما ورد (من أحب الدنيا ينادى عليه

يوم القيامة هذا أحب ما أبغض الله) وقد تقدم فعل السلف رضي الله عنهم فى هربهم من الدنيا خيفة منهم على أنفسهم منها ومن طلب شيئاً مما تقدم ذكره فهو مستشرف لطلبها وذلك مذموم يذهب بجميع خاطره واشتغاله عن أمر دينه ودنياه بل كانوا يعدون الدنيا اذا أقبلت عليهم عقوبة نزلت بهم وقد مضت حكاية أبى الدرداء رضي الله عنه فيما جرى له فى العطاء الذى أتاه وعلى هـذا درج فعل السلف والخلف رضي الله عنهم. وقد حكى فى الاسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر فى سياحته ومعه الحواريون بموضع فيه ذهب كثير فنظر عيسى عليه الصلاة والسلام اليه وقال لمن معه من الحواريين انظروا الى هذا القاتول ومر فى سياحته فتخلف ثلاثة منهم وقالوا الى أين هذا المقصود أو كما قالوا فقسموا ذلك أثلاثا فجلس اثنان يحرسان ذلك وأرسلا ثالثهما الى البلد ليأتى بالدواب والأعدال وما يأكلونه فلما أن مضى لذلك تحدث الاثنان فيما بينهما فقالا لو كان هذا المال بيننا لكان أولى ثم قالا وكيف الحيلة فاتفقا على أنه اذا جاء يقومان اليه ويقتلانه ويبقى المال بينهما نصفين وقال الثالث الذى ذهب الى قضاء الحاجة مثل قولهما فقال لو كان ذلك المال كله لى لكان أولى ثم قال وكيف الحيلة فخطر له أن يعمل سما فى الغذاء الذى يأتى به فيأكلانه فيموتا فيأخذ المال كله لنفسه ففعل فلما أن أقبل على صاحبيه وثبا اليه فقتلاه ثم أكلا ما أتى به من الغذاء فماتا فبقى الثلاثة هناك مطروحين فلما أن رجع عيسى عليه الصلاة والسلام من سياحته ومر بهم فوجدهم هناك طرحى فقال للحواريين ألم أقل لكم هـذا القاتول وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام (ان هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه) ولا شك أن من اتصف بما تقدم ذكره يربو على المستشرف فترتفع البركة

منه فطلب المريد وغيره لهذه الاشياء على تقدير حصولها يذهب البركة منها والمقصود حصول البركة وانها اذا عدمت من الشيء لو كان ملء الأرض ماأغنى صاحبه لعدمها منه . وقد حكى الامام الجليل الحافظ أبو نعيم الاصفهانى رحمه الله فى كتاب الحلية له فى ترجمة طاوس بن كيسان رحمه الله باسناده الى ابن طاوس عن أبيه قال كان رجل له أربع بنين فمرض فقال أحدهم اما أن تمرضوه وليس لكم فى ميراثه شيء واما أن أمرضه وليس لى فى ميراثه شيء قالوا مرضه وليس لك فى ميراثه شيء قال فمرضه حتى مات ولم يأخذ من ميراثه شيئاً قال فأتى فى النوم فقيل له ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار فقال فى نومه أفيها بركة قالوا لا فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت امرأته خذها فان من بركتها أن نكتسى بها ونعيش منها فأبى فلما أمسى أتى فى النوم فقيل له ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير فقال أفيها بركة قالوا لا فلما أن أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل مقالتها الأولى فأبى أن يأخذها فأتى فى الليلة الثالثة فقيل له ائت مكان كذا وكذا فخذ منه دينارا قال أفيه بركة قالوا نعم فذهب فأخذ الدينار ثم خرج به الى السوق فاذا هو برجل يحمل حوتين فقال بكم هما قال بدينار قال فأخذهما منه بدينار ثم انطلق بهما الى بيته فلما دخل بيته شق بطنهما فوجد فى بطن كل واحدة منهما درة لم ير الناس مثلها قال فبعث الملك يطلب درة ليشتريها فلم توجد الا عنده فباعها بوقر ثلاثين بغلا ذهبا فلما رآها الملك قال ماتصلح هذه الا بأختها فاطلبوا أختها وان أضعفتم قال فجاؤه فقالوا أعندك أختها ونعطيك ضعف ماأعطيناك قال وتفعلون قالوا نعم قال فأعطاهم اياها بضعف ماأخذوا به الأولى والله سبحانه وتعالى أعلم . فانظر رحمنا الله واياك الى هذه البركة ماأعظمها أين هذا من المائة دينار التى عرضت عليه أولا . فالحاصل من هذا أن البركة كامنة فى امتثال السنة حيث كانت لأن

من فعل مثل هذا فالاستشراف منه بعيد واذا عدم الاستشراف حلت البركة ولا جل هذا المعنى تجد كثيرا من أهل هذا الشان الغالب عليهم شظف العيش وقلة ذات اليد ثم انهم مع ذلك لايسبقهم غيرهم فى أمر الآخرة وما ذاك الا لوجود البركة الحاصلة معهم فيما يتناولونه من أمر الدنيا لعدم استشرافهم لدنياهم واهتمامهم بأمر دينهم والوقوف بباب ربهم والتضرع اليه ولزوم الامتثال لأوامره والاجتناب لنواهيه والنزول بساحة كرمه . وقد سمعت سيدى أباعبدالله الفاسي رحمه الله يقول انه كان بمدينة فاس وكان يصحب بعض الفقراء فرآه مرة وهو يبكي ويتضرع ويسأل الله تعالى أن يرفع عنه مانزل به فسألته عن موجب ذلك فأبى عن اجابته فبقى كذلك أياما ثم سرى عنه فرجع الى حاله الأول قال فسألته عن موجب بكائه وسروره فقال انى كنت أجمع بين الماء والأحجار فى الاستنجاء فابتليت بأنى اذا أخذت حجرا أستجمر به أجده ذهبا فأرميه وآخذ غيره فأجده كذلك ثم كذلك فضاق ذرعي من ذلك لما نزل بي فبقيت أتضرع الله تعالى فى دفعه حتى أزاله عنى فصرت آخذ الحجر فأجده حجرا كما هو . وقد حكى لى رحمه الله أيضا عن نفسه أنه كان بمدينة فاس قال فكنت أخرج من البلد فأرى عند السور صندوقا مفتوحا مملوءاً ذهبا قال فكنت أولى وجهى عنه فلما أن كان فى بعض الأيام التفت اليه واذا بيد من الهواء لطمت وجهى فردته الى الناحية الأخرى فتبت الى الله تعالى أن لاألتفت اليه بعد . وقد حكى عن بعضهم أنه كان لايبيت على معلوم حتى يخرجه عنه وهو مع ذلك يرى فى المنام كل ليلة قائلا يقول له انك لبخيل ويكرر ذلك عليه مرارا فلما أن كان ليلة وقيل له ماقيل آلى على نفسه أنه اذا فتح له من الغد بشيء يعطيه أول من يلقاه كائنا ما كان فلما أن كان من الغد فتح له بخمسمائة دينار فأول من لقيه من الغد شاب وهو عند مزين يحلق له رأسه فأعطاه الصرة فقال له الشاب لاحاجة لى بها عندى قوت يومى فقال له

اعطها فى أجرة المزين فقال له المزين قد دخلت على هذا العمل لله تعالى فلا آخذ عنه عوضا فقال له خذها لك دون أجرة فقال له لاحاجة لى بها فقال له هى خمسمائة دينار فقال له المزين أما قد قيل لك انك لبخيل فوجد فى نفسه وجدا شديداً وأخذ الصرة فرمى بها فى الفرات . فاذا قيل لمثل هذا بخيل فما بالك بمن ينسب الى الطريق و يطلب المطالب ثم يزعم أنه على الطريق المستقيم هيهات هيهات ليس الأمر لآرائنا و لا لما اصطلحنا عليه من عوائدنا و لا لما يخطر من الهواجس فى أنفسنا بل المشى على الطريق المستقيم الذى وقع من السلف الماضين وقد مضى ذكر بعض أحوالهم . وليس لقائل أن يقول انماذكرتموه لايليق بهذا الزمان لغلبة البخل فيه وقلة البركات بخلاف زمان السلف الماضين اذ أن الزمانين سواء بالنسبة الى الانقطاع الى الله تعالى والنزول بساحة كرمه مع أن ماتقدم ذكره عن الشيخ أبى عبد الله الفاسى فى هذا الزمان وقع مثله كثيرا من غيره . وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام (ان هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه) ولا شك أن من اتصف بما تقدم ذكره أعظم من المستشرف فترتفع البركة عنه من باب أولى . ثم انظر رحمنا الله واياك الى مخالفة السنة ماأكثر قبحها و بشاعتها . ألاترى الى ماوقع بسبب ماتقدم ذكره فقد جر ذلك الى تسليط بعض الناس على هدم كثير من بيوت المسلمين ومساجدهم بسبب حفرهم على ذلك فمن كانت له شوكة فعله جهارا سواء كانت مسجدا أوغيره من أملاك المسلمين ومن لم تكن له شوكة عمل الحيل الكثيرة على ذلك حتى تخرب وتهدم وهذا ضرر عظيم حتى صار بعض أهل الأديان الباطلة اذا أراد أن يخرب مسجدا أودار مسلم بينه وبينه عداوة كتب فى ورقة أن موضع كذا فيه كذا وكذا ويكتب تاريخها قديما ويبخرها حتى تبقى كأنها ورقة

عتيقة ثم يعلقها فى موضع من يعلم أنه يفعل ذلك بسبب قدرته عليه اما بيده الباطشة أو كثرة التحيل فكان ذلك سببا لتخريب مساجد المسلمين ودورهم يدلك على ذلك أن أكثر اليهود والنصارى قل أن تحفر لهم دار أو كنيسة أو بيعة والكل فى بلد واحد وموضع واحد . ثم ان بعض أهل الأديان اذا عجزوا عن تخريب المساجد والدور تسلطوا على تعب المسلمين فى أبدانهم وخسارتهم فى أموالهم فيكتبون أوراقا فى ذروة الجبل الفلانى من الناحية الفلانية منه كذا وكذا اذا حفرت فيه كذا وكذا وقست كذا وكذا تجد فيه كذا وكذا وفى ورقة أخرى الغار الفلانى فى جهة كذا وكذا منه تحفر قدر كذا وكذا فتجد كذا وكذا الى غير ذلك وهو كثير وكل هذا باطل . ثم على تقدير أن يكون شىء من ذلك صحيحا فعليه المهالك الكثيرة لأن من فعل ذلك انما هو من الامم الماضية فلم يضعوا شيئاً الاوقد أحاط به مهالك عظيمة فقل أن يصل أحد الى ذلك الابعطبه وعطب غيره . ثم ان مايوجد من ذلك فى الأرض فلايخلو اما أن يكون فى فيافى الأرض من أرض العرب فذلك فيه الخمس يصرف فى وجوهه وباقيه لواجده سواء كان ذلك ذهبا أوفضة أولؤلؤا أونحاسا أوحديدا أورصاصا كل ذلك سواء فيه الخمس . والذى يؤخذ منه الخمس ثلاثة هذا واحد منها . والثانى الندرة توجد فى المعدن بغير مؤنة أو بمؤنة يسيرة والثالث الغنيمة . وأما مايوجد فى غير أرض العرب فلايخلو ذلك من وجهين أحدهما أن يكون ذلك الموضع أخذ عنوة والثانى أن يكون أخذ صلحا فان كان عنوة فهو لتلك الجيوش الذين فتحوا ذلك الموضع ثم لأولادهم ثم لأولاد أولادهم وذلك موجود فى الغالب اذ أن أولاد الصحابة موجودون بين أظهرنا فى هذا الزمان وان كانت صلحا فما يوجد فى ذلك الموضع فهو لأهل الصلح فان عدموا فلأولادهم ثم لأولاد أولادهم وهم أيضا موجودون وهلم جرا . وللمسئلة فروع موجودة فى كتب

الفقهاء . فالحاصل من هـذا أن واجده ليس له فيه شيء الا التعب واشغال ذمته بشيء كانت عنه فى غنى وقد يكون ذلك سبب هلاكه واذا كان ذلك كذلك فالعاقل اللبيب يتعين عليه الفرار من هذا وماشاكله اذ أن غنيمة المسلم انما هى براءة ذمته ومن اشتغلت ذمته قل أن يتخلص فالسعيد من لجأ الى الله تعالى فى اعانته على ذلك فانه الكريم المنان اللطيف الرحمن

﴿فصـــل﴾ وأما الاشتغال بتحصيل علم الكيمياء فهو من الباطل البين والغش المتعدى ضرره لأهل زمانه ومن بعدهم وذلك أن من فعلها فقد خلط على الناس أموالهم وبخسها عليهم اذ أنهم مختلفون فى فعلها . فمنهم من يعملها ولا علم عنده أنها تتغير بعد زمان وذلك الزمان يختلف بحسب القلة والكثرة . وكثير منهم من يعلم أنها تتغير ويغش الناس بها فيشغلون ذمتهم بأموالهم وكل ذلك حرام سحت . ومنهم من يزعم أنها لاتتغير وهو بعيد ولو قدرنا عدم تغيرها فذلك لايجوز أيضا لأن الذهب المعدنى والفضة المعدنية ينفعان لأمراض ولهما خاصية فى الأدوية وغيرهما يعود بالضرر على المريض فيزيده مرضا أو يموت بسببه لأنه لابد أن يكون فى غير المعدنى عقاقير قد يسقم بعضها وقد يقتل بعضها فعلى هذا فكل من تعاطى شيئاً من ذلك فقد شغل ذمته باموال الناس ودمائهم . وقد سمعت سيدى أبامحمد رحمه الله يقول ان صرفها لايجوز حتى يبين أنها من عمل يده وليست بمعدنية وهذا الذى قاله رحمه الله من اجازة ذلك بعد البيان لايسوغ فى هذا الزمان بسبب أنه ان بين هو فمن صارت اليه فالغالب أنه لايبين والاحتراز من هذا متعذر . هذا وجه ووجه ثان وهو أنه ان بين أنها من صنعة يده تمزق عرضه والغالب أنه يؤول الى سفك دمه واذا كان كذلك فلا يعدل بالسلامة شيء . فاذا سلم من الاتصاف بطلب المطالب والكيمياء فليحذر من خلطة من يتعانى ذلك أو يشار اليه

بشيء ما فان ذلك سبب لاستشراف نفسه بسبب سماعه منهم مايخوضون فيه وذلك يذهب ببهاء عزة الفقر وعزة الاياس اذ لابد لمن خالطهم أن يشغف بشيء مامن حالهم و لوقل وذلك شغل للقلب عما هو فيه من التوجه والاقبال على المولى الكريم فيتعين على من تعلق بالارادة الهرب الكلى ممن يشار اليه بشيء من ذلك لأن حال المريد نظيف جداً والنظيف أقل شيء يقابله من الوسخ يؤثر فيه. ألاترى أن الثوب المصبوغ فى الغالب لايؤثر فيه ماوقع فيه بخلاف الثوب الرفيع الأبيض النظيف فان أقل شيء من ذلك يدنسه. ولهذا المعنى يقال فى صفتهم قلت ذنوبهم لمعرفتهم من أين أصيبوا وكثرت ذنوب غيرهم فلم يعرفوا من أين أصيبوا والكيمياء على الحقيقة انما هى الرجوع الى المولى سبحانه وتعالى والنزول بساحة كرمه وطلب العبد منه مايحتاج اليه من ضروراته لأنه عز وجل كما ورد فى الحديث يستحى أن يرد يدى سائله صفرا. وقد قال عروة بن الزبير رضى الله عنه انى لأدعو الله فى صلاتى لحوائجى كلها حتى الملح لعجينى وقد أوحى الله تعالى الى موسى عليه الصلاة والسلام ياموسى سلنى حتى الملح لعجينك فوعزتى وجلالى لئن منعتك فلا أحد يعطيك اياه أو كما قال وقد روى الترمذى ان النبي صلى الله عليه وسلم (قال ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأله الملح وحتى يسأله شسعه اذا انقطع). فسبيل العبد طلب حوائجه من ربه عز وجل فان جاع يقول يارب أنا جائع وكذلك ان عطش أو تعرى الى غير ذلك من حوائجه كلها فى جلب النفع ودفع الضرر. قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز ﴿أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقال تعالى ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ وقال ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾. فالعاقل اللبيب من شمر عن ساعديه وتوكل فى الحقيقة على ربه وأناب اليه. فاذا حصل للمريد هذا الحال فلو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها

ماقبلها ولا أقبل عليها لما حصل عنده من الاستغناء بربه عز وجل وحسن نظره له اذ أن مفاتيح هداياه لاتنحصر ولاترجع الى قانون معلوم لأنه عز وجل لايأخذه حصر ولا يقال فى حقه أين ولا كيف فكذلك ماستره سبحانه وتعالى عن عبده من عطاياه الجمة وهداياه التى لاحصر لها. وقدحكى عن بعضهم أنه أصابته ضرورة وجوع شديد فتضرع الى الله سبحانه وتعالى فى خلوته وطلب منه العطاء فسمع هاتفا وهو يقول أتريد طعاما أوفضة فقال بل فضة واذا بصرة بين يديه فيها أربعمائة درهم. وقد حكى عن بعضهم أنه كان اذا طلب منه شىء أدخل يده فى جيبه وأخرج ماطلب منه وكان أصحابه ينظرون الى جيبه ويقطعون بأنه لاشىء فيه ثم انه مع ذلك اذا طلب منه شىء فى الحال أدخل يده فى جيبه فأخرج منه ماطلب منه فسئل عن ذلك فأخبر أن الخضر يأتيه بكل مايطلب منه. وقد سمعت سيدى أبا محمد رحمه الله يحكى أنه كان يصحبه رجل من أهل الخير والصلاح يعرف بأبى عبد الله بن الطفيل وكان صاحب عائلة وفقر وكان الناس فى سنة شديدة وغلاء فجاء ليلة بعد أن صلى العشاء الآخرة فى جماعة الى بيته فوجد أولاده يبكون فقال لأمهم مم يبكون فقالت من الجوع قال فتركتهم على تلك الحالة وطلعت على سطح البيت ومرغت خدى على الأرض وقلت يارب هؤلاء يبكون الى وأنا أبكى اليك اعطنا شيئاً نأكله قال فاذا سحابة قد طلعت فجاءت فعمت الدار فأمطرت فولا على الدار وحدها قال فنزلت الى الأولاد وأخبرتهم فطلعوا فأكلوا حتى شبعوا ثم بقى عندهم يأكلون منه الى أن دخل القمح الجديد. وقدتقدمت حكاية سيدى الشيخ أبى محمد رحمه الله فى أنه بقى فى وقت لايحتاج الى أكل ولا شرب قال ولو بقيت كذلك لم احتج الى شىء طول حياتى لكن رجعت الى الأكل من طريق الامتثال للسنة لاغير. فمن رجع الى الله تعالى فطرق الفتح له متعددة فى كل زمان وأوان

ولاحجة لمن يقول ان هذا زمان وذاك زمان. لأن المعطى فيهما واحد لا يتغير ولا يزول. والعجب ممن يتوكل على الله فى نجاته من النار وجوازه على الصراط وشربه من الحوض ودخوله الجنة الى غير ذلك ولا يتوكل عليه فى كسيرات يقيم بها صلبه وفى ثوب يستر به عورته. ولاجل هذا المعنى كان سيدى أبو محمد رحمه الله يقول لوكان الايمان بسوق يباع فيه لما ساوى ايمان أحدكم كسيرة فيسأل عن ذلك فيقول كل واحد منا يتوكل على الله تعالى أن ينجيه من جميع أهوال يوم القيامة بسبب ايمانه ويقول فضل الله أعظم ورحمته أوسع ثم ان الايمان الذى أعده لنجاته من تلك الأهوال ماخلصه للتوكل على الله تعالى فى كسيرات يقيم بها صلبه ويقول لابد من السبب فلوانقطع عنه السبب أيس وضجر وشكا وبكى. فاذا لم يخلص ايمانه فى هذا النزر اليسير فكيف يخلصه مما بين يديه من الاهوال ففضل الله أعظم ورحمته أوسع فى هذا النزر اليسير من باب أولى وأوجب لقوله عليه الصلاة والسلام (لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب) لكن المولى سبحانه وتعالى يبتلى خلقه لينظر كيف يعملون ليقع الجزاء وفاقا كما قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فالسعيد من كان فرحا مسرورا بربه وبحكمه وبارادته ماقتاً لأحوال نفسه ورأيه وتدبيره اللهم لاتحرمنا ذلك بمنك انك على كل شئ قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

فصل فى دخول المريد الخلوة

وينبغى للمريد أن لايدخل الخلوة بنفسه لأن الخطر فى ذلك عظيم لما يخشى عليه من القواطع الرديئة مثل ماتقدم ذكره من حصول عربدة أوجنون أو فعل نشاف أو غير ذلك من المهالك لأن الخطر فيها كثير متعدد. وقد قال لقمان

عليه السلام فى وصيته لولده يابنى عليك بذوى التجارب لأن من جرب قد دخل فى المخاضة وعرفها وعرف موضع السلامة فيها وموضع العطب فعلم ما يتجنب منها وما يحذر وما ينبغى أن يفعل وما يستعان به

﴿فصــــل﴾ وآكد ما عليه فى خلوته التعلق بربه والسكون اليـه وانقطاع رجائه ممن هو مخلوق مثله. ومن كتاب سير السلف للامام الحافظ اسماعيل بن محمد بن الفضل الاصبهانى رحمه الله ولقد قال شقيق البلخى رحمه الله من أراد أن يعرف معرفته بالله فلينظر الى ماوعده الله ووعده الناس بأيهما قلبه أوثق وقال اتق الأغنياء فانك متى عقدت قلبك معهم وطمعت فيهم فقد اتخذتهم ربا من دون الله. وقال اذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت والبس ماوجدت وارض بما قضى الله عليك. وقال من دار حول الشهوات فانه يدور بدرجاته فى الجنة ليأكلها فى الدنيا. وقال يحي بن معاذ الرازى العبادة حرفة وحوانيتها الخلوة ورأس مالها الاجتهاد بالسنة وربحها الجنة. وقال الصبر على الخلوة من علامات الاخلاص. وقال اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس العلماء الغافلين والقراء المداهنين والمتصوفة الجاهلين. وقال الزهد ثلاثة أشياء القلة والخلوة والجوع. وقال على قدر حبك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله يخافك الخلق وعلى قدر شغلك بالله يشتغل فى أمرك الخلق وقال أبو حفص عمر النيسابورى لو أن رجلا ارتكب كل خطيئة ماخلا الشرك بالله وخرج من الدنيا سليم القلب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر له قيل ياأبا حفص هل لهذا فى القرآن من دليل قال بلى قوله تعالى ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ فاتباعه محبة أصحابه لأجله وقال أبو القاسم الحكيم السمرقندى كم من مستدرج بالاحسان اليه وكم من مغتر بالثناء عليه وكم من مفتون بالستر عليه. وقال أبو تراب النخشبى رحمه الله الفقير قوته

ماوجد ولباسه ماستر ومسكنه حيث نزل . وقال حقيقة الغنى أن تستغنى عمن هو مثلك. وقال الذى منع الصادقين الشكوى الى غير الله الخوف من الله و كتب أبو الأبيض كتابا الى بعض اخوانه سلام عليك ورحمة الله وبركاته وانى أحمد الله الذى لااله الاهو أمابعد فانك لم تكلف من الدنيا الانفساًواحدة فان أنت أصلحتها لم يضرك فساد غيرهاوان أنت أفسدتها لم ينفعك صلاح غيرها واعلم أنك لن تسلم من الدنيا حتى لاتبالى من أكلها من أحمر وأسود . قال شقيق ابن أدهم البلخى رحمه الله تعرف تقوى الرجل فى ثلاثة أشياء فى أخذه ومنعه وكلامه . وقال دخل الفساد فى الخلق من ستة أشياء أولها ضعف النية فى عمل الآخرة والثانى صارت أبدانهم رهينة بشهواتهم والثالث غلبة طول الأمل على قرب أجلهم والرابع اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم والخامس آثروا رضى المخلوقين فيما يشتهون على رضى خالقهم فيما يكرهون والسادس جعلوا أدلات السلف دينا ومناقب لأنفسهم . وقال حاتم الاصم الزم خدمةمولاك تأتيك الدنيا راغمة والجنة راغبة . وينبغى أن يكون دخول المريد الخلوة على يدشيخ متمكن فى العلمين علم الحال وعلم السنة ان أمكنه ذلك ولايدخل بنفسه كما تقدم . واذا كان ذلك كذلك فالشيخ لايخلو حاله من أحد أمرين . اما أن يكون عنده من المكاشفات وخرق العادات مايمدبه المريد فى خلوته فان كان كذلك فهو الكبريت الاحمر الذى لايفوقه غيره والسلامة بل الغنيمة موجودة على يده متيسرة لأنه يعرف مزاج المريد وقدر مايحمل من المجاهدات وقدر مايشق عليه منها وقدر مايخاف عليه ومن سعادة المريد ان وجد من هذه صفته . واما أن يكون الشيخ ليس من أهل المكاشفات ولاظهور خرق العادات فلابدأن يكون عنده العلم حاصلا بالتجربة لأنه قدجرب ذلك واطلع على المفاسد والمصالح ومايليق بالمريد فى خلوته ومايقع له من جهة

العادات . والحذر الحذر أن يدخل بنفسه خيفة من مواضع العطب . وأعنى بدخول الخلوة هنا مايستعمله المريد من المجاهدات وأما لوخلا بنفسه دون مجاهدة فلايحتاج هذا الى شيخ يسلكه بل لسان العلم قائم عليه مطلوب به فى الخلاء والملأ لافرق اذذاك فى حقه مع أنه اذا اتبع لسان العلم فى هذا الزمان فى خلوته وجلوته فهو ولى وقته لأجل حال الزمان فما أسعده ان قدر على ذلك وهذه الطريقة هى طريقة السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين أعنى ترك دخول الخلوة على نظام معلوم . ألاترى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يربى أصحابه تحت ظلال السيوف وفى الأسواق يحترفون وفى الحوائط يعملون . وانما حدثت الخلوات على يد المربين بعد انقراضهم رضى الله عنهم . وكان سيدى أبو محمد بن أبى جمرة وسيدى أبو محمد المرجانى رحمهما الله يقولان انما جعلت الخلوة للبنات الأبكار . وانما جعلت للمريدين لما أن كثرت الفتن والمخالفات فاحتاج المريدون اذذاك الى الفرار لأجل صلاح دينهم وقلوبهم وخواطرهم وليس لهم السبيل الى ذلك الا بدخول الخلوات والفلوات . والمقصود أن لايدخل الخلوة المعهودة عند السالكين الا بعد المعرفة بمصالحها ومفاسدها والدسائس التى تطرأ عليه فيها فان كان على يد شيخ فيشترط فى الشيخ أن يكون عارفا بحال المريد ومايتقلب فيه من الأطوار ومايليق بحاله كما تقدم لأن الشيخ له مراتب عديدة وكذلك المريد مثله . وألخص من ذلك ماسمعت سيدى أبا محمد يقوله نظر الأدنى بعين الأدنى يوجب الهلاك ونظر الأعلى بعين الأدنى يوجب الحيرة ونظر الأعلى بعين الأعلى هو السمو والرفعة ونظر الأعلى للأدنى بعين الأعلى يوجب التعب له ولاتباعه ونظر الأعلى للأدنى من جنسه يوجب الراحة له ولأتباعه . أما قوله نظر الأدنى بعين الأدنى يوجب الهلاك . فمثاله النظر الى الدنيا وزينتها بعين التمنى والاشتهاء فذلك يوجب الحرص والحسد والتقاطع والتدابر وهو عين

الهلاك. قال الله تعالى ﴿ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ وكذلك أيضا النظر الى أهل المعاصى لأنك اذا نظرت اليهم فان كنت على معصية فبالنظر لمن يفعل ماهو أكبر منها يهون عليك ماأنت فيه من المخالفة ويصغر فى عينك ذنبك فيكون ذلك سببا الى الزيادة فى المعصية وهذا هو عين الهلاك نعوذ بالله من ذلك . وأما قوله ونظر الأعلى بعين الأدنى يوجب الحيرة. فمثاله المبتدى ينظر الى أهل النهايات فيريد أن يتشبه بهم فى تعبدهم وتصرفهم مرة واحدة فانه لايستطيع ذلك ومن تناهى فى ذلك الشأن لم يكن أخذه لذلك مرة واحدة وانما هم يأخذون الشئ اليسير ويقتصرون عليه ثم يزيدون على ذلك قليلا قليلا حتى يحصل لهم من العلم والتعبد أوفر نصيب وتستغرق أوقاتهم فى ذلك وهم لم يشعروا به ولم يتعبوا فيه لرفقهم وسياستهم وقد قال عليه الصلاة والسلام (ما كان الرفق فى شئ الازانه وماكان الخرق فى شئ الاشانه) وقال عليه الصلاة والسلام (علموا وارفقوا) اللهم الامن ندر من الفضلاء فدخل فى ذلك مرة واحدة فذلك محمود وماندر لايحكم به. نعم اذا وقع للمرء هذا الحال فلاينبغى له التشبث بما قدذكر وانما الكلام فيمن بقى مع نفسه فشأنه ماتقدم عن أحوال من تقدم ذكرهم كيف كان كسبهم ولم اكتسبوه وان لم يفعل ذلك تحير فى طريقه وحير من لاذبه . هذا هو عين الحيرة نعوذ بالله من ذلك . وأما قوله ونظر الأعلى بعين الأعلى هو السمو والرفعة. فمثاله الرجل العالم ينظر لمن هو أعلم منه فيعمل على أن يصل الى ماوصل اليه فيجتهد فى طلب العلم والرجل الصالح ينظر لمن هو أصلح منه فيجتهد فى التعبد ويزيد فى عمله على ماتقدم بالرفق والسياسة حتى يلحق بمن نظر اليه. ولهذا المعنى الذى أشار الشيخ اليه قال عليه الصلاة والسلام (خصلتان من كانتا فيه كتب عند الله شاكرا صابرا أن ينظر فى الدين لمن هو أعلى منه فيقتدى به وأن ينظر فى الدنيا لمن هو أقل منه

فيحمد الله الذى فضله عليه) هذا هو السمو والرفعة اللهم من علينا بذلك ولا تجعل حظنا منه الكلام بمحمد وآله . وأما قوله ونظر الأعلى للادنى بعين الأعلى يوجب التعب له ولأتباعه . فمثاله من كان من أهل الفضل والخير وأقامه الله فى مقام من مقامات أهل النهايات اذا جاءه أحدممن يريد أن يرجع الى الله ويتوب يريد من حينه أن يحمله على المقام الذى هو فيه من غير سياسة تقع له قبل ذلك ولاتدريج هذا هو التعب مع نفسه لاشك فيه لانه يريد أن يحمل الناس على طريقه وهم لايساعدونه على ذلك ومن تبعه فى التعب أكثر لانهم يدعون الى مقام لاطاقة لهم به ولا يقدرون عليه . ولاجل هذا المعنى كان كثير من أهل السبق والخير اقتصر خيرهم على أنفسهم ولم ينتفع بهم من لاذ بهم وبخدمتهم أعنى فى الاقتداء وأما البركة فلا بد من حصولها غالبا للحديث الوارد (هم القوم لايشقى بهم جليسهم) نسأل الله أن لايحرمنا من بركاتهم بمنه وأماقوله ونظر الاعلى للادنى من جنسه يوجب الراحة له ولاتباعه . فمثاله الرجل الصالح المتمكن فى طريقه اذاجاءه أحد ممن يريد التوبة والرجوع أخذه باللطف والرحمة وأقبل عليه وساس حاله برأيه السديد وتدبيره الرشيد فينظر له من جنسه على لسان العلم ما يصلحه وما هو العون له على ماأراد ثم يرقيه بعد ذلك شيئا فشيئا حتى قد يبلغ فى أقل زمان الى المرتبة العليا بحسن تدبير هذا السيد وسياسته اياه . وصاحب هذا الحال هو أعظم من تقدم وأفضلهم وهو الجارى على السنة لأن الله عز وجل لم ينزل الفروض أولا مرة واحدة ولا أمر بالقتال أولا وانما أمر أولا بالتوحيد لاغير وأمر نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بسياسة الناس واللطف بهم فقال تعالى ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ ثم لما أن ظهر المشركون على المؤمنين أمر عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام بالخروج من مكة الى المدينة ولم يأمره بالقتال ثم لما أن كثر المؤمنون وظهرت الكلمة نزلت الفروض شيئا

فشيئا فلما أن تقرر لهم الدين وتقوى أهل الاسلام فعند ذلك أمر عز وجل بالجهاد باللسان قبل الأمر بالقتال فقال عز وجل ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ فلما أن تقوى الأمر أكثر من ذلك أمر عز وجل بقتال الأقربين من الكفار فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ فلما أن تقوى الأمر وظهر أمر الله عز وجل بالقتال مطلقا فقال عز وجل ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ . ثم ان الفروض لم تتم الا فى حجة الوداع قال تعالى فيها ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى﴾ فهو سبحانه وتعالى العالم بعباده وبما يصلحهم فلو كان أمرهم ومخاطبتهم أولا بالقتال وبجملة الفروض فيه مصلحة ومنفعة لهم لأمر بذلك أولا ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ وصاحب الحال الذى أشار الشيخ رحمه الله اليه أخيرا مضى على هذا الأسلوب فانتفع بنفسه واستراح وانتفع الناس به ووجدوا الراحة فى ذلك على يديه وهذا هو الأصل وعليه العمل . وقد قال عليه الصلاة والسلام (خاطبوا الناس على قدر عقولهم) فليس من دخل فى التعبد وتمرن فيه وكثرت المجاهدة لديه كمن ابتدأ الدخول . ولاجل هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام فى السوداء حين سألها أين الله فقالت فى السماء فقال لصاحبها اعتقها فانها مؤمنة فقنع عليه الصلاة والسلام منها بالاقرار بأن الله واحد موجود وذلك ينفى ما كانوا يعتقدون من أن الأصنام هى الآلهة فى الأرض فاله السماء واله الأرض هو الله الواحد الأحد الموجود لا أنه سبحانه وتعالى حل فى السماء تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا اذ أن السماء مخلوقة له ولا يحل الصانع فى صنعته ومعاذ بن جبل رضى الله عنه الذى كانت هجرته قديمة وتمكن من العلم ومن فعل الخير حين سأله عليه الصلاة والسلام كيف أصبحت فقال معاذ أصبحت مؤمنا حقا فقال عليه الصلاة والسلام لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك فلم يكتف

من معاذ باللفظ الأول حتى سأله عن حقيقة ايمانه وقنع من السوداء بما قد ذكرت لأجل ما بينهما من العلم وأنواع التعبد والله الموفق للصواب

(فصل) وينبغى للمريد اذا اجتمع له فى زمانه أو بلده مشايخ يرجو بركتهم وهو بعد لم يسكن الى أحدمنهم فينبغى له أن ينظر الى حاله بعد انفصاله عن كل واحد منهم فمن حصل له بالاجتماع به منهم علم أو انابة أو رجوع فليشد يده عليه وان كان غير ذلك فلا حاجة تدعو الى العودة اذ أن خطاه تبقى لغير فائدة. سمعت سيدى أبا محمد رحمه الله يعيب هذا ويقول لاينبغى للمريد أن يتردد الا لموضع تحصل له فيه فائدة أو فوائد ولا يكون مثل بهيمة السانية (١) لاتزال تمشى طول يومها وهى لم تبرح من موضعها ذلك. ولا ينبغى أن يسيء الظن بمن لم يحصل له منه شيء اذ أن ذلك محتمل لوجهين الأول أن يكون المزور من الأكابر والفضلاء لكن أصحابه معلومون معروفون فخيره مقصور عليهم لايتعداهم فاذا لم يجد المريد زيادة عند زيارته فيعلم أنه ليس له عنده نصيب فتركه ذلك به أولى. وقد يكون آخر خيره مقصورا على نفسه لايتعدى لغيره. ووجه ثالث يفصل فيه بين أن يكون المريد من أهل التمييز لما تقدم ذكره فان كان كذلك فحكمه ماسبق وان لم يكن فى تلك الدرجة فالمواظبة على رؤيتهم واغتنام بركتهم به أولى مالم يعارضه أمر شرعى من ارتكاب بدعة أو رؤيتها أو شيء من المكروهات أو يحصل له بسبب ذلك بطالة أوقاته عما هو بصدده ويكفيه من ذلك زيارتهم فى وقت دون وقت كما تقدم فى زيارة طالب العلم لهم. وبالجملة فأحوالهم فى هذا المعنى لاتنضبط والقليل النادر منهم من يكون خيره عاما لسائر الناس. فالحاصل من هذا أن المريد له اتساع فى حسن الظن بهم وفى ارتباطه على شخص واحد يعول عليه فى أمره ويحذر

(١) السانية كالماشية هى الناقة التى يسقى عليها

من تقضى أوقاته لغير فائدة. قال سيدى أبو مدين رحمه الله عمرك نفس واحد فاحرص أن يكون لك لا عليك. لأن الفكر فيما مضى هو من باب ندب الأطلال كما تقدم والفكر فيما يأتى ادعاء من النفوس تحصيل الأعمال وهو لايعرف مايبرز من العلم المكنون والتقديرات المغيبات عنا وهى كثيرة

﴿فصــــل﴾ وينبغى للمريد أن يكون أشد الناس نظرا الى نعم الله تعالى عليه والى لطفه به واحسانه اليه قال الله عز وجل فى كتابه العزيز ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد﴾ بيان ذلك أن المريد يصبح عليه الصباح فينهض الى صلاة الصبح فى وقتها فى جماعة ويذكر ماقدر له ثم يجلس بعد ذلك فى مجلس علم فيفهم بعضه أوكله ثم يأتى الى من يعتقده فيتكلم معه فى مسائل من الخير ثم يصلى الصلوات الخمس فى جماعة وان فتح له فى شئ من أوراد الليل أو أوراد الصوم فبخ على بخ فان قيد هذه الأشياء بالشكر زادت أوتمادت وان رأى وهو الغالب أنه فى نفسه لاشىء وأنه لم يفتح عليه بشئ فهذا يخاف عليه لقوله تعالى ﴿ولئن كفرتم ان عذابى لشديد﴾ والكفر عام ألا ترى الى قوله عليه الصلاة والسلام فى أمر النساء (انهن أكثر أهل النار قيل بم يارسول الله قال بكفرهن قيل أيكفرن بالله قال يكفرن العشير ويكفرن الاحسان) وقد بوب البخارى رحمه الله لهذا المعنى فقال باب كفر دون كفر وكثير من الناس من يغفل عن هذه النعم فلا يقيدها بالشكر كما تقدم لأجل أنه يستقلها فتذهب عنه فليحذر من هذا كله جهده. ولا يظن ظان أن قول من قال ان الصديقين لا يكونون فى يومهم على ما كان عليه حالهم بالأمس بل يزدادون فى اليوم الثانى ترقيا. ومن ذلك قول عائشة رضى الله عنها كل يوم لاأتخذ فيه برا أوقالت لاأزداد فيه علما لا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم. لأن المؤمن اذا جاءه اليوم الثانى فلا بد له فيه من أداء الفرائض وتوابعها وما يتلقاه من الأمر والنهى والترغيب

والترهيب والتحذير فيتبع ذلك ويعمل على خلاص مهجته فى يومه وذلك ترق لاشك فيه . ألاترى الى قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى أخرجه مالك رحمه الله فى موطئه (ان أخوين مات أحدهما قبل صاحبه بأربعين يوما فأثنى الصحابة على الاول فسأل عليه الصلاة والسلام عن الثانى فقالوا لابأس به فقال عليه الصلاة والسلام ومايدريكم مابلغت به صلاته انما مثل الصلاة كمثل نهر غمر عذب بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فهل ترون ذلك يبقى من درنه شيئاً قالوا لافقال عليه الصلاة والسلام ومايدريكم مابلغت به صلاته) وقد قال بعض الشيوخ أن الدوام على الحال زيادة فيه فاذا أصبح لمريدوامتثل ما كلفه فهو زيادة فى حقه ثم كذلك الى حين أجله فحينئذ تطوى صحيفة عمله فلا زيادة بعدها فان حصل للمريد زيادة على ماتقدم ذكره فبخ على بخ والا فالطريق حاصل له والحمد لله فليحذر أن يكفر هذه النعم بترك النظر الى من من عليه بها وأحسن اليه فيها

﴿فصـــل﴾ وينبغى للمريد أن يكون عارفا بالخواطر حسنها وسيئها فاما أن يميز ذلك بنفسه أويكون على يد شيخ عارف بها اذ أن الخواطر والهواجس والهواتف لاتنحصر أعدادها ولا يمكن حصرها لكثرتها وتشعبها فأشكل عليه أكثر مايقع منها وتلبس الأمر عليه فان وقف مع مايقع له من ذلك قل أن يتخلص ويذهب عليه أكثر زمانه بغير عمل لان اللعين اذا لم يقدر على المريد من جهة الترك أتاه من وجوه أخر لاتنحصر فاذا كان مميزاً للخواطر وغيرها انسدت هذه الثلمة الكبرى . والخواطر أربعة ربانى وملكى ونفسانى وشيطانى . سمعت سيدى أبا محمد رحمه الله يقول الربانى أولها وهو مثل لمحة البرق لا يثبت والنفسانى يعقبه مثل المصلى مع السابق فما يمر ذاك الا وقد استقر هذا فى محله وحدث وسوس وشهى ولأجل هذا المعنى وقع الخلف عند بعض من ينسب الى شئ

من هذا المعنى وماذاك الا لسرعة ماتقدم ذكره فيخبرون بأشياء قبل أن تقع فى الغالب وان وقعت فبالمصادفة لان ذلك من جهة أخبارهم وأما المحققون المميزون للخاطر الأول فقل أن يخبروا بشىء الا و يقع كما أخبروا به لأن ماكان من عند الله فهو واحد لايختلف قال تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ وهذه الخواطر ليست خاصة بالشيوخ والمريدين بل هى موجودة فيهم و فى غيرهم لكن التميز يختص به من يختص ومع ذلك فمن تحقق بهذه الخواطر فلا بد لها أن يزنها على لسان العلم فما وافق أمضاه والا تركه لان التكليف لايقع الا من جهة الشرع المنقول وغير ذلك لايعول عليه الا على سبيل التبع والتأنيس . وأما الخاطر الملكى فهو كل خاطر يأمر بطاعة أو خير ما اذا كان سالما من الوصول الى مالاينبغى أو يتوقع معه ترك أو بطالة وقت فان كان كذلك فليس من الملكى فى شىء . وأما الخاطر الرابع وهو أرذلها وهو الخاطر الشيطانى فهو لايأمر بخير أصلا الا أن يكون ذلك الخير يؤدى الى الشر و يقع الفرق بين الخاطر النفسانى والشيطانى بأن الشيطان لايريد الا الوقوع فى المخالفة كيف كانت ومن حيث كانت فان عجز عن هذه المعصية تركها وأتى الى معصية أخرى فهو ينتقل من حال الى حال اذ مقصوده انما هو المخالفة من حيث هى كائنة ماكانت والخاطر النفسانى هو الذى يلزم أمرا واحدا لايفارقه فان أنت رددته عليه ألح به عليك وقال لابد من وقوعه و يمنيك بالتوبة والاستغفار بعده و يعدك بالغرور وأنك اذا نلت ماألقته اليك تفعل أنت ماتحب أن توقعه من الطاعات فيحتاج المريد الى التشمير الى معرفة هذه الخواطر حين نزولها به ومايترتب عليه من الأحكام فيها فان لم يكن عارفا بها ولم يكن تحت نظر شيخ يرجع اليه عند اشتباه الأمور عليه فيأخذ معه فيها والا فلسان العلم عليه قائم وهو المرجوع اليه عند الاختلاف وهو طريق

السلامة التى لاشك فيها والعطب فى غيرها موجود غالبا الا لمن عرف الحكم عليه فى ذلك والله الموفق

فصل جامع لبعض آداب السلوك ولبعض الآثار عن السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين

ومع ماتقدم ذكره فلا بد له من الخلوات اذ أنه بسببها يدرك المكلف ماهو فيه من الخطر ومن النعم ومن تحف المولى سبحانه وتعالى ويتبين له بها أشياء كثيرة مما مضى عليه سلفه . ألا ترى الى بركة هذه الحكم التى ينطقهم الله بها اذ أن ذلك ليس فى قوتهم ولامن قدرتهم الا ببركة توجههم واقبال المولى سبحانه وتعالى عليهم وأعظم مايتوصلون به الى هذا المعنى التزام الخلوات كما تقدم . فانظر رحمنا الله واياك الى مانقله الامام الحافظ اسماعيل ابن محمد بن الفضل الأصفهانى رحمه الله فى كتاب سير السلف له عن أبى حازم رحمه الله ونفع به وأعاد علينا من بركاته أنه قال قد رضيت من أحدكم أن يتقى على دينه كما يتقى على دنياه وقال شيئان هما خير الدنيا والآخرة اذا عملت بهما أتكفل لك بالجنة ولاأطول عليك قيل وماهما قال تحمل ماتكره اذا أحبه الله وتترك ماتحب اذا كرهه الله . وقال أيضا قاتل هواك أشد ماتقاتل عدوك . وقال رجل له انك مشدد فقال مالى لاأشدد وقد رصدنى أربعة عشر عدوا أما أربعة فشيطان يفتننى ومؤمن يحسدنى وكافر يقاتلنى ومنافق يبغضنى وأما العشرة فالجوع والعطش والعرى والحر والبرد والهرم والمرض والفقر والموت والنار ولاأطيقهن الا بسلاح ولا أجد لهن سلاحاأقوى من التقوى . وقيل له مامالك فقال ثقتى بالله واياسى مما فى أيدى الناس وقال مارأيت يقينا لاشك فيه أشبه بشك لايقين فيه من شئ نحن عليه وقال ينبغى

للمؤمن أن يكون أشد حفظا للسانه منه لموضع قدميه وقال أفضل خصلة ترجى للمؤمن أن يكون أشد الناس خوفا على نفسه وأرجاه لكل مسلم. وقال بعضهم ان لم يكن فى المبتدى خمس خصال والافلا ترجه عقل حسن واتباع للسنة وصحبة الأكابر ومن أين يأكل وحفظ لسانه وصيانته أوكما قال. ومن كتاب سير السلف أيضا وقد قال أبو سفيان اذا رأيت العالم لا يتورع فى علمه فليس لك أن تأخذ عنه شيئاً. وكان يقول وضعوا مفاتيح الدنيا على الدنيا فلم تنفتح و وضعوا عليها مفاتيح الآخرة فانفتحت. وقال رجل للجنيد من أصحب قال من تقدر أن تطلعه على مايعلمه الله منك وسئل مرة أخرى من أصحب قال من يقدر أن ينسى ماله و يقضى ماعليه. وقال قدمشى رجال باليقين على الماء ومات على العطش أفضل منهم يقينا. وقال من عرف الله لا يسر الا به. وقال لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة كان مافاته أكثر مما ناله. وقال من نظر الى ولى من أولياء الله بقلبه وأكرمه أكرمه الله على رؤس الاشهاد. وقال ذوالنون المصرى رحمه الله من علامات المحب لله متابعته حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته. وقال من نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته. وقال رويم رحمه الله لا تزال الصوفية بخير ماتنافروا فاذا اصطلحوا هلكوا. وقال بن حنيف رحمه الله قلت لرويم أوصنى فقال أقل مافى هذا الأمر بذل الروح فان أمكنك الدخول فيه مع هذا والا فلا تشتغل بترهات الصوفية. وقد قيل أن لقمان عليه السلام كان عبدا أسود نوبيا وكان لبنى فلان فقيل له مابلغ بك مانرى فقال تقوى الله وطول الصمت وترك مالا يعنينى. ومن كتاب سنن الصالحين وسنن العابدين للقاضى أبى الوليد الباجى رحمه الله قال و روى عن أبى الدرداء أنه قال لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوما الظمأ لله بالهواجر والسجود فى جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون

خيار الكلام كما تنتقى أطايب الثمر . وروى عن بلال بن سعد أنه قال زاهدكم راغب ومجتهدكم مقصر وعالمكم جاهل وجاهلكم مغتر . وقال بعض الحكماء جاهد نفسك بأصناف الرياضة والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام والغمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الارادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الأذى البلوغ الى الغايات فليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر عند الأذى . وقال عيسى عليه الصلاة والسلام طوبى لمن خزن لسانه ووسعه بيته وبكى على خطيئته . وقال الفربرى اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هو زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان احفظ فيه لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ماتعرف ودع ماتنكر . وقال كعب الاحبار رحمه الله والذى نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله تعالى حتى تسيل دموعى على خدى أحب الى من أن أتصدق بجبل من ذهب . وقال وهب بن منبه فقد زكريا ابنه يحيى عليهما الصلاة والسلام فوجده بعد ثلاث مضطجعا على قبر وهو يبكى فقال له ماهذا يابنى فقال أخبرتنى أن جبريل أخبرك أن بين الجنة والنار مفازة لا يطفىء حرها الا الدموع فقال ابك يابنى . وقال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب الى من أن أتصدق بألف دينار . وقال ابراهيم بن أدهم ان للذنوب ضعفا فى القوة وظلمة فى القلب وان للحسنات قوة فى البدن ونورا فى القلب . وقيل لسفيان الثورى رحمه الله لو دعوت الله عز وجل فقال ترك الذنوب هو الدعاء وأنشدوا

خلقت من التراب فصرت حيا   وعلمت الفصيح من الخطاب

وعدت الى التراب فظلت فيه كأنى مابرحت من التراب
خلقت من التراب بغير ذنب وأرجع بالذنوب الى التراب

ولقى حكيم حكيما فقال له انى لأحبك فى الله فقال لو علمت منى ما أعلم من نفسى لأبغضتني فى الله فقال له الاول لو أعلم منك ماتعلمه من نفسك لكان لى فيما أعلمه من نفسى شغل عن بغضك . وكان الربيع بن خيثم اذا قيل له كيف أصبحت قال أصبحنا ضعفى مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا وقيل للمغيرة كيف أصبحت ياأبا محمد فقال أصبحنا معترفين بالنعم موقرين بالذنوب يتحبب الينا ربنا وهو غنى عنا ونتباغض اليه ونحن اليه فقراء . وقد قيل لابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى من أين عيشك فقال

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا مانرقع

وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله كيف أصبحت فقال أصبحت طويلا أملى قصيرا أجلى سيئاً عملى . كلام الباجى رحمه الله . ومن كتاب سير السلف أيضا وقال بشر ابن الحارث رحمه الله سمعت منصورا يقول لما خلق الله آدم قال انى جاعل لبصرك طبقا فاذا عرض لك أمر لايحل لك أن تنظر اليه فاطبقه وانى جاعل لفيك طبقا فاذا عرض لك أمر لايحل لك أن تنطق به فاطبقه وانى جاعل لفرجك سترا فلا تكشفه على مالا يحل لك . وقد قال بعضهم الأصحاب ثلاثة صاحبك وصاحب صاحبك وعدو عدوك والاعداء ثلاثة عدوك وعدو صاحبك وصاحب عدوك . ومن كتاب الباجى أيضا رحمه الله وروى عن بعض العلماء أنه قال انما يدخل الله الجنة من يرجوها وانما يجنب الله النار من يخشاها وانما يرحم الله من يرحم . وقال لقمان لابنه يابنى خف الله خوفا لاتيأس فيه من رحمته وارجه رجاء لاتأمن فيه من عقابه فقال ياأبتاه وكيف وانما لى قلب واحد فقال يابنى ان المؤمن لو شق قلبه لوجد فيه نور رجاء ونور خوف لو وزنا لم يمل

أحدهما بصاحبه. وقال عبد الله بن دينار قال لقمان لابنه يابنى كيف يأمن النار من هو واردها وكيف يطمئن الى الدنيا من هو مفارقها وكيف يغفل من لا يغفل عنه يابنى لاشك فى الموت فانك كما تنام كذلك تموت ولاشك فى البعث فانك كما تستيقظ كذلك تبعث يابنى ان الانسان لثلاثة فمنه لله ومنه لنفسه ومنه للدود والتراب فأما ما كان لله فروحه وأما ما كان لنفسه فعمله خيراً كان أوشرا وأما ما كان للدود والتراب فجسده. وقال سفيان الثورى ماأمن أحد على دينه الاسلبه. وقال أبوحنيفة أكثر مايسلب الناس الايمان عند الموت وقال ابليس لعنه الله اذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لم أطلبه بغيرها اذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وقال ابن القاسم قال مالك بلغنى أن عيسى ابن مريم قال له رجل من أصحابه انك تمشى على الماء فقال له عيسى وأنت ان كنت لم تخطىء خطيئة مشيت على الماء فقال له الرجل ماأخطأت خطيئة قط فقال له عيسى فامش على الماء فمشى ذاهبا وراجعا حتى اذا كان فى بعض البحر واذا هو قد غرق فدعا عيسى ابن مريم ربه فأخرج الرجل فقال له مالك ذهبت ورجعت ثم غرقت أليس زعمت أنك لم تخطىء خطيئة قط قال ماأخطأت خطيئة قط الا أنى وقع فى نفسى أنى مثلك. وروى عن عاصم قال أم أبو عبيدة بن الجراح قوما مرة فلما انصرف قال مازال بى الشيطان آنفا حتى رأيت أن لى فضلا على من خلفى لاأؤم أبدا. ويروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال ما كانت الدنيا هم رجل قط الالزم قلبه أربع خصال فقر لايدرك غناه وهم لاينقضى مداه وشغل لاينفد لأواه وأمل لاينقطع منتهاه وقال الأصمعى قيل لبعض الصالحين كيف حالك قال حال من يفنى ببقائه ويسقم بسلامته ويؤتى من مأمنه. وقال بعض الحكماء ان كان شىء فوق الحياة فالصحة وان كان شىء فوق الموت فالمرض وان كان شىء يعدل الحياة فالغنى وان كان شىء يعدل الموت فالفقر

انتهى كلام الباجى رحمه الله . و يروى عن على بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد فى كل يوم وليلة ألف سجدة وكان يسمى السجاد . وقد أنشد بعضهم

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال الشيخ الامام أبو عبد الرحمن الصقلى رحمه الله من أراد أن يحبه الله عز وجل وأن تدعو له الملائكة و يحشر فى زمرة النبيين و يعظم قدره عند الاولياء فليطع الله فيما أمره به ونهاه عنه وليلزم المنهاج الاول . وروى أن الله تعالى أوحى الى نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هب لى من قلبك الخشوع ومن عينيك الدموع ثم ادعنى أستجب لك فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان . ومن كتاب سير السلف أيضا وقال محمد بن أسلم الطوسى لخادمه يا أباعبد الله ان معى فى قميصى من يشهد على فكيف أكتسب الذنوب انما يعمل الذنوب جاهل ينظر فلا يرى أحدا فيقول ليس يرانى أحد أذهب لأذنب أما أنا فكيف يمكننى ذلك وقد علمت أن داخل قميصى من يشهد على ثم قال ياأبا عبد الله مالى ولهذا الخلق كنت فى صلب أبى وحدى ثم صرت فى بطن أمى وحدى ثم دخلت الدنيا وحدى ثم تقبض روحى وحدى وأدخل قبرى وحدى ويأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى فان صرت الى خير كنت وحدى وان صرت الى شر كنت وحدى ثم أقف بين يدى الله تعالى وحدى فان بعثت الى الجنة بعثت وحدى وان بعثت الى النار بعثت وحدى فمالى وللناس ثم فكر ساعة ووقعت عليه الرعدة حتى خشى أن يسقط ثم رجعت اليه نفسه ثم قال ياأباعبد الله أصل الاسلام فى هذه الفرائض وهذه الفرائض فى حرفين ماقال الله ورسوله افعل ففعله فريضة ينبغى أن يفعل وماقال الله ورسوله لاتفعل فتركه فريضة ينبغى أن ينتهى عنه

﴿فصـــل﴾ وينبغى للمريد أن يتفقد حاله فى الاجتماع باخوانه ولا يواظب على الخلوة و يترك التبرك بهم و بسماع فوائدهم مع التحفظ عليهم وعلى نفسه جهده

قال الشيخ الامام أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله فى كتاب آدب الصحبة له الصحبة على وجوه لكل وجه منها آداب ولوازم . فالصحبة مع الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه ودوام ذكره وتلاوة كتابه ومراقبة الاسرار أن يختلج فيها مالا يرضاه والرضا بقضائه والصبر على بلائه والرحمة والشفقة على خلقه وماينحو نحوه من هذه الاخلاق الشريفة والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته واجتناب البدع وتعظيم أصحابه وأهل بيته وأزواجه وذريته ومجانبة مخالفته فيما دق وجل وما يجرى مجراه . والصحبة مع أصحابه وأهل بيته بالترحم عليهم وتقديم من قدموه وحسن القول فيهم وقبول قولهم فى الاحكام والسنن فان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وقال عليه الصلاة والسلام (انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى) والصحبة مع أولياء الله تعالى بالخدمة والاحترام لهم وتصديقهم فيما يخبرون به عن أنفسهم وعن مشايخهم لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى (من أهان لى وليا فقد آذننى بالمحاربة) والصحبة مع السلطان بالطاعة الا أن يأمر بمعصية أو بمخالفة سنة فاذا أمر بمثل هذا فلا سمع له ولا طاعة والدعاء له بظاهر الغيب ليصلحه الله ويصلح عن يديه والنصيحة له فى جميع أموره والصلاة والجهاد معه . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (الدين النصيحة قالوا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) والصحبة مع الوالدين ببرهما بالنفس والمال وخدمتهما فى حياتهما وانجاز وعدهما والدعاء لهما فى كل الأوقات ماداما فى الحياة وحفظ عهدهما بعد الممات وانجاز عاداتهما واكرام أصدقائهما فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه) وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة قال (بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذجاءه

رجل من بنى سلمة فقال يارسول الله هل بقى على من بر أبوى شئ أبرهما به بعد وفاتهما قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما واثبات عهدهما واكرام صديقهما وصلة الرحم التى لاتوصل الا بهما) والصحبة مع الأهل والولد بالمداراة وحسن الخلق وسعة الصدر وتمام الشفقة وتعليم الكتاب والسنة والأدب وحملهم على الطاعات قال الله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراوقودها الناس والحجارة﴾ الآية وقال عليه الصلاة والسلام (رحم الله والدا أعان ولده على بره بالافضال عليه) والصفح عن عثراتهم والغض عن مساويهم مالم تكن اثما أومعصية . والصحبة مع الاخوان بدوام البشر وبذل المعروف ونشر المحاسن وستر القبائح واستكثار قليل برهم اليك واستصغار مامنك اليهم وتعهدهم بالنفس والمال ومجانبة الحقد والحسد والبغى والأذى ومايكرهون من جميع الوجوه وترك مايعتذر منه . والصحبة مع العلماء بملازمة اكرامهم وقبول قولهم والرجوع اليهم فى المهمات والنوازل وتعظيم ماعظم الله من محلهم حيث جعلهم خلفاء نبيه عليه الصلاة والسلام وورثيه فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (العلماء ورثة الأنبياء) والصحبة مع الضيف بحسن البشر وطلاقة الوجه وطيب الحديث واظهار السرور والكون عند أمره ونهيه ورؤية فضله واعتقاد المنة له حيث أكرمه بدخول منزله وتناول طعامه وقال بعضهم

من دعانا فأبينا فله الفضل علينا
فاذا نحن أتينا رجع الفضل الينا

فصل فى آداب صحبة الأعضاء

اعلم أن لكل جارحة من الجوارح آدابا تختص بها . فآداب البصر أن ينظر الى أخيه نظر مودة ومحبة يعرفها هو منك ومن حضر المجلس ويكون نظره الى

محاسنه والى حسن شئ يبدومنه وأن لايصرف عنه بصره فى وقت اقباله عليه وكلامه معه. وآداب السمع أن يستمع الى حديثه سماع مشته لما يسمعه متلذذبه وكذلك اذا كلمك لاتصرف بصرك عنه ولاتقطع حديثه بسبب من الأسباب فان اضطرك الوقت الى شئ من ذلك استعذرته فيه وأظهرت له عذرك . وآداب اللسان أن تكلم اخوانك بما يحبون فتختار وقت نشاطهم لسماع ماتكلمهم به وتبذل لهم نصيحتك وتدلهم على مافيه صلاحهم وتسقط من كلامك ماتعلم أن أخاك يكرهه من حديث أولفظ أوغيرهما ولاترفع عليه صوتك ولاتخاطبه بمالا يفهم عنك وتكلمه بمقدار فهمه . وآداب اليدين أن يكونا مبسوطتين لاخوانه بالبر والمعونة لايقبضهما عنهم وعن الافضال عليهم. وآداب الرجلين أن يماشى اخوانه فلايتقدمهم بل يكون تبعاً لهم فان قربوه تقرب اليهم بقدر مايعلم من رغباتهم ثم يرجع الى موضعه ولا يقعد عن حقوق اخوانه معولا على الثقة بهم لأن الفضيل بن عياض قال ترك حقوق الاخوان مذلة

﴿فصل﴾ اعلم وفقنا الله واياك أن هذه الآداب المذكورة انما هى آداب الظواهر وهى عنوان على آداب السرائر . ألاترى الى ماروى فى الآثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال عليه الصلاة والسلام لوخشع قلب هذا لخشعت جوارحه . واذا كان ذلك كذلك فمراعاة الباطن أوجب من مراعاة الظاهر لأن الظاهر للخلق والباطن للخالق وما كان للخالق فهو أوجب فلو جمع بينهما فهو الكمال والسعادة لمن اتصف بهما . وصفة اخلاص الباطن التحقق بالتوكل على المولى سبحانه وتعالى والخوف منه والرجاء فيه والاتصاف بالصبر وسلامة الصدر وحسن ظنه بربه وحسن ظنه باخوانه المؤمنين والاهتمام بأمورهم فاذافعل ماتقدم ذكره قوى الرجاء أن يكون من الموقنين

﴿ فصـــل ﴾ قال الشيخ الامام أبو عبدالرحمن الصقلى رحمه الله الاخوان أربعـة أخ كالدواء وأخ كالغذاء وأخ كالداء وأخ كالدفلى . فالأول معدوم والثانى مفقود . والثالث موجود . والرابع مشهود . أما الأول الذى هو كالدواء فهو مثل المشايخ الذين أهلهم الله تعالى لتربيـة المريدين وكالصلحاء والعلماء فهم قدوة للمقتدين ومجالستهم تشفى الاسقام ظاهرا و باطنا . وقد كان المريدون قبل هذا الزمان يدخلون الى خلواتهم فان حصل لهم عجز أو كسل خرجوا الى مجلس واحد من هؤلاء الشيوخ فتنتعش قواهم بسماع كلامه ورؤيتهم له و يمدهم بهمته فيتغـذون بذلك و يرجعون الى خلواتهم أنشط ما كانوا أولا فهم دواء للخلق أجمعين وأنت ترى تعذر هذا الزمان غالبا ممن هذه صفته . وأما الذى هو كالغـذاء فهو مثل الأخ فى الله تعالى المشفق الودود الحنون الذى يؤلمه مايؤلمك و يسره مايسرك ويجوع نفسه لجوعك ويتعرى لعريك و يكابد مانزل بك أكثر من مكابدة مانزل به وأنت ترى فقده فى هـذا الزمان لـكن بين الفقد والعدم فرق وهو أن المعدوم لايوجد البتة والمفقود قد يوجد فى موضع ما . سمعت سيدى أبا محمد رحمـه الله يقول مراتب الاخوان ثلاثة لارابع لهـا . فالأول أن يكون أخوك عندك مثل أبيك وهو أعلاهم . والثانى أن يكون مثل أخيك الشقيق وهو أوسطهم . والثالث أن يكون عنـدك مثل عبدك وهو أقل الاخوان مرتبة فان عجزت عن ذلك فلا أخوة اذ ذاك أعنى الاخوة الخاصة بالفقراء وأما أخوة الاسلام فهى حاصلة . فأما الأخ الذى يكون عندك مثل أبيك فهو حال المريد مع شيخه اذ أنه ليس للولد مع أبيه حديث فى شىء لقوله عليه الصلاة والسلام (أنت ومالك لأبيك) فحال المريد مع شيخه من باب أولى اذ أن المريد ليس له تصرف ولا اختيار فى كل مايحاوله الا برضا شيخه واذنه . وأما الذى عندك كأخيك الشقيق فهو حال المريد مع اخوانه وهو أقل رتبة من الأول

لأن الأخ الشقيق يقاسم أخاه فى جميع الأشياء فان أخذ الأخ دينارا أودرهما أوثوبا أوغير ذلك أخذ الأخ مثله فكذلك حال المريد مع اخوانه بهذه الصفة ان لبس ثوبا كسا أخاه مثله وان أكل طعاما أطعم أخاه منه أومثله الى غير ذلك . المرتبة الثالثة وهى أقل الدرجات فى الاخوة وهى أن يكون عندك مثل عبدك أعنى أن العبد يجب عليك أن تقوم بضرورته من غذائه وكسوته ومايحتاج اليه من ضروراته فى صلاح دينه ودنياه وكذلك المريد مع أخيه اذ أنه لايشبع المكلف وعبده جائع ولا يلبس وعبده عريان الى غير ذلك . وقد خرج البخارى من حديث سعد المعرور بن سويد قال رأيت أبا ذر الغفارى وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألناه عن ذلك فقال انى سابيت رجلا فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم أعيرته بأمه ثم قال (ان اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم مايغلبهم فان كلفتموهم مايغلبهم فأعينوهم) فان تعذرت عليه هذه المرتبه الثالثة فينبغى أو يتعين عليه أن لايدعى الأخوة لعجزه عن القيام بحقها اذ أنه قد يشبع وأخوه جائع وقد يلبس وأخوه عريان فيوجب على نفسه حقا له لم يكن عليه فتعمر الذمة بالحقوق لغير ضرورة شرعية . وهذا المعنى قد كثر فى هذا الزمان فاذا أحسنوا الظن بأحد من الفقراء طلبوا منه الاخوة فان أجابهم لما طلبوه وجبت عليهم حقوق كثيرة ثم انهم ينصرفون بعد الاخوة معه ولا يرجعون اليه غالبا بعد ذلك ولا يعرفون كيف حاله أبات جائعا أم لا أوهو عريان أم لا . وقد يكون منهم من يتفقده لكن بالرؤية والسؤال ليس الا دون اعانة ومشاركة فشغلوا ذمتهم بشىء كانوا فى غنى عن ترتبه فيها . ألا ترى أن العبد اذا لم يقدر السيد على نفقته وكسوته أمره الشرع ببيعه فالبيع فى حق العبد مقابله فى حق الأخ فانك اذا عجزت عن المرتبة الثالثة نزلت

أخاك منزلة بيع العبد عند العجز كما تقدم . يشهد لذلك ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أن آخى بين المهاجرين والأنصار كان الأنصارى يقول لأخيه من المهاجرين عندى من المال كذا وكذا فلك نصفه ولى نصفه ولى من الزوجات كذا وكذا فاختر منهن ماتريد أنزل لك عنه وكان المهاجرى يسأل عن السوق وعن الحيطان يعمل فيها فهذا أصل مقرر فى الشريعة المطهرة . وقد حكى أن بعضهم جاء لزيارة أخيه فقيل له انه فى الموضع الفلانى وكان ذلك الموضع لايدخله أحد الا للمخالفة فتأوه وقال أخى يقع وأنا بالحياة فرجع الى بيته ودخل خلوته وعزم أن لايخرج منها الا بأخيه فجاء أخوه الى بيته فأخبر بمجيئه اليه وسؤاله عن حاله فجاء مستغفرا تائبا الى بيته فسأل عنه فقيل له انه دخل الخلوة فقال أخبروه بأنى قد تبت الى الله تعالى ورجعت اليه فما خرج اليه الا بعد أن تحقق قضاء حاجته فيه فينبغى أن تكون المؤاخاة على هذا الأسلوب فان رأيت أخاك قد غرق فتأخذ بيده وتنجيه من المهالك فان لم تكن لك قدرة فلا تدعها اذ أن من ادعى ماليس فيه فضحته شواهد الامتحان . وأما القسم الثالث من التقسيم الأول للامام الشيخ الصقلى رحمه الله وهو قوله والثالث موجود فلا شك أنك اذا خالطت كثيرا من الناس فى هذا الزمان أو عاشرتهم بملابسة ماتجد من كثير منهم الأذية البالغة اما فى دينك أو دنياك أو عرضك وهذا هو الداء الذى لاشك فيه فان أنت خالطته وجدت ماذكره رحمه الله . وأما القسم الرابع الذى قال عنه أنه مشهود فلاشك فى مباشرة ذلك فى هذا الزمان . ألا ترى أنك اذا تكلمت مع أحد منهم فى صلاح دينه فى شىء ما قابلك بانزعاج وخلق سيىء وأقل جوابه أن يقول لك ماحقرت فى الناس الا أنا حتى تأمرنى وتنهانى أو يتسلط عليك بذاءة لسانه وينظر لك عورات يظهرها أو حسنات يخفيها أو يردها سيئات وهنا فيه من المرارة بحيث المنتهى كما هى الدفلى اذا تناولت منها شيئاً وقد يفضى ذلك

الى العدم اذ قيل انها سم فيتعين عليك أن تفر ممن هذه صفته فالعاقل اللبيب من شمر عن ساعديه و بالغ فى الفحص عن القسمين الأولين فياسعادته ان ظفر بأحدهما كما قيل

واذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

فان عدمهما فيتعين عليه الخلوة والاعتزال ان أراد السلامة اذ أن الاجتماع بالناس انما يحتاجه المريد للزيادة لاللنقص فاذا علم أنه مايحصل له فيه الا النقص فليحذر منه جهده و يستعين بربه مع سلامة صدره لهم وحسن ظنه بهم عموما والله المستعان

﴿فصـــل﴾ من كلام بعضهم بعضه باللفظ و بعضه بالمعنى . و ينبغى للمريد أن يكون نظره للخلق بعين الرحمة والشفقة والتودد وذلك يقع منه على وجوه فاذا نظر اليهم بالرحمة فسبيل العلم بفقرهم واذا أحسن الظن بهم فسبيله طلب السلامة لهم بالميل الى حزب الفائزين . واذا احتمل الأذى منهم فسبيله الرحمة لهم . واذا جازى على السيئة بالحسنة فسبيله التخلق بالأخلاق المحمودة واذا راعى حق كل ذى حق وان صغر فسبيله التخلق بأخلاق الشاكرين واذا تناسى الشر جملة فسبيله تطهير القلب من دنس هواجس النفوس فى حق اخوانه المسلمين . واذا عاملهم بالسخاء فسبيله البعد من صفة البخل والتشبه بأهل الفضل واليقين بالخلف وليحذر من أن يطلب الخلف الفانى اذ أن كل ماجاءه من الدنيا فهو ذاهب فان . واذا عاملهم برفع الأذى عنهم جملة فسبيله عدم الفراغ والاشتغال بوظائف التكليف . واذا عاملهم برؤية الحسن منهم فى كل شىء والتعامى عن القبيح فى كل شىء فسبيله الغيرة فى مشاهدة المحاسن والاشتغال عن القبائح بعيوب النفس مع حسن الظن بهم فى بعض المواطن . واذا تواضع لله فسبيله اجلال الربوبية واظهار العبودية . واذا تواضع للخلق فيكون ذلك منه دون

تماوت وانما يفعله لاعتقاد الأثرة(١) لهم عليه واذا أظهر ذلك لهم فى بعض المواضع فسبيله احتقار النفس ورؤية عيوبها وحسن الظن بالمؤمنين . واذا ترك التعجب وهو أن لا يرى لنفسه شيئاً حسنا فسبيله العلم بأنه لا فاعل للاشياء الا الله سبحانه وتعالى فيلازم نفسه الافتقار اليه جل وعلا . واذا أخلص العمل لله بأن لا يريد بصالح عمله سوى الله تعالى فسبيله الخوف الشديد من حبط الأعمال مخافة توقع الرياء فيقدر الخلق فى حزب العدم فانهم لا يملكون له شيئاً . واذا استشعر اطلاع الحق عليه فسبيله ترك الفراغ وهو أنه لا يمر عليه وقت الا وهو مشغول بالله تعالى فيحصل له بسبب ذلك الربح أو جبر رأس المال . واذا ترك المباح فسبيله عمارة الوقت بالواجبات والمندوبات . واذا أحب المساكين وخدمهم وأماط الأذى عنهم وأدخل السرور عليهم بارفادهم والعون لهم واظهار البشر واحتمال الجفاء والاختلاط بهم والتلطف فى نصح من زل منهم فسبيله طلب حط الأوزار والظفر بمحبة الملك الغفار . واذا ترك المزاح جملة فسبيله الاهتمام بسالف الذنوب . واذا راعى الفرض بطلب أدائه كما وجب فسبيله طلب التقرب الى الله عز وجل . واذا أحسن لكل مخلوق يجوز الاحسان اليه فسبيله طلب الاتصاف بالمحامد . واذا ترك الشهوات فسبيله العلم بعاقبتها ومآلها وطلب الرقى عن الأرضيات . واذا قلل الطعام بحيث لا يدخل عليه به ضرر فسبيله التحقق للعبادة والتهيؤ للفهم عن الله تعالى والاقبال على المعرفة به سبحانه وتعالى . واذا لبس الدون من الثياب مع مجانبة الشهرة واقتصر على الضرورة فسبيله خوف الحساب . واذا ترك التنعم بملاذ الطيبات فسبيله التشبه بأولياء الله . واذا ترك الهمز والاحتقار بالخلق فسبيله طلب التبرى من صفة الجاهلين . واذا ترك الفرح بامور الدنيا والآخرة فسبيله الجهل بالعاقبة وعدم المبالاة بالدنيا . واذا

(١) الأثرة بالضم المكرمة

ترك الحزن على مافات فسبيله شغل الوقت بالخدمة والايمان بالقدر . واذا واصل الاحزان خوفا من السابقة والخاتمة فسبيله طلب التقرب من الله تعالى بانكسار القلب وجمع الهم واذا جمع همومه عليه فسبيله الفرار من تفرقة القلب فى شعاب الغفلة . واذا فوض أموره لله تعالى بطرح نفسه بين يديه دون اقتراح عليه فسبيله استعمال الأدب مع جلال الربوبية . واذا توكل على الله لثقته بالمضمون فسبيله شغل الوقت بالتكليف . واذا ترك رؤية الأسباب حتى استوى عنده وجودها وعدمها فسبيله افراد الحق بالخلق والتبرى من الشرك الخفى والجلى كالخبز لايشبع والماء لايروى والثوب لايدفىء وكذلك الأمور العادية كلها . واذا ترك التملق لغير العلماء فسبيله العلم بأنه لا يملك الضر والنفع الا الله سبحانه وتعالى وذلك بخلاف التملق للعلماء وهو التواضع والتذلل لهم . واذا افتقر الى الله تعالى فى حركاته وسكناته فسبيله اظهار صفة العبودية . واذا غاب عن الخلق بباطنه ولم يسع اليهم بظاهره فسبيله سد باب الأنس بالمخلوق . واذا ترك الاقبال على أحاديث العامة وترك التشوف لها بصون قلبه عنها وعمارته بذكر الحق فسبيله سد باب المحنة واطفاء نار الفتنة وخوف خسران الآخرة . واذا كانت نفس المريد متطلعة لأحاديث الناس لم يفلح أبدا . واذا علم أن استفتاح باب الخير كله وسد باب الشر كله فى نفس أداء المفروضات اذ هى معيار القلب وبها تتبين الزيادة والنقص ولا يتوصل الى ذلك الا ببذل الجهد وجمع النفس ومحض الصدق وشدة الخوف ومواصلة الحزن حتى اذا استطعت أن تموت حين تفتتح الصلاة فمت فسبيل ذلك كله قربك من الله . واذا أردت أن تعرف منزلة قربك عنده فملازمة الجد بحيث لا يكون لغير الحق فيك موضع وسبيله مراقبة الحق واجلال الربوبية . واذا أردت عزة النفس وصيانتها عن سؤال المخلوقين دقت الحاجة أو جلت فسبيله طلب كل حاجة من الله تعالى أدبا مع الربوبية . ومن

آكد مايحتاج اليه المريد فى ذلك أن لاينزل نفسه فى صورة مرشد ولا موص ولامتكلم بالحكمة ولا بالمسائل الفقهية ولكن ليشغله من نفسه شاغل بسبب طلبه العلم . ومن كتاب سير السلف قال ابراهيم الخواص دواء القلوب خمسة أشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلاء الباطن وقيام الليل والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين . وقال أيضا التاجر برأس مال غيره مفلس . ومن كلام ن بن رزق رحمه الله ياهذا هلا حجرك عقلك عن ان تبوح بسرك الى أحد من الخلق أو أن تشكو حالك فى دين أو دنيا اليهم أو تتكلم بما لايعنيك أو تجيب الى أمر لاتتحقق رشده ولاتأمن ضرره ياهذا اجعل ربك موضع شكواك وقلبك خزانة سرك والزم مراقبة مولاك فى كل حال يرد عليك فان رأيت خيرا فاحمد الله وان رأيت شرا فافتقر فيه اليه وانظر الى الخلق هيا كل مصرفة وأسبابا مسخرة ولا تشكر أحدا منهم على فضل الله الا على قدر ماأباحته الشريعة وحسبك من ذلك أن تقول جزاك الله خيرا وترى الفضل كله من مولاك فاشكره بكليتك فهو أهل لذلك حقيقة وشكر سواه مجازكما أن فعل غيره مجاز لان الافعال كلها صادرة عن المولى الكريم وحده لاشريك له

﴿ فصـــل ﴾ فان كان المريد له تعلق بالاولاد فينبغى أن لايهمه شأنهم ولينظر الى ماسبق فيهم من القدر ويعلم أن الملك لايضيق عن رزقهم وأن ما كتب لهم لن يفوتهم وما كتب عليهم لن يفوتوه وأن وجوده وعدمه فى حقهم سيان اذ أنه لايملك لهم شيئا ثم انهم ان كانوا لله أولياء فلن يفعل الله معهم الا خيرا وان كانوا غير ذلك فلا حيلة له فى دفع المضار عنهم وليقل قد استودعتهم لمن لا تخيب لديه الودائع فليطرح الهم فيهم جملة واحدة ان عقل وليظن بمولاه خيرا والسلام

﴿ فصـــل ﴾ فان ابتلى المريد عند الاجتماع بالناس وخلطتهم بالاذية والجفاء منهم فيتعين عليه أن ينظر فى أمرهم ويرجع الى حاله و يفتش خبايا نفسه

فى الذى قيل فيه فقد يكون حقا فان وجده فى نفسه علم اذ ذاك أن من قال فيه ماقال انما هو نذير جاءه من عند ربه ليتوب أو يوتع به النكال فيحتاج الى المبادرة الى التوبة والرجوع ويرى الاحسان والفضل لمن قال فيه ماقال . وان لم يجد ماقيل عنه فيه فيحتاج الى ثلاثة أشياء . أحدها أن يمتثل السنة بالدعاء الوارد فى ذلك حيث يقول عليه الصلاة والسلام (من رأى منكم مبتلى فليقل الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا) ولاشك أن الابتلاء فى الدين أعظم من الابتلاء فى البدن سيما اذا انضاف الى ذلك تعلق حق الغير به فهو أعظم فى الابتلاء . هذا وجه . الوجه الثانى أنه يتعين عليه الشكر من وجهين . أحدهما أن يشكر الله تعالى على سلامته مما قيل فيه . الثانى وهو الوجه الثالث أنه يتعين عليه الشكر فى أن الله تعالى سلمه مما وقع أخوه فيه اذ لو كان الأمر بالعكس لكان بلاء بينا اذ الغالب فيه عدم السلامة أسأل الله العافية بمنه وقد تقدم ذلك . ومن كتاب يمن بن رزق رحمه الله من ساءه الذم وأعجبه المدح فذلك ذكر الصورة خنثى العزيمة . وقال لو قال لى قائل ان من لم يأخذ بحظه من الفقر لم يجد طعم الايمان لما خالفته ولو أخبرنى مخبر أن تسعة أعشار العافية فى الخمول والغنى عن الناس لصدقته . وقال حمل النفس على الصبر فى مواطن الامتحان حيلة حسنة فى التخلص وان أبطأ . وقال من وطن نفسه على أن الدنيا دار نصب وتعب لم ينكر ما نزل به منها مادام فيها وأخذ من الراحة بحظه ومن توهمها منزل راحة لم يقدر الراحة قدرها اذ أتته وكان تعبه فيها مضاعفا . وقال تقديم صدق اللجأ الى الله عز وجل فى مبادى الحاجات عنوان على نجح غاياتها وقال افتكر فى الموت تهن عليك المصائب . وقال مارأيت أفقه من النفس يعنى فى شهواتها وملذوذاتها ولا أجرأ من اللسان ولا أشد تقلبا من القلب ولا أعدم من الاخوان ولا أقل من الاخلاص ولا أكثر من الأمل

وقال الصمت وغض البصر مفتاحان لأبواب القلوب. وقال من أحب أن لاتكون له منزلة عند الناس تربع فى بحبوحة(١) العافية. وقال ليس الا دنيا وآخرة فان أردت الجمع بينهما رمت محالا وذهبتا عنك معاً فاختر لنفسك. وقال الضرورات تدعوا الى شر كثير وفى الصبر على المكروه خير كثير. وقال يحسن بالمؤمن أن يكون ثوبه مرقعا ونعله باليا ومسكنه خلقا ففى ذلك أعظم تذكرة وأكبر شاهد على الغنى وأحث باعث على ترك الطمأنينة الى الدنيا ومن كان يستعمل الجديد من كل شىء قلت عبرته وكان حب العاجلة أغلب على عقله. وقال اطمع فى رحمة الله عز وجل على أى حال كنت من التفريط ولا تأمن مكره على أى حال كنت من الاجتهاد واياك واليأس من مولاك فانه قطع للسبب بينك وبينه واحذر الامانى فانها اغترار به واعلم أن الكافر لو علم سعة رحمة الله ما يئس وان المؤمن لو علم كنه عقاب الله لمات خوفا والسلام. وقال اذا كان الماضى لايرجع والمقدر لايتبدل فاطراح الهم سعادة معجلة. وقال خمس يؤلمك غمها فى الدنيا وهى فى الآخرة أشد ايلاما الا أن ينالك عفو الله عز وجل فاستقلل منها أو استكثر المزاح وكثرة الكلام والتعرف بالناس وافشاء سرك اليهم والشكوى بحالك الى الخلق. وقال لقد رابنى ما أراه من كد الخلق للدنيا وقصر همتهم عليها فى ايمانهم ولقد رابنى ما أراه من مكالبتهم عليها وفرط جنوحهم اليها فى عقولهم والعجب منهم وهم على هذا الحال انك ان نطقت لهم بالحقيقة سخروا منك وان سكت عنهم اتهموك وان مازحتهم فى دين أو دنيا أهلكوك وان تركتهم لم يتركوك فلا راحة معهم ولا سلامة دونهم حسبى الله ثم حسبى الله منهم. وقال رجلان اكره رؤيتهما وأحب الفرار منهما ليأسى من فلاحهما غالبا طالب كيمياء وطالب ملك. وقال رحمه الله من تسامى الى رتب لايقتضيها حاله ولا حليته وآثر هواه وأمنيته عاش

(١) البحبوحة. بضم الباءين وسط الدار

دهره فى تعب ونصب ولم يبلغ الغاية التى يسعى اليها ومن تقاعد عن الرتب التى يمكنه بلوغها عاش مهينا ملوما ومن توسط بين الحالين فتناول منها ما كان له صالحا استحق اسم النبل(١) وكان عيشه هنيئاً وقلبه لله تعالى خاشعا. وقال أنا لا أصدق قول من قال مكالمة الجاهل سجن للعقل. وقال الراحة فى الدنيا لأحد ثلاثة فقير صالح أوغنى عاقل أو أحمق مبخوت. وقال ياهذا ان كان العجب من الناس مرة فالعجب منك ألف مرة فقد بان لك بالتجربة المستبينة والدلائل البينة أن مكالمة الناس غنمها ندامة والصمت عنهم سلامه ثم لا يصرفك ذلك عن الحذر معهم والخوض فى أحاديثهم وكلهم مقهورون لطباع أنفسهم سامعون من حالهم مبصرون بعيون رؤسهم الامن رحم ربك وقليل ماهم فما يصغى اليك منهم غالبا الا متهم أو مكذب أوغير محصل فاصحبهم بصمت ولا يكون كلامك لهم الا جوابا بما لا ادرك فيه عليك فى دين أودنيا فان أنت صبرت على أذاهم كفيتهم واياك أن تنتصر لنفسك فتوكل اليها وسلم الأمر الى مولاك وافتقر اليه تجده والسلام. وقال الالتفات الى الناس تعب فى العاجل وندامة فى الآجل لأن عامتهم مابين جاف متعسف أو بطر متكلف فليس التأثير بالأول بأسوأ من الاغترار بالثانى فالرأى أن يعدا جميعا فى حزب العدم حتى لا تأثير للاضطرار اليهم ولا للجفاء مع امتثال الأمر والنهى فيهم واعتقاد الرحمة والصلة لكل مسلم والذى يعين على ذلك بتوفيق الله تعالى الاقبال على مايعنيك والصبر فى طريق الحق فانك اذا وافقت الشريعة ولاحظت الحقيقة لم تبال بمن خالف رأيك من الخليقة. وقال من تفكر فيمن سلف ونظر فى المعادهان عليه جفاء الخلق ولم يغتر بلطفهم. وقال رحمه الله الزم الصمت عند محاضرة من تكرهه وتكلم مع من لك فى كلامه فائدة. وقال من علم أن له ربا

(١) النبل بضم النون الفضل وبابه ظرف

يفعل مايريد خاف وحزن ولم يفتر ومن علم ان له ربا ضمن لعباده أرزاقهم لم يشغله طلب المضمون عما كلف ومن علم ان له ربا من لنقطع اليه كفاه توكل بالحقيقة عليه ومن علم ان له ربا لافاعل للموجودات الا هو اقتصر فى كل مرام اليه ومن علم ان له ربا رقيبا على كل شيء استحى منه حق الحياء. وقال من نظر الى الدنيا بعين البصيرة فرأى تقلبها بأهلها وانزعاجهم عنها لم يطمئن اليها ومن نظر الى الآخرة بعين البصيرة فتخيل نعيمها وعذابها وأيقن أنه وفد عليها عمل لها. وقال الزم الفضل واترك الفضول واغتنم وقتك تفز بخير الدنيا والآخرة فبملازمة الفضل تنال الشرف وبترك الفضول تنال السلامة وباغتنام الوقت تنال الربح وفى هذه الثلاثة مجموع خير الدنيا والآخرة. وقال ليس الا عيش الدنيا أو عيش الآخرة ولن يجتمعا. فالأول مادته الأرضيات وهو عيش النفس. والثانى مادته العلويات وهو عيش الروح وقد علمت المبدأ والغاية فاختر أيهما شئت والسلام. وقال ياهذا الأخذ بالاحتياط نجاة ولاخير فى صحبة غير الله. وقال ماأحقك بالنوح على نفسك. ماأولاك بالقاء التراب على رأسك. ماأغفلك عما حل بك. أنسيت عظائمك. أم أمنت عقاب ربك. بادر يامسكين واحذر سد الباب وقطع الأسباب. واستنزل بكف الضراعة رحمة مولاك العزيز الوهاب. وقال اذا سافرت فالتزم فى الطريق مع أهل الرفقة الصمت ولا تتكلم معهم الا جوابا يسيرا من القول لفظة أو نحوها. فان سئلت من أين فقل من أرض الله. فان قيل لك ماشغلك فقل أبتغى فضل الله. فان قيل لك مااسمك فقل عبد الله. فان تصامت لهم فحسن. واذا دخلت بلدا فلا تصحب فيه أحدا صحبة توجب عليك حقا. واحسم التعارف البتة. وافتقر الى الله فى حوائجك فانه لا يضيعك ان شاء الله فانه ليس زمان صحبة ولا مصادقة وانما هو زمان الوحشة والغربة والفرار من الناس مبلغ الوسع. وقال خلقان لأرضاهما للفتى. بطر الغنى

ومذلة الفقير . فاذا غنيت فلا تكن بطرا . واذا افتقرت فته على الدهر . وقال رحمه الله الدنيا دار بلاء والبلاء لفظ مشترك تحته أنواع من التعب والمشقات كفرقة الأحباب وذهاب المال وأذى الناس والاسقام والجوع والعطش والقمل والذباب والعقارب والحيات والسباع وفقد الوطن والبرد والحر والعرى والشهوات كشهوة البطن والفرج الى غير هذا مما لايكاد ينحصر فما وقع منه فلا تنكر وقوعه فى محله ولاتستغربه وانما المستغرب فيها المسرات لأنها ليست بدار لها ولاتقابل شيئاً من البلاء الا بالصبر وتوطين النفس عليها متى وقع منها شئ والاستعانة بالله تعالى فى زيادة البصيرة والامداد بالمعرفة . وقال من تفكر فى أمسه وغده غنم مافى يده من يومه . وقال بالله المستعان واللجأ اليه عنوان النجح . والقرآن حبل العصمة. والسنة طريق السلامة . والفكرة مفتاح الرشد . والهمم مثيرات العزم والتبصر ثمرة الصدق. والظفر نتيجة الصبر. والاستغاثة درج الوصول. والتضرع أمارة التخلص. والسحر مظنة الاجابة. والالحاح مقدمة المحبة. والتواضع سلم الشرف. والسخاء خلق الايمان . والزهد شعار التقوى . والتوكل حرفة المعرفة . والتفويض علم السعادة . والخوف أثر الجد . والرجاء افادة الجهد ورحمة الخلق دليل الطهارة . واحتمال الأذى عين الفتوة . والجزاء على الاساءة بالاحسان خلق النبوة . وتلاوة القرآن بالحضور عيش الروح ومخالفة الهوى قتل النفس . وذكر الله رأس مال العابدين . من ترك الشهوات قرع الباب ومن ترك الحظوظ رفع الحجاب . قيام الليل بستان العارفين . الأحوال مبلغ القوم . من رأى لنفسه فضلا على شئ من خلق الله تعالى حتى الكلاب فهو أحد الفراعنة السلو عن المتروك على قدر المعرفة بالمطلوب . من هانت عليه نفسه فهى على غيره أهون . ومن صحب التسويف أداه الى الفوت . ومن فاته مولاه غرق فى بحر الياس الدنيا سلامتها غرر . ولذاتها قذر . قال الشاعر

فخير لباسها نفثات دود　　وخير شرابها قئ الذباب
وأشهى ماينال المرء فيها　　مبال فى مبال مستطاب
وعن قرب يعود الكل تربا　　بلاشك يكون ولا ارتياب

وقال كنت قد رأيت فى كتب بعض الحكماء ان أربعة لاينبغى للعاقل أن يأمنها فطلبتها فى حفظى فلم أجد منها سوى واحدة وهى المرأة وان أبدت الود وأظهرت النصح. ولا يبعد عندى أن يكون الثانى السلطان وان أبدى التقريب والمصافاة. وأن يكون الثالث المال وان كان جما وافرا. وأن يكون الرابع الزمان وان كان مطاوعا مسالما. فرب مخدوع بهذه الأربعة فخانته أوثق ماكان بها وأسلمته أميل ما كان اليها. وقال الراحة كلها فى الرضا باختيار الحق لك والتعب كله فى اختيارك لنفسك. ومدافعة الأيام شيمة الكرام. واغتنام الوقت بالمبادرة الى العمل واطراح الأمل سعادة. وانتظار الفرج بالصبر عباده. وقال ياهذا اذا رأيت انسانا لم تازمك الضرورة اليه ففر منه فرارك من الأسد أوأشد وان قدر اجتماعك معه مفاجأة فاقتصر فى الكلام معه واعتذر له بشغل واتركه بسلام أما تذكر أن تعبك فى الدنيا قديما وحديثا انما جاءك من معرفة الناس

﴿فصـــل﴾ وينبغى للمريد أن تكون أوقاته مضبوطة لكل وقت منها عمل يخصه من الأوراد فلا يقتصر فى الورد على ماسبق من الصلاة والصوم بل كل أفعال المريد ورد. قد كان السلف رضوان الله عليهم يقولون جوابا لمن طلب الاجتماع بأحد من اخوانه ويكون نائما هو فى ورد النوم. فالنوم وما شاكله هو من جملة الأوراد التى يتقرب بها الى ربه عز وجل. واذا كان كذلك فيكون وقت النوم معلوما كما أن وقت ورده بالليل يكون معلوما وكذلك اجتماعه باخوانه يكون معلوما. وكذلك الحديث مع أهله وخاصته يكون معلوما كل ذلك ورد من الأوراد اذ أن أوقاته مستغرقة فى طاعة ربه عز وجل فلا يأتى الى

شيء مما أبيح له فعله أو ندب إليه الا بنية التقرب الى الله تعالى وهذا هو حقيقة الورد أعنى التقرب الى الله تعالى وهذا على جادة الاجتهاد والفراغ من الصحة والسلامة من العوائق والعوارض أو من حال يرد يكون سببا لترك شيء من ذلك ألا ترى أن المندوب فى حق المريد بل الذى يتعين عليه أنه اذا حصل له بكاء أو تضرع أو خشية يستمر فى ذلك ولا يقطعه اذ أن المقصود انما هو حصول مثل هذه الأشياء فاذا حصلت للمريد فقد حصل على فريسته فليشد يده عليها ويغتنمها لئلا تنفلت منه فقل أن يجدها ولأجل هذا المعنى قال الاستاذ أبو سليمان الدارانى رحمه الله اذا لذت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد . واذا لذ لك الركوع فلا تقرأ ولا تسجد . واذا لذ لك السجود فلا تقرأ ولا تركع الأمر الذى يفتح عليك فيه فالزمه . أرأيت انسانا يطلب شيئا فاذا وجده تركه . وقد تقدم هذا المعنى قبل ولا يقتصر فى هذا على الصلاة ليس الا بل هو عام فى كل أمر أراده فلو حصل له شيء من هذا فى الاجتماع بالاخوان فلا ينتقل منه أيضا بل هذا آكد لاجتماع بركة الاخوان وهى متعددة بخلاف مالو كان وحده وان كانت الخلوة فيها الفضيلة العظمى كما تقدم لكن فى الاجتماع بالاخوان الخير المتعدى حسا لاستمداد بعضهم من بعض والمقصود أن تكون أوقاته وحركاته وسكناته وأنفاسه فى الخلاء والملأ مضبوطة بالاتباع فى كل ذلك . وينبغى أن يقتصر فى أوراده على القليل مثل ما تقدم فى أوراد المتعلم سواء بسواء فان حصل له شغل أو شيء من العوائق فلابد من اقامتها اليسارة الا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا عمل عملا أثبته وقد تقدم ذلك فى المتعلم . وينبغى له أن يكون أشد الناس حرصا على عمل السر لما تقدم أن عمل السر يفضل الجهر بسبعين درجة وما هو بهذه المثابة فيتأكد تحصيله على ماينبغى . واذا كان كذلك فلا يخلو حاله من أحد أمرين اما أن يكون فى بيته وحده أو مع غيره . فان كان وحده فقد حصل له

عمل السر من غير كلفة . وان كان مع غيره أعنى من الأهل وما شابههم . فلا يخلو اما أن يكون فيهم من يرجو أن يقتدى به أم لا فان كان كذلك فاظهاره أولى وقد تقدم أنه لايخرجه ذلك عن عمل السر معهم . ثم الأمر فى ذلك بحسب حال الوقت اذ أن من الأهل أو الاخوان من اذا رأى شيئا من أعمال البر يواظب عليها من يعتقده بادرت نفسه الى فعل ذلك أو شىء منه . وهذا فيه خير كثير لما ورد (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) فان علم أنه ليس فيهم من يقع ذلك منه فالسر أولى به . وقد تقدم فى المتعلم أنه ان وجد الخلوة عن أهله كان به أولى . فالمريد بهذا المعنى أولى بل أوجب لأن المريد لايزال فى عمل السر فى غالب أوقاته فيعود عليه آثار ذلك وبركته حتى يصل الى عمل سر فيما بينه وبين ربه عز وجل لايطلع عليه الحفظة . وقد ذكر الامام أبو طالب المكى رحمه الله فى كتابه عن بعضهم أنه ظهرت له الحفظة وناشدوه الله تعالى أن يدخل عليهم سرورا بحسنة من حسناته يظهرها لهم ليسروا بها لأن الحفظة يفرحون بحسنة العبد حين يعملها أكثر من فرح العبد بها يوم القيامة حين يرى ثوابها وما ذاك الا أن رسل الملك لايريدون أن يرجعوا اليه الا بما يعلمون أنه يحبه بخلاف العكس فانهم يكوهونه لكراهية الملك له . وهذا الذى حكاه رحمه الله ظاهره مشكل لأن الفرائض لابد من اظهارها وهى أكبر الأعمال وأزكاها . لما ورد فى الحديث عنه عليه الصلاة والسلام عن ربه (لن يتقرب الى المقربون بأحب من أداء ماافترضت عليهم) الحديث بكماله . والحفظة يشاهدون ذلك ويكتبونه . فيتعين أن يحمل ماذكره على الأوراد التى هى من أعمال القلوب وهى الفكر والنظر والاعتبار اذ أن الله عز وجل تجلى لخلقه وظهر بآياته وبطن بذاته فهو الظاهر بما دل عليه من مصنوعاته الباطن بذاته فلا يقال أين ولا كيف ولا متى لأنه خالق الزمان والمكان الى غير ذلك من صفاته الجليلة

واذا كان ذلك كذلك فمن كان فى حال التجلى فهو مستغرق الأوقات حتى لا يرى غير ماهو فيه لكثرة ماهو فيه من النعيم اذ التجلى ليس شئ من النعم أعلى منه فى الدنيا والآخرة. ولا يعكر على ماتقدم ذكره من قول الحفظة ماورد أن المكلف اذا نوى الحسنة خرجت على فمه رائحة عطرة واذا نوى السيئة خرجت على فمه رائحة منتنة لأن هذا قد نوى بقلبه مانواه فهو عمل من أعمال القلب دلت عليه الرائحة الصادرة عنه بخلاف مانحن بسبيله اذ التجلى ليس من عمل العبد ولا من حيلته بل هو فيض من المولى سبحانه وتعالى وتفضل منه وامتنان على من خصه واختاره من خلقه فى كل زمان وأوان فينبغى للمريد ان كانت له همة سنية أن يعمل على تحصيل هذا المقام السنى لأن المولى سبحانه وتعالى كريم منان وهذه الأمة والحمد لله فيها البركة الشاملة بخيرهم ومقامهم الخاص بهم لايزول ولا يحول الى أن يأتى أمر الله تعالى. واذا كان الأمر كذلك فلا يقطع المريد اياسه من الوصول الى حالهم السنى ولا ينظر فى ذلك لنفسه ولا لحيلته وقوته واجتهاده لأنه مهما نظر الى ذلك قطع به بل ينظر الى فضل المولى سبحانه وتعالى ونعمه المترادفة عليه. وليحذر أن يكون بهيمى الطبع لايرى النعم الا فى المأكول والمشروب والسعة فى الرزق لأن هذا ليس من حال المريد فى شيء بل هو من حال أبناء الدنيا والله عز وجل من كرمه واحسانه وفضله وامتنانه يعطى لكل قاصد ماقصده. وقد تقدم أن المريد غنيمته مافاته من الدنيا وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله يقول المريد لايحتاج لشيء من الأشياء فقلت له أليس يحتاج الى الأكل والشرب واللباس فقال نعم لكن طعام المريد الجوع وكسوته العرى فهو يجد ذلك فى كل موضع يحل فيه واذا كان كذلك فلايحتاج الى أحد. والمقصود والحاصل أنهم قد طرحوا أمور الدنيا خلف ظهورهم وأقبلوا بكليتهم على ربهم وأسندوا أمورهم اليه وتوكلوا بالحقيقة عليه

فانعم عليهم وقربهم واجتباهم وحماهم وتجلى لهم بصفاته الجليلة الجميلة أسأل الله تعالى أن لا يحرمنا ذلك بمحمد وآله صلى الله عليه وسلم فانه ولى ذلك والقادر عليه.

وما تقدم ذكره من أن المريد يقتصر على الأعمال المتقدم ذكرها انما ذلك فى حال بدايته ثم يأخذ نفسه بالتدريج والترقى فى الزيادة قليلا قليلا حتى يستغرق أوقاته فى أنواع العبادات وهو لم يجد لذلك مشقة ولا تعبا فى الغالب وقد تقدم ذلك لكن المريد فى بداية أمره يمشى على ماسبق من أوراد المتعلم وأما نهايته فلا حد لها لأنهم قالوا أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى وكلامهم ضرورة فلا ينام المريد الا غلبة وقد تقدمت حكاية بعضهم فى السنة التى أخذته وهو جالس فى مصلاه حين صلى ركعتى الاشراق فعرك عينيه وقال أعوذ بالله من عين لا تشبع من النوم . ومن كان نومه على هذه الصفة فلا يمكنه أن يتهيأ لحالة النوم ولا للاذكار المذكورة عنده اذ حال المريد لا ينضبط بقانون معلوم لكثرة اجتهاده وتحصيله وأحوالهم فى أعمالهم قل أن تنحصر . لكن يحافظ على السنة ويشديده عليها . وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله يعجبه ماحكى عن بعضهم أنه كان اذا جاء الى فراشه دخل على جنبه الأيمن ثم يرجع على الأيسر ثم يرجع على الأيمن ثم يقوم فيتوضأ ويصلى ركعتين ثم يقول اللهم انك تعلم أن خوف نارك منعنى الكرى فيقوم حتى يصبح فكان يعجبه منه محافظته على السنة حتى فى الفراش وان كان يعلم أنه لا يتأتى منه النوم فاذا كان المريد على هذا الحال أعنى محافظته على السنة فى كل أحواله فهو المقصود الأعظم لا يفوقه غيره نسأل الله تعالى أن لا يحرمنا ذلك بمنه انه الكريم الوهاب بمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما كثيرا

فصل فى قدوم المريد من السفر ودخوله الرباط

اعلم وفقنا الله واياك أن آكد ما على المريد اتباع السنة واتباع السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين فيشد على ذلك يده وليحذر أن يميل أو يغتر بما قد أحدثه بعض الناس من أفعال لم تكن لمن مضى . وقد تقدم أن الخير كله فى الاتباع وعكسه فى الابتداع وأن هذه الطائفة أكثر الناس اتباعا للسنة المطهرة ومافاقوا على غيرهم الا بذلك لأنهم اختصوا بثلاثة أسماء فقراء ومريدين وصوفية فالفقير من افتقر فى كل أحواله الى ربه عزوجل وسكن بقلبه اليه وان كانت الخواطر تلدغه فهو لايلتفت اليها و يفتقر الى ربه و يعول عليه والمريد من أراد ربه دون كل شئ سواه وكان غاية طلبه ومناه وسلم من لدغات الخواطر ومجاهدتها لارادته لربه وايثاره على ماسواه. والصوفى من صفى باطنه وجمع سره على ربه وشاهد عيانا جميل صنعه فأسند الامور كلها اليه فهم الذين قربهم الله واجتباهم وخلع عليهم خلع احسانه ولحضرته السنية ارتضاهم واذا كان الأمر كذلك فهذا مقام خاص بهم والثوب النظيف أقل شئ يدنسه . وقد تقدمت حكاية سيدى الشيخ الجليل أبى على بن السماط رحمه الله فى دخوله المسجد حين قدم رجله اليسرى فغشى عليه لأن هذه الطائفة شعارها الاتباع وترك الابتداع فان وقع لهم شئ مامن مخالفة السنة رأوه أمرا عظيما فأقلعوا عنه فى وقتهم وجددوا التوبة مع الله تعالى ورأوا أن ذلك بسبب ذنب تقدم فعجلت لهم عقوبته فتضرعوا الى الله وابتهلوا اليه مع وجود التوبة النصوح منهم . واذا كان الأمر كذلك فيتعين على المريد أن لايسامح نفسه فى شئ مما يخالف الاتباع ولو قاله من قاله . فليحذر من البدع التى قررها بعض الناس . وقد اختلفوا فيها على ثلاثة أنحاء فمنهم

من استحبها وأنكر على من تركها وهذه طريقة أكثر أهل الشرق. وذهب بعضهم الى أن من فعلها ومن لم يفعلها سيان لاعتب على تاركها ولا حرج على فاعلها. وذهبت الطائفة الثالثة وهم المحققون المتبعون للسنة وللسلف الصالح من الامة رضى الله عنهم أجمعين الى التصريح بأن ذلك بدعة ممن فعله أو استحسنه وقال لاحرج على فاعله لمخالفته للسنة المطهرة. وقد كان سيدى أبو الحسن الزيات رحمه الله يقول من أعجب الأشياء صوفى سنى يعنى بذلك والله أعلم ما نحن بسبيله من العوائد المحدثة التى ليس لها أصل فى الشرع ترجع اليه فمن ذلك ماذهب اليه بعضهم من أن المريد اذا ورد البلد وقصد دخول الرباط وهو المسمى فى عرف العجم الخانقاه فالرباط مأخوذ من الربط لأن ساكنه مرابط فيه وهذا الاسم أولى به ألا ترى أنهم يحبون رؤية القيد فى النوم ويكرهون الغل فهذا منه. ولهم فيما أحدثوه اصطلاح لاينبغى أن يعرج عليه لكن لما أن كثر وقوعه والقول به والانكار الشديد على من ترك شيأ منه واتبع السنة المطهرة تعين الكلام فيه على من تعين عليه وهو أنه اذا قصد دخول الرباط كما تقدم يشمر كميه و يبتدى فى ذلك باليمين وهذا اذا أراد دخول الرباط أو يتناول شيئاً طاهرا وأما ان أراد أن يدخل الخلاء فانه يبتدى بتشمير كمه الأيسر و يبالغون فى هذه الأشياء و يسمونها آدابا. حتى أنه قد حكى عن بعض من توغل فى هذا الشان أنه خدم شيخه سنين متطاولة فلما أن كان فى بعض الأيام أراد أن يدخل الخلاء فشمر كمه الأيمن قبل الأيسر فقال له شيخه أين تريد فاستفاق لخطئه على زعمهم فقال ياسيدى الى بغداد فسافر اليها. فانظر رحمنا الله واياك الى تبديل الخاطر المعجل بمخالفة سنة واحدة كيف وقع بها هذا فى أمرين عظيمين. أحدهما تعب السفر الطويل وترك جمع الخاطر فى الحضر و بركته. والثانى اخبار شيخه بما ليس فى باطنه وطائفة الصوفية برآء من ذلك

كله . ثم اذا شمر أكمامه يشد وسطه بشيء و يأخذ العكاز بيده اليمنى والابريق بيده اليسرى و يجعل السجادة على كتفه الأيسر مطوية وهذا فيه مافيه لان اتخاذ السجادة من البدع التى أحدثت فكيف يتخذها الفقير . وقد كان كثير من السلف رضوان الله عليهم لايحول بين وجوههم و بين الأرض حائل لاحصير ولا غيره وما ذاك الا لاتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ألا ترى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما شكوا اليه ما يجدونه من ألم السجود على الارض لم يشكهم ومعنى ذلك أنه لم يزل شكواهم . ألا ترى الى ما ورد (مسح الحصباء مسحة واحدة وتركها خير من حمر النعم) و لا يرد على هذا حديث الخمرة لأن ذلك محمول على شدة الألم الذى يوجد فى ذلك الوقت بخلاف الألم الذى تحمله البشرة فلا يرخص فيه . والخمرة هى شيء مضفور من الخوص قدر ما يضع المصلى عليه الوجه واليدين اذا سجد . وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يسجد و لا يحول بين وجهه و بين الأرض شيء لاتباعه السنة وتواضعه . وهذه الطائفة أولى الناس بالاتباع والتواضع وهو الآن داخل الى الرباط وهو موضع طاهر لايدخله فى الغالب الامن هو متحفظ على دينه فلا حاجة تدعو الى السجادة وانما هى عوائد انتحلت و وقع الاستئناس بها والعوائد كلها مطروحة لأن السنة هى الحاكمة على الناس كلهم فضلا عن المريد . ثم يأمرونه اذا دخل الرباط أن لا يسلم على أحد و لا يسلم عليه أحد واعتلوا لذلك بأن المريد لا يذكر الله تعالى الا وهو على وضوء والسلام اسم من أسماء الله تعالى فاذا سلم على أحد أو سلم عليه أحد فقد يكون على غير وضوء فيحتاج الى ذكر اسم الله تعالى وهو على تلك الحالة أو يترك رد السلام وهو واجب فأمروه بترك السلام لأجل هذا وهذا أيضا مخالف للسنة اذ أن السنة مضت على أن المكلف يسلم على من عرف ومن لم يعرف فكيف باخوانه وما تقدم من ذكر تعليلهم لذلك فليس بالبين لان الشارع

صلوات الله عليه وسلامه لم يمنع من ذكر الله فى حال من الاحوال الا فى حال موضع الخلاء فانه يكره ولا بأس بذكر الله تعالى هناك عند الارتياع وما يشبهه وليس بمكروه والسنة عند لقاء المؤمن لأخيه السلام لا بعد جلوسه واستئناسه . ثم يأمرونه عند ارادة دخوله الرباط أن يقعد عند الباب ثم يخرج اليه من فى الرباط من الشبان أو بعضهم فيؤذونه بالشتم ويقلون الأدب عليه ويخرقون حرمته ويكسرون الابريق الذى معه ويفعلون ذلك به مرة بعد أخرى حتى ييأسوا من غضبه ويعللون فعلهم ذلك بأن يقفوا على حسن خلقه وحمله للاذى اذ أن هذه الطائفة لا تنتصر لنفسها وهم أشد الناس كظما للغيظ وعفواً عن الناس وهذا التعليل ليس بالبين لان الوارد اذا علم أنه اذا انزعج لذلك وغضب لا يدخلونه الرباط فانه يصبر اذ ذاك على أذيتهم لأجل ما يرجو من حاجته وان كان سيء الخلق ما عسى أن يكون فانه يستعمل ضده فى هذا الموطن والحالة هذه . ثم يخرج اليه الخادم فيأخذ السجادة عن كتفه وهو ساكت لا يسلم أحدهما على الآخر ويدخل الخادم والوارد يتبعه حتى اذا حصل فى وسط الرباط وقف الوارد ينظر أين يفرش الخادم السجادة فيعرف موضعها وهذا فيه ما فيه ألا ترى أن المعنى فى السلام عند اللقاء انما هو التأنيس بالبشاشة وما شابهها من الاكرام للضيف والتودد نقيض ما عاملوه به وأما كسر الابريق فلا خفاء أنه اضاعة مال وهو محرم وكذلك شتمه فوضعوا الشتم وخرق الحرمة واضاعة المال موضع الاكرام والاحترام والضيافة ثم سرى هذا الأمر الى عامة المسلمين اذ أن هذه الطائفة قلوب الناس بهم متعلقة لحسن ظنهم بهم ولكونهم منسوبين الى اتباع السنة والزهد فى الدنيا وتركها والاقبال على العبادة والدار الآخرة ويرون أنهم محفوظون لا يخالفون ولا يبتدعون فاذا صدر منهم شيء من هذا اقتدى بهم غيرهم فى فعله فتجد كثيرا من الناس فى هذا الزمان يقعد الرجل

وأولاده كل واحد منهم يشتم صاحبه و يشتمون الآباء والأجداد و يلعنون أنفسهم والوالدان ينظران اليهم . وقد ورد فى الحديث (المؤمن لا يكون لعانا) ومن كتاب السنن لأبى داود رحمه الله عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم و لاتدعوا على خدمكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يسئل فيها عطاء فيستجيب لكم) ومنه عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان العبد اذا لعن شيئاً صعدت اللعنة الى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط الى الارض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينا وشمالا فاذا لم تجد مساغا رجعت الى الذى لعن ان كان أهلا لذلك والا رجعت الى قائلها) ومنه عن سمرة ابن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا تلاعنوا بلعنة الله و لا بغضب الله ولا بالنار) ومنه عن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا يكون اللعانون شفعاء و لا شهداء) ومن البخارى رحمه الله عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل يا رسول الله و كيف يلعن الرجل والديه قال يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه و يسب أمه فيسب أمه) وهم اليوم قد جاوزوا الحد فى ذلك يشتم بعضهم بعضا دون أجنبي بينهم يكفهم قد كفوا الاجنبي أمرهم و لا يهتمون لذلك ولا يرجعون عنه . ولو قدرنا أن أحدا نبههم على مافيه من شدة القبح المجمع على منعه فمنهم من يسخر منه ومنهم من يقول ان هذا بسط لا حقيقة وكل ذلك سببه السريان من الخاصة الى العامة فانا لله وانا اليه راجعون على مخالفة السنن وارتكاب البدع . ألا ترى أن من السنة اكرام الضيف بتيسير ما حضر والاقبال عليه وما تقدم من فعلهم عكس هذا الامر سواء بسواء . ثم ان الخادم اذا فرش السجادة يجعل فتحها الى

الجانب الايسر و يعللون ذلك بأنه اذا جاء أحد يريد أن يجلس معه فيجلسه لناحية اليمين ليكون ذلك أسهل عليه فى فرشها له اذ ذاك و يعللونه بوجه آخر وهو أن القلب فى جهة اليسار فينبغى أن يكون فتحها لتلك الجهة تفاؤلا بالفتح وهذا ليس من التفاؤل فى شىء لان التفاؤل الشرعى انما هو ما كان عن غير قصد و ما ذكروه كله يحتاج الى توقيف من صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم و السجادة مكروهة فى الشرع ابتداء الا من ضرورة كما تقدم فكيف تفاصيلها فمن باب أولى وأحرى . ثم انه مع ذلك يطوى طرفها من جهة القبلة من ناحية المشرق فاذا علم الوارد موضع السجادة ذهب الى موضع قضاء الحاجة كانت له حاجة أو لم تكن كان على وضوء أو لم يكن فيأخذ الابريق فيدخل به الى الخلاء ثم يخرج الى موضع الوضوء و الابريق بيده فيضعه فى موضعه الذى أخذ منه و يجعل بزبوزه الى جهة القبلة ويملؤه و كذلك فى كل موضع يضعون الابريق فيه انما يكون مستقبل القبلة وهذا مايحتاج الى توقيف من صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم . وهذه الآداب الشرعية مثل استقبال القبلة وغيرها انما المخاطب بها المكلفون و الابريق لا يتوجه عليه خطاب و لا أمر الشرع فيه بشىء و التزام هذه الاشياء فيه ضيق وحرج . وقد قال عليه الصلاة والسلام (ماتركته لكم فهو عفو) واذا كان الامر كذلك فلا حرج فى وضع الابريق على أى صفة كانت و كذلك فى بسط السجادة و غيرها فما وافق السنة امتثلناه على الرأس و العين و ما لم يرد فيه شىء فقد وسعه الله علينا فلا نضيق على أنفسنا باصطلاح من ليس بمعصوم ثم يتوضأ فاذا فرغ منه مشى بتؤدة الى موضع السجادة وهو مع ذلك لا يكلم أحدا و لا يكلمه أحد لا بسلام و لا غيره فاذا جاء الى السجادة قدم رجله اليمنى فوضعها على طية السجادة ثم قدم رجله اليسرى فوضعها الى جانبها على الطرف المطوى كما هو ثم يقدم رجله اليمنى فى وسط السجادة ثم الرجل اليسرى ثم يزيل تلك الطية بيده

أو بقدمه و يسمون هـذه الطية قفل السجادة حتى لا يفتح ذلك غـيره وهـذا كله من محدثات الامور التى ليس لهـا أصل فى الشرع الشريف فتعين اطراحها وترك المبالاة بها . ثم يصلى ركعتين والصلاة بهذا الوضوء فيها ما فيها لان هذا الوضوء ان كان لاجل دخول الرباط ليس الافلاشك أنه لا يستباح به الصلاة كما قال علماؤنا رحمة الله عليهم فيمن توضأ للأكل و الشرب أو دخول السوق فلا يؤدى به عبادة يشترط الوضوء فيها و ان توضأ لدخول الرباط وللحدث فيجرى فيه الخلاف الذى بين العلماء اذا أشرك فى النية هل يجزيه أم لا وأقل ما فيه مما لا ينبغى أن هذا الفعل كله انما هو لاجل رؤية الناس له وأنهم لا يتركونه يدخل الرباط الا على هذه الصفة فقد خرج الوضوء بهذا عن أن يكون لله وحده بل الشائبة فيه ظاهرة بينة والمريد لا يسامح نفسه فى شىء من هذا كله فينبغى له أن يتوضأ بعد ذلك لاستباحة الصلاة ويتوب من عمل عمله لأجل رؤية الناس ثم انه اذا سلم من صلاة الركعتين المتقدمتى الذكر أتى اليه بعض أهل الرباط فسلموا عليه وبسطوا له الانس ويقوم هو اليهم و يعانقهم و هذا الذى فعلوه من سلامهم عليه و بسطهم له هو السنة عند اللقاء فأخرجوه عن موضعه المشروع الى موضع غير مشروع فيه . و أما قيامه لهم فليس من السنة فى شىء لان القيام المشروع انما هو قيام الحاضر للغائب حين قدومه عليه . و أما المعانقة ففيها اختلاف بين العلماء ومذهب مالك رحمه الله كراهتها . ثم انهم يتكلمون عند ذلك بالكلام المعتاد بينهم الذى لا يخلو فى الغالب من التنميق و التزكية وترفيع بعضهم لبعض بأشياء الغالب عدم بعضها الا من و فق الله تعالى وقليل ماهم . واحتجوا على استحباب هـذه الاصطلاحات و استحسانها وأمر الفقراء بها بأن مشايخهم قد قرروا لهم ذلك ليكون تحفظهم عليها علامة ودلالة على تحفظهم على بواطنهم مما يقع فيها فتكون آداب الظاهر دلالة على حصول آداب الباطن وهذه الطائفة يحسنون الظن

بمشايخهم وقد أمروهم بذلك فلا عتب عليهم فى فعله بل هم فى عبادة وخير وهذا الذى قالوه ليس بالبين لانه لو أجاز العلماء مثل هذا لـكان ذلك كله ذريعه الى نسخ الشريعه بالآراء وغيرها فـكل من ظهر له شىء أو استحسن شيئاً جعله أصلا معمولا به ويرجع اليه ولا قائل به من المسلمين وهذا الدين والحمد لله قد حفظه الله تعالى من الزيادة فيه والنقص منه . ولا حجة فى كون الفقراء يحسنون ظنهم بمشايخهم لان تحسين الظن بهم له مجال متسع ماداموا على الاتباع للسنة والسلف الماضين رضى الله عنهم اجمعين فحينئذ يرجع اليهم ويسكن الى قولهم وأما غير ذلك فاتباع السنة أولى وأرجى وأنجح بل أوجب مع سلامة الصدر لمن قال ماقال اذ أنه لم يقصد الاخيرا ولـكن المريد يتعين عليه أن يكون ميزان الشرع فى يده فان من وفى واعتدل فهو غنيمة ومن نقص فلا ضرورة تدعو الى الاقتداء به فيما خالف فيه السنة اذ أنه لا يتبع أحد فى الغلط . وانظر الى قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث الورود على الحوض (فيقال انهم قد بدلوا بعدك فأقول فسحقا فسحقا فسحقا) أى فبعدا فبعدا فبعدا . واذا كان كذلك فقد وقع العبد بسبب التبديل ولفظ التبديل يقع على القليل والكثير واذا كان الأمر كذلك فلا ضرورة تدعو الى الوقوع فى مثل هذا الاحتمال والمقصود أن تكون السنة واتباع السلف رضى الله عنهم هما الاصل عنده فلا يعرج على غيرهما ولو قال من قال . ولأجل هذا المعنى قال بعضهم ان المريد يعرف حين دخوله وماذاك الا أن المريد محافظ على السنة اذا استأذن ووقف بالباب حتى يؤذن له ثم دخل وقدم رجله اليمنى وأخر اليسرى ثم سلم السلام الشرعى علم أنه مريد لامتثاله هذه السنن الثلاث ألا ترى الى ماحكى عن بعضهم أنه جاءه مريد لزيارته فقدم اليه شيئاً للاكل فتناول المريد لقمة باليسار فقال له المزور من شيخك يابنى فقال له ياسيدى الناحية اليمنى توجعنى فقال له كل رضى الله عنك وعن ربك وقد

تقدمت هذه الحكاية لأن السنة فى ابتداء الاكل أن يكون بناحية اليمين فلما أن رآه خالف هذه السنة عرض له بقوله من شيخك لينبهه بذلك على ماوقع فيه من مخالفة السنة فكان فى المريد من اليقظة والحضور مافهم به مراده فأجابه فهكذا تكون المحافظة على السنة و الاتباع وفقنا الله لذلك بمنه . وقد تقدم فى لباس العالم و تصرفه مافيه غنية عن اعادته لكن المريد يكون أشد حرصا على الاتباع لانقطاعه الى الله و تبتله اليه وقد تقدم مافى تلك الثياب المذكورة من السرف فكذلك مايشبهها أعنى من الوسع فى الثوب الذى لاضرورة تدعو اليه وان كان ثوب المريد قصيرا فى الغالب لكنه احتوى على شيئين قبيحين مخالفة السنة و وجود السرف فيه أعنى فى الوسع الخارق الذى يفعله بعضهم

﴿ فصـــل ﴾ واعلم ان الطريقة الصوفية نظيفة و أقل شىء يدنس النظيف لاجرم أنه قد كثر التدليس والتخليط وظهر . وسبب ذلك أن كل طريقة ادعاها الانسان فضحته فيها شواهد الامتحان الاهـذه الطريقة فانه لايفتضح فيها غالبا و ذلك لوجهين . أحدهما أن طريقهم مبنى على القوة والستر والعفو و التصفح والتجاوز و الاغضاء عن العيون وكل من ادعى شيأ يخالف طريقهم ستروا عليه وجروا عليه أذيال الفتوة . والثانى أن كثيرا ممن تغير فى هذا الزمان أقل مايقع منه أن يقول لك حسدتنى ويقوم فى حميته كثير من الناس فتتداعى الفتن و تكثر الى غير ذلك من الحظوظ التى تعتورهم وهى كثيرة ولأجل ذلك سكت من سكت من أهل الصدق والاتباع فظن من لاعلم عنده بحالهم السىء أن سكوتهم رضاء منهم بشىء مما رأوه أو سمعوه ألا ترى أنهم اذا وجدوا من يقبل الحق منهم ألقوا اليـه مايخلصون به مهجته من هـذه الغمرات وساروا به وأقبلوا عليه لالحظ دنيوى بل يفعلون ذلك فرحا منهم بهداية شارد عن باب ربه عز وجل مضطر الى من يوصله اليه . وقد ورد فى الحديث عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم فاذا وجد أحدهم السبيل الى شئ من هذا بادر اليه وان كان ضده تغافل وتناسى لأجل ماتقدم . وقد تقدم أن اللعين بمكيدته وشيطنته يتبع السنن واحدة بعد واحدة يريد بذلك أن يبدل مكان كل سنة ضدها . ألا ترى أنه لما أن وجد المريد أكثر لباسه على ماينبغى من القصر وغيره أدخل عليه دشيسة قل من يشعر بها وهى وسع الثوب الخارج عن العادة وفيه شيئان مما لاينبغى وهما اضاعة المال وهو محرم لمخالفة السنة وكفى بهما وقنع بذلك من بعضهم ودس زيادة على ذلك وبدل ماهو أكبر من هذا وأكثر لكثير من العرب فى طول ثيابهم حتى صارت اذا مشوا تنجر على الأرض وهذا محرم فى حق الرجال متأكد فعله فى حق النساء وبدل للنساء ضد ذلك وقد تقدم بيانه وزاد فى ثياب بعض من نسب الى العلم قريبا مما سبق فى ثياب العرب . فالحاصل أنه حرم كل طائفة من الاتباع وأوقعهم فى ضده ومع ذلك قل من يستيقظ لما ألقاه اليه من هذه الدسائس بل تلقوها بالاقبال عليها لما ألقى اليهم من التعليل لكل واحدة لأن من عادته الذميمة تعليل مايلقيه اليهم وتحسينه لهم ليكون ذلك أدعى الى القبول منه والحرص على فعله فانا لله وانا اليه راجعون على ماحصل من الغفلات عمن لايغفل عنا ولا ينسانا وفى التلويح مايغنى عن التصريح والله المستعان بمنه وكرمه

فصل فى ذكر بعض المتشبهين بالمشايخ واهل الارادة

وهذا باب متسع متشعب قل أن تنحصر مفاسده أو يتعين مايقع منه لكثرته لكن نشير الى شئ منه ليستدل به على ماعداه والله المستعان . فمن ذلك أن كثيرا من الناس يدعى الدين والصلاح وأنه من أهل الوصول ويأتى بحكايات

من تقدم من الاكابر و يطرز بها كلامه وهو مع ذلك يشير الى نفسه بلسان حاله وأن عنده من ذلك طرفا . و بعضهم يزعم أنه حصل له من ذلك الأمر حاصل ومنهم من له القدرة على تصنيف الحكايات والمرائى التى يختلقها من تلقاء نفسه سيما والعياذ بالله تعالى ماابتلى به بعضهم من تجرئه ودعواه رؤياالنبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه أقبل عليه وخاطبه وأمره ونهاه بل بعضهم يدعى رؤيته عليه الصلاة والسلام وهو فى اليقظة وهذا باب ضيق وقل من يقع له ذلك الأمر الامن كان على صفة عزيز وجودها فى هذا الزمان بل عدمت غالبا مع أنا لاننكر من يقع له هذا من الاكابر الذين حفظهم الله تعالى فى ظواهرهم وبواطنهم . وقد أنكر بعض علماء الظاهر رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى اليقظة وعلل ذلك بأن قال العين الفانية لاترى العين الباقية والنبى صلى الله عليه وسلم فى دار البقاء والرائى فى دار الفناء . وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله يحل هذا الاشكال ويقول ماقاله هذا القائل صحيح ولكن يرده ماورد أن الله تعالى يوقف هذه الطائفة بين يديه ويقول عز وجل (أوليائى لم أزو عنكم الدنيا لهوانكم على ولكن زويتها عنكم لتستوفوا اليوم نصيبكم عندى اذهبوا فاخترقوا الصفوف فمن سلم عليكم من أجلى أو زاركم من أجلى أو أطعمكم لقمة من أجلى فخذوا بيده وأدخلوه الجنة فيأتون الى المحشر وهم يجرون أذيال الفخر فيقول أهل المحشر ياربنا مابال هؤلاء دوننا فيقول الله عز وجل أنتم متم فى الدنيا مرة واحدة وهؤلاء كان الواحد منهم يموت فى اليوم سبعين مرة) أو كما قال. وقال سيدى أبو مدين رحمه الله من مات رأى الحق ومن لم يمت لم ير الحق فاذا كان المرء اذا مات موتة واحدة رأى الحق فما بالك بسبعين مرة فى كل يوم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾ فذهب الاشكال والحمد لله وظهر الصواب والله المؤمل فى الثواب . ومنهم من يشير الى نفسه بالكرامات وخرق العادات وهو عرى عنها بالاتصاف بضدها

ومنهم من يدعى رؤية المشايخ ولقيهم وهو مع ذلك لم يجتمع بهم ولا رآهم . ومنهم من يدعى صحبة بعض الشيوخ والاهتداء بهديهم وهو لم يجتمع بهم ولا هو على طريقهم بل رأى بعض من صحب الشيوخ وحكى عنهم فحكى ذلك عن نفسه ومنهم من يدعى رؤية الخضر ثم ان بعضهم يؤكد ذلك باليمين ليكون أدعى للقبول منه حتى لقد قال بعض من ينسب اليه شيء من هذا ان الخضر يأتيه فى كل يوم ويقف على بابه أو دكانه ويتحدث معه وهو يبيع ويشترى وذلك كله تقول وافتعال لا أصل له ولا فرع مع أن هذا لا ينكر اذا وقع من أهله فى محله . ومنهم من اذا أراد أن يلقى شيئاً مما يخطر له قدم قبله الاستشهاد بكتاب الله تعالى فيقول قال الله تعالى ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ ثم يحلف عند ذلك أنه رأى ورأى وأنه خوطب فى سره والغالب أنك تجد كثيرا من العوام لغلبة الجهل عليهم بأهل الحق والخير والصلاح والاتباع اذا موه عليهم أحد من أهل التمويه انقادوا له وقالوا به واتبعوه ونزلوه المنزلة التى يدعيها أسأل الله السلامة من ذلك بمنه وكرمه . وبالجملة فأحوالهم الرديئة لا تنحصر وفيما وقع التنبيه به كفاية ومقنع . هذا حال المستترين منهم . وأما غيرهم فقد خرقوا السياج(١) وليس العجب منهم بل العجب ممن يعتقدهم أو يميل اليهم مع ما هم فيه من مخالفة الشرع الشريف مثل ما يفعل بعضهم من أنه يظهر للناس الزهد فى الدنيا وترك المبالاة بها حتى انه ليجلس مكشوف العورة وقد تقدم ذلك . ومنهم من يدخل النار على زعمه ولا يحترق بمرأى من الناس وذلك لو كان صحيحا لكان بدعة ومنكراً اذ أن من شرط المعجزة اظهارها والتحدى بها ومن شرط الكرامة عكس ذلك فاذا أظهرها للناس فقد خرجت عن باب الكرامة . اللهم الا أن تقع ضرورة شرعية داعية الى اظهارها . مثل ما حكى عن بعضهم أنه كان فى مركب موسوقة

(١) السياج ككتاب ما يحاط به

قمحا فهاج البحر عليهم وكان القمح لبعض الظلمة المسلطين على الخلق فى وقته فسمع النواتية وهم يقولون أن هذا القمح مكيل علينا فان نقص منه شىء أخذنا الظالم به فالرأى أن نرمى الركاب فى البحر و يبقى القمح فلما أن سمعهم قال لهم ارموا القمح فى البحر وأنا الضامن له فأشهدوا عليه و رموا القمح حتى لم يبق الا القليل فسكن البحر فلما أن وصلوا الى البلد طالبوه بما التزمه فأمرهم أن يأتوا بالكيالين فجاءوا بهم فقال اكتالوا مابقى من القمح فاكتالوه فوفى ماعليهم أعنى ماكان على النواتية مسطورا ثم رد رأسه الى أصحابه وقال لهم والله ماعملتها الاحقنا لدماء هؤلاء المسلمين. فما كان مثل هذا فهو الذى يظهرونه للضرورة الشرعية مع أن لدخول النار أدوية تستعمل حتى لاتعدو على من دخلها ممن استعمل تلك الأدوية لكن لو حضر أحد من أهل السنة ودخلا معا لاحترق صاحب البدعة والزعبلة وخرج المحق سالما. وقد وقع ذلك فى حكايات يطول تتبعها. منها الحكاية المسندة فى مصباح الظلام للشيخ الامام الجليل أبى عبدالله ابن النعمان رحمه الله وماجرى للسنى والبدعى فى دخولهما النار فخرج السنى ولم يحترق و بقى البدعى حممة. وقد كان بعض من ينسب الى المشيخة يدخل أصحابه النار ولايحترقون فقال لى سيدى أبو عبد الله الفاسى رحمه الله والله لولا أنى أخاف من سيدى الشيخ أن يطردنى لأخذت الشيخ نفسه ودخلت أنا واياه النار حتى ننظر من يحترق فينا. وقد كان ببلاد المغرب من زمن قريب رجل يدعى الولاية وخرق العادة وكان اذا و رد عليه الفقراء والأضياف يعمل لهم فطيرا و يفته فى قصعة و يؤتى بها اليه فينصب يده عليها فيخرج من بين أصابعه عسل نحل فيلته به و يطعمه من هناك حتى يكفيهم ثم يرسل يده فينقطع فسمع به بعض الأكابر فى وقته فجاء اليه فلما أن جلس عنده قال له نريد أن تطعمنا من البسيسة التى تطعم الناس منها فقال نعم فأمر بالفطير على

العادة فأحضر فمد يده ليسيل العسل على العادة فلم يخرج شيء فقال له وأين ماتدعيه فقال انقطع الآن فقال لو كان حقا ماانقطع لان الباطل اذا حضره الحق زهق ثم عزره ووبخه بالكلام وقال له كنت تطعم المسلمين أبوال الشياطين وأخرجه عن ذلك الحال وتوبه عنه . ومنهم من يظهر الكرامة بامساك الثعابين والأنس بها وهذا فيه مافيه من مخالفة الشرع الشريف والتمويه على الأمة بما لاحقيقة له اذ أن مثل ذلك يفعله كثير من الناس لمعيشتهم فكيف يعد كرامة . ومن ذلك أيضا مايفعلونه من أكلهم الثعابين بالحياة بمرأى من الناس وذلك محرم أى لو كان صحيحا لأن أكلها لايجوز الا بعد تذكيتها عند من يرى أكلها وهم يأكلونها من غير تذكية بل يؤدبون على كل أكلة من أكلاتهم تأديبا بليغا ازادعا ثم ان كان ذلك من غير حقيقة فهو من صنعة النارنجيات والسيمياء وماشا كلها وليس من باب الكرامة فى شيء . وكنت أعهد مثل هذه الأشياء ببلاد المغرب تفعل على أبوابها ويتضاحك الناس عليها فى لهوهم ولعبهم ويستغنون بسببها وهم فى هذه البلاد فى بعض الأماكن يعدونها من الكرامات ويعتقدونهم بسببها ومنهم طائفة استنت سنة سيئة وهم الذين يحلقون لحاهم وذلك مخالفة للسنة وارتكاب للبدعة لغير ضرورة شرعية . وأما اذا كان للضرورة مثل التداوى وغيره فجائز . ومنهم من يفعل عكس ذلك فلا يأخذون شيئاً من شعور أبدانهم ويعللون ذلك بأنه من حسن الصحبة وذلك قبيح شنيع لانه يشبه فعل الرهبان وفيه المثلة والاستقذار وقد نهينا عن ذلك كله . ومنهم من يلبس الليف والأشياء التى لاتستر عند الركوع والسجود مثل الشعر وغيره وهذا أيضا من المثلة والشهرة والبدعة وكشف العورة وترك الصلاة اذ أنه لايجوز كشف العورة ولاغيرها وأشنع من هذا كله وأقبح مااتخذه بعضهم من لبس الحديد فيتخذ سوارين فى يديه كما تتخذهما المرأة من الفضة والذهب . وبعضهم يحمل فى عنقه طوقا

من حديد كالغل بل هو نفسه ويعلقون فى آذانهم حلقا من حديد . وبعضهم يجعل على ذكره طوقا من حديد القفل ويزعمون أن شيوخهم حين يأخذون عليهم العهد يفعلونه بهم ويامرونهم أن يلبسوه لمن اقتدى بهم ويقولون ان ذلك قفل على محل المعاصى حتى لاترتكب ولاخفاء فى تحريم هذا وشناعته وقبحه وأنه لامدخل له فى الشرع الشريف . ثم مع ادعائهم أن ذلك قفل على محل المعاصى يأتون بنقيض مازعموا وهو أن فيهم شبانا لهم صور حسان وهم مقيمون معهم مساء وصباحا ويخلو بعضهم مع بعض دون نكير. وقد قال بعض السلف رضى الله عنهم لأن أؤتمن على سبعين عذراء أحب الى من أن أؤتمن على شاب . وبعضهم يتخذ حديداً كالعمود يمشى به . وقد ورد أن الحديد حلية أهل النار. وقد ورد (من تشبه بقوم فهو منهم) فيقعون فى هذا الخطر العظيم بسبب الجهل والجهل بالجهل كل ذلك سببه مخالفة السنة المطهرة. وأشد من هذا كله أن أكثرهم يدعى أنه على الحق والصواب وأن طريقته هى المثلى ومنهم قوم تنزهوا عن هذه الرذائل وعابوا على فاعلها ثم انهم يقعون فى أشيا مرذلة نهى صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه عنها وهى عندهم كأنها من شعار الولاية . فمن ذلك اتخاذ بعضهم الأعلام على رأسه وهو لايخلو اما أن يكون وليا لله تعالى على مايزعم أم لا فان كان وليا فالولى لله تعالى لو قدر أن يدفن نفسه أو يكون أرضا يمشى عليه لفعل حتى لايكون مع الناس بالسواء فكيف ينشر الأعلام على رأسه وهذا من باب الشهرة والدعوى وأهل الايمان برآء من ذلك كله . ألاترى الى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتميم الدارى رضى الله عنه لما أن سأله أن يعظ الناس ويذكرهم فقال له أنت تريد أن تقول أنا تميم الدارى فاعرفونى فكل من أراد الظهور فليس من أهل الطريق فى شىء بل هو عكس حالهم ولو لم يكن فيه الا أنه بدعة ممن فعله فكيف

بانجرار هذه المفاسد التى وقعت بسبب الأعلام اذ أنهم يجتمعون رجالا وشبانا فاذا أشرفوا على بلد ذكروا الله تعالى جهرا يرفعون بذلك أصواتهم ولا يقصدون به الذكر ليس الا بل الاعلام لأهل تلك البلدة ومن قاربها بورود الشيخ والفقراء الذين معه حتى يخرجوا الى تلقيهم فاذا سمعوا ذكرهم خرجوا اليهم رجالا ونساء واختلطوا بهم فصاروا مجتمعين رجالا ونساء وشبانا وهذا فيه مافيه من مخالفة الشرع الشريف وقد تقدم غير مرة أن المرأة لاتخرج من بيتها الا لضرورة شرعية ومع ذلك فتكون اذا خرجت خرجت على الصفة المتقدم ذكرها من الستر والمشى مع الجدران لاتتكلم الا لضرورة شرعية وهن اذا خرجن للقائهم خرجن منكشفات فى الغالب وان تستر بعضهن فبعض تستر يرفعن أصواتهن بالزغاليط (١) و يسمع لهن اذ ذاك ضجيج وذلك كله بمرأى من الشيخ وعلمه بهم فما أقبح هذا وأبعده ممن ينتمى الى طريق أهل الدين والصلاح فكيف بمن يزعم أنه يدعو الناس الى الله تعالى فانا لله وانا اليه راجعون على انعكاس الأمور . وبعضهم يزيد على ذلك فعلا قبيحا فيه اضاعة المال وهو وقود الشمع نهاراً حين يلتقونه ويقصدون بذلك القربة الى الله تعالى وهيهات هيهات . التقرب الى الله تعالى لا يكون الا بامتثال أوامره لا بالوقوع فى نواهيه بل هو نفس البعد والقلا أسأل الله العافية من ذلك كله بمنه . ثم مع ذلك ينزل على أهل تلك البلدة بالجمع الذى معه ومفاسده قل أن

(١) قوله الزغاليط قال فى شفاء الغليل زغلط اذا صوت بلسانه بغير حروف كما تفعله نساء العرب . ولمحمد بن سمنديار

سماع غناء الطير للدوح مرتص ومن طرب بالزهر منه ينقط
وللناس فى عرس الربيع مسرة وللخلق حتى القرفيه يزغلط

وفى شرح القاموس ان زغردة النساء فى الافراح من زغردة البعير . وأما الزغاريت والزراغيت فهو لحن ومعنى زغردة البعير هديره الذى يردده فى جوفه

تنحصر فمن ذلك أنه يضر بحال كثير منهم بسبب تكلفه لهم أشياء من الأطعمة تليق بهم و يتفاخرون بذلك و بعضهم يعيب على من أتى بطعام لايختارونه وليت هذه الضيافة لو كانت عن طيب نفس لكنهم يقسطون ماينفقونه فى تلك الضيافة على الرءوس من غنى وفقير ومضطر ومحتاج وأكثرهم يتداينون بسببها و بعضهم يعجز عن شيء يعطيه وعمن يداينه فيهرب قبل وصول الشيخ الى البلد فيتسلطون على بيته وهو غائب فيأخذون ماوجدوا من دجاج أو داجن و بعض من يعجز عن الهروب يمتحن مع كبراء أهل البلد بما يوجبون عليه مما لا قدرة له به وتفاصيل أحوالهم فى هذا المعنى تطول . وقد قال عليه الصلاة والسلام أنا وأمتى برآء من التكلف و لو لم يكن من التكلف لهم الا علف دوابهم لكان فيه من المحرم مافيه . ثم مع ذلك لم يقتصروا على هذا التكلف العظيم حتى أضافوا اليه ماياخذونه من الهدايا و يسمون ذلك بالفتوح للشيخ و لاصحابه كل على قدر حاله سيما صاحب المنزل الذى نزلوا عنده فهذه الوظائف أعنى الضيافة والعلف والفتوح للشيخ وجماعته لابد له منها حتما ثم انهم لم يقتصروا على ذلك الأخذ للشيخ وحده حتى ياخذوا لخادم السجادة وقد تقدم أن السجادة فى نفسها بدعة فكيف يتخذ لها خادم ثم يأخذون لخادم الابريق ثم لخادم السماط ثم لخادم العكاز ثم لخادم الدابة أو الفرس ثم المزمرون الذين معه . ثم مع هذه الأحوال الرديئة يرقص بعضهم مع بعض نساء و رجالا وشبانا . ثم انهم لم يقتصروا على هذه المفاسد حتى آخى بعضهم بين الرجال والنساء من غير نكير و لا استخفاء فى ذلك . ثم انهم لم يقتصروا على هذا الفعل القبيح حتى يقعد بعض النساء يلبس بعض الرجال و يزعمون أنها أخته من الشيخ وقد آخته فلا تحتجب عنه اذ أنها صارت من ذوى المحارم على زعمهم و كتب العلماء والحمد لله بين أيدينا وليس فيها شيء مما ذكروه بل افتعال منهم وتقول باطل فمن استحله منهم فقد خرج عن الدين ومن لم يستحله منهم فقد ارتكب أمرا

عظيما يجب عليه أن يتوب و يقلع عما هو بسبيله من المخالفة والضلال . فاذا علم هذا من أحوال بعضهم فأى فرق والحالة هذه بينهم و بين الظلمة المتسلطين على الخلق بأخذ المال والأذية بل قد يوجد بعض الولاة يتحاشى عن مثل هذه الرذائل و ينزه منصبه عنها فلا يأكل الا من اقطاعه مع أن الوالى مأمور بالاقتداء بالفقراء المتبعين فصار الأمر بالعكس اذ أنه يتعين على من اتصف بشىء مما تقدم ذكره فى أمر من انتسب الى الفقراء أن يقتدى بالوالى فى هذا الفعل الحسن و زاد بعضهم على هذا شيئاً قبيحا وهو استهتار فى الدين و زندقة فيقولون المال مال الله ونحن عبيد الله فلا فرق بيننا و بين صاحب المال لأنا شركاؤه فيه وهذا منهم حل ونقض للشريعة المطهرة وقد أبى الله ذلك و رسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمون . قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿و يأبى الله الا أن يتم نوره﴾ فالشريعة والحمد لله مصونة عن الزيادة فيها والنقص منها فلا تزال على صفة الكمال حتى يأتى أمر الله . ثم العجب ممن يدعى المشيخة منهم والهداية لطريق القوم كيف يعطى الاجازات للفقراء من تحت يده بالمشيخة و لو سألته عن فرائض الوضوء أو سننه أو فضائله وكذلك فى الغسل أو فى التيمم أو فى الصلاة لجهل ذلك غالبا وقد قال بعض العلماء اذا صلى المكلف وهو لا يعرف المفروض من المسنون فلا تصح صلاته وكذلك لو سألته عن مفسدات الصلاة لما علمها وكذلك لو سألته عن حكم السهو اذا طرأ عليه فى صلاته لما علمه . فاذا كان هذا حاله فى أمر وضوئه وصلاته اللذين بهما قوام دينه وصلاحه فما بالك به فى غيرها وقد تقدم أن من لم يأتمنه الله عز وجل على أدب من آداب الشريعة فبعيد أن يؤتمن على سر من أسرار الله تعالى . فاذا كان هذا حال الشيخ فى جهله بمبادىء أمر دينه فكيف بمن يصحبه أم كيف بمن يجيزه اذ الغالب ممن ينتمى الى مثل هذا أنه لا يباشر العلماء اذ لو باشرهم لأنكر عليهم ماهم فيه فكيف يصحبهم

أو يتبعهم على أن هذه الاجازة والحالة هذه لا أصل لها فى الدين ومع كونها لا أصل لها فالاجازة التى يعطونها شبيهة بالظلم. ألا ترى أنهم لا يعطونها فى الغالب لمن سألها حتى يعطى على ذلك عطاء جزيلا بحسب حالها و يسمون ذلك بشكران الدخول فى طريق القوم فيعطى الشيخ مايليق به ولخدام الشيخ المتقدم ذكرهم ما يليق بدرجاتهم وكذلك الأكابر أصحاب الشيخ المذكور ولا بد من ليلة يطلبونها منه للسماع كل على قدر حاله و يختلطون كما تقدم. ثم مع هذا الحال لا يقتصرون على كتب الاجازات لمن طعن فى السن ولمن له ثبوت فى العقل من الكهول بل يعطونها للشبان المردان ولهم صور حسان فيتسلطون بسبب ذلك على الكشف على حريم المسلمين فى بعض الأحيان والاماكن بسبب الاختلاط بهم من أجل الاجازات التى بأيديهم. هذا حالهم مع من سأل الاجازة منهم. وأما من لم يسألها فهو على قسمين اما أن يكون له وجاهة أوجدة أو أحدهما و يعلمون من حاله أنه يميل الى شىء من أحوالهم واما أن يكون عاريا عن الوجاهة والجدة وهو مع ذلك متشوف للاجازة كالأول. فأما الأول فيعملون عليه الحيل فى ربطه عليهم وسكونه الى قولهم والرجوع اليهم فاذا ظفروا منه بذلك كلفوه التكاليف التى تضر بحاله وحال عياله غالبا. واذا كان كذلك فلا فرق اذن بين من هذا حاله و بين الظلمة الا أن الظلمة يفعلون ذلك بالعنف والقهر وهؤلاء يفعلون مثله بالحيل والخديعة. وأما ان كان فقيراً لا مال له ولا وجاهة فانهم يستخدمونه المدة الطويلة ليحصل لهم من تكاف الناس والتسلط عليهم والالحاح عليهم بالمسئلة على الغنى منهم والفقير حتى يحصل لهم مايرضيهم كالأول وهذا أمر لا يمس أخلاق المسلمين فى شىء اذ أن من أخلاقهم المناصحة بينهم والشفقة و رحمة بعضهم مع بعض نسأل الله السلامة من بلائه بمنه وكرمه.

﴿فصـــل﴾ ثم العجب من ادعائهم المشيخة وهم لا يعرفون مبادى أمر

دينهم كما تقدم فكيف بالانتماء الى المشيخة . وقد قال أهل التحقيق من أهل الطريق ان الفقير لايكون فقيرا حتى يكون قلبه كأنه فى كفه يعنى من قوة معاينته له ونظره اليه فيعرف الزيادة فيه من النقص بديهة . هذا حال الفقير المنفرد بنفسه دون أن يصل الى اقتداء الغير به . وأما الشيخ فلابد له من زيادة على ذلك وهى أن تكون قلوب أصحابه كأنها فى كفه وكذلك أحوالهم فى تصرفاتهم وخواطرهم فيعلم مايزيد فيها وماينقص منها فيربيهم على مايتحقق من حال كل واحد وينبههم على ذلك بحيث لايشعر أحد من جلسائه بل الشخص نفسه قد لايشعر بذلك فى بعض الأحيان ولهم فى معرفة هذا أمور وتصرف لايعرفه غيرهم فان كان الشيخ عاجزا عن هذه الرتبة أعنى أنه لايعرف مازاد فى حال أصحابه ومانقص فى غيبته فلايدعى المشيخة ولاالهداية بل اخوان يجتمعون يتذاكرون فى مسائل الدين ومناقب أهل الأحوال السنية فلعل بركة ذلك وبركة اجتماعهم تعود عليهم دون أن يدعى أحد منهم حالا أومقالا هذا حال القوم مع وجود الاخلاص منهم والصدق والتصديق والركون الى مولاهم فى دقيق الامور وجليلها والتزام الوقوف ببابه سبحانه وتعالى ومع هذه المقامات العلية والأحوال السنية لايدعون لأنفسهم حالا ولا مقالا بل يقول أكثرهم الى الآن ماأحسن أن أتوب حتى قال قائلهم

يظنون بى خيرا ومابى من خير ولكننى عبد ظلوم كما تدرى
سترت عيوبى كلها عن عيونهم وألبستنى ثوبا جميلا من الستر
فصاروا يحبونى ولست أنا الذى أحبوا ولكن شبهونى بالغير
فلا تفضحنى فى القيامة بينهم ولا تخزنى يارب فى موقف الحشر

وقد قال بعض السلف الصالح رضى الله عنه لولده لما أن رأى منه شيئاً لايعجبه يابنى أماتعرف قدرك فقال وماقدرى فقال له أمك اشتريتها بأربعمائة درهم

وأبوك لاأكثر الله مثله فى الاسلام . هذا مقالهم مع وجود الأحوال السنية منهم فما بالك بمن هو على العكس ثم مع ذلك يعطى الاجازات وتنصب بين يديه الأعلام والرايات فانا لله وانا اليه راجعون . و بعضهم يدعى الوله و يرتكب بسبب ذلك محرمات فيركب على جريدة قدصور لها وجها وعينين وأنفا وفما و ياخذ بيده شيئاً كأنه سوط و يركب تلك الجريدة و يمسكها بسير أوخيط كأنه لجام لها و يضربها و يجرى . و بعضهم يعلق فيها جرسا فاذا مشى يسمع له صوت قوى فيجتمع عليه النساء والرجال والشبان غالبا وقد يدخلونه بيوتهم و لايختفى منه أحد كأنه امرأة من جملة نسائهم و يعيبون على من استتر منه و يقولون هذا موله . وهذا أشد قبحا من الأول لأنه قدينفرد وحده فيجد السبيل الى ماتسوله له نفسه من الرذائل بخلاف من تقدم ذكرهم . فكيف يدعى الولاية مع ارتكاب نهى صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه حيث يقول (من صور صورة عذب حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبدا) ولا فرق بين من صورها أواستعملها أو رضى بها . وما العجب من هذا بل العجب ممن تلبس بشىء من العلم وهو مع ذلك يعتقد من هذا حاله و يصوب فعله بأن يقول هذا ولى لله وانما هو يخرب على نفسه وتخريب هذه الطائفة انما يكون بما لم يعارضهم فيه أمر ولانهى وهذا قدعارضه النهى الصريح كما تقدم ولولم يكن للجريدة صورة لاحتمل التخريب وغيره . هذا ان كانت أوقات الصلوات عليه محفوظة وكذلك فى سائر التكاليف الشرعية وهو يظهر الوله فيما عدا ذلك فهذا محتمل مع أنه لاضرورة دعت الى الدخول فى هذا الاحتمال اذ أن الله عزوجل لم يضيق على المكلف اذ العلماء والأولياء محفوظون فى ظواهرهم و بواطنهم موجودون والحمد لله لاتخلو منهم الأرض الى أن تقوم الساعة باخبار صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه

﴿فصــــل﴾ ثم ان مع هذا كله لم يكتفوا بهذه المفاسد حتى ضموا اليها

مفسدة أخرى وهى أخذ بعضهم العهد على من يريد الدخول فى الطريق من رجل أو امرأة أو شاب ليكونوا من خواصه وأتباعه . وبعضهم يحلقون شعر رأس من يتوب على أيديهم حين يأخذون عليهم العهد وهذا جهل منهم بالعهد وماهيته وكيفيته وحلق شعر الرأس لغير ضرورة شرعية من البدع وقد كان فى عهد السلف رضى الله عنهم من شعار أهل البدع وعلامة عليهم . هذا اذا كان الحلق لأجل الدخول فى الطريق وأما حلقه لكثرة الدواب أو غيرها فهو جائز غير مكروه

﴿فصـــل﴾ ومن هذا الباب أيضا مايفعله بعضهم من تعليق السبحة فى عنقه . وقد تقدم قول عمر رضى الله عنه لتميم الدارى رضى الله عنه أنت تريد أن تقول أنا تميم الدارى فاعرفونى وما كان مراده الا أن يذكر الناس بالأحكام الشرعية المأمور باظهارها واشاعتها واظهار السبحة والتزين بها لامدخل لها فى ذلك بل للشهرة والبدعة لغير ضرورة شرعية . وقريب من هذا مايفعله بعض من ينسب الى العلم فيتخذ السبحة فى يده كاتخاذ المرأة السوار فى يدها ويلازمها وهو مع ذلك يتحدث مع الناس فى مسائل العلم وغيرها ويرفع يده ويحركها فى ذراعه وبعضهم يمسكها فى يده ظاهرة للناس ينقلها واحدة واحدة كأنه يعد مايذكر عليها وهو يتكلم مع الناس فى القيل والقال وما جرى لفلان وما جرى على فلان ومعلوم أنه ليس له الا لسان واحد فعده على السبحة على هذا باطل اذ أنه ليس له لسان آخر حتى يكون بهذا اللسان يذكر واللسان الآخر يتكلم به فيما يختار فلم يبق الا أن يكون اتخاذها على هذه الصفة من الشهرة والرياء والبدعة . ثم العجب ممن يعد على السبحة حقيقة ويحصر مايحصله من الحسنات ولا يعد مااجترحه من السيئات . وقد قال عليه الصلاة والسلام (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) فأرشد عليه الصلاة والسلام الى محاسبة المرء لنفسه فيما يتصرف فيه باعتقاده

وجوارحه ويعرض ذلك كله على السنة المطهرة فما وافق من ذلك حمد الله عزوجل وأثنى عليه وبقى خائفا وجلا خشية من دسائس وقعت له لم يشعر بها وما لم يوافق احتسب المصيبة فى ذلك ورجع الى الله تعالى بالتوبة والاقلاع فلعل بركة التوبة تمحو الحوبة وينجبر بذلك ماوقع له من الخلل . وهذه الطائفة أصل عملها التحفظ من السيئات والهواجس والخواطر ثم بعد ذلك يأخذ فى كسب الحسنات . وقد قالوا ان ترك السيئات أوجب من فعل الحسنات . لما فى الحديث عنه عليه الصلاة والسلام (اتق المحارم تكن أعبد الناس) وقد حكى عن بعضهم أنه بكى أربعين سنة فسئل عن سبب بكائه فقال استضافنى أخ لى فقدمت له سمكا فأكل ثم أخذت ترابا من حائط جار لى فغسل به يديه فأنا أبكى على ذلك التراب الذى أخذته منذ أربعين سنة . وحكى عن آخر مثله فسئل عن ذلك فقال طلع لى طلوع فرقيته فاسترحت منه فأنا أبكى عليه لعدم رضائى بما فعله الله بى أوكما قال وأحوالهم فى هذا المعنى قل أن تنحصر فاذا كان هذا حالهم فى مثل ما وصفناه عنهم فما بالك بمن يحمل الاثقال وأى أثقال ثم يحصر الحسنات ولا يفكر فى ضدها فانا لله وانا اليه راجعون ثم ان بعضهم يحتج بأنها محركة ومذكرة فواسوأتاه ان لم يكن التحريك والتذكير من القلب فيما بين العبد وبين الرب سبحانه وتعالى . وقد تقدم ماورد فى الحديث (ان عمل السر يفضل عمل الجهر بسبعين ضعفا) هذا وهو عمل فما بالك باظهار شىء ليس بعمل وان كانت صورته صورة عمل ومازال الناس يخفون أعمالهم مع وجود الاخلاص العظيم منهم وهم مع ذلك خائفون وجلون من دخول الدسائس عليهم فأين الحال من الحال فانا لله وانا اليه راجعون . وبالجملة ففعل ذلك فيه من الشهرة مافيه وقد تقدم أن التاجر ينبغى له أن يكون عارفا بمحاولة ما يتجر فيه فلا يترك ماله فيه سبعون ضعفا ويأخذ ماله فيه شىء واحد هذا مع السلامة

من الاوصاف المتقدم ذكرها فكيف به مع وجودها ثم انه مع ذلك يحرم نفسه فضل الذكر وعود بركته على أعضائه وجوارحه فلو كان يسبح ويعد على أنامله لكان نور ذلك الذكر وبركته فى أنامله . وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على بعض أزواجه فرأى نورا فى طاق فقال ماهذا النور الذى فى الطاق فقالت يارسول الله سبحتى التى كنت أسبح عليها جعلتها هناك أو كما قالت فقال عليه الصلاة والسلام هلا كان ذلك النور فى أناملك فهذا ارشاد منه عليه الصلاة والسلام الى الافضل والاولى والارجح وقاعدة المريد أن لا يرجع الى عمل مفضول وهو قادر على ماهو أفضل منه . وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله اذا قرأ فى الختمة يجعلها على ركبتيه معاً ويمسكها بيده اليسرى وجميع أصابع يده اليمنى تمر على الحروف التى يتلوها ويتعمد ذلك ويعلله بأن يقول حتى يحصل لكل عضو حظه من العبادة لكى يكثر الثواب بذلك . فأين الحال من الحال فانا لله وانا اليه راجعون

﴿ فصـــل ﴾ ومنهم من بالغ فى أخذ العهد الى حد لاشك فى تحريمه وابطاله فيقول انه اذا أخذ العهد على من يأخذه عليه ان المأخوذ عليه لم يبق له تصرف فى ماله ولا زوجته ولا نفسه بل التصرف فى ذلك كله للشيخ فان أراد أن يطلق عليه لزمه وان أخذ ماله لزمه الى غير ذلك ثم انهم مع هذه الشروط التى يشترطونها لو تصرف الشيخ فى شىء من ذلك لكان سببا للقطيعة والترك وليس هذا من صفة القوم ولا بمأثور عنهم ومنهم من يأخذ العهد على أن ينتمى لفلان من المشايخ دون غيره حتى كأن الطريق الى الله تعالى على عدد المشايخ فينتسبون اليهم كما ينتسب أهل المذاهب الى مذاهبهم فاذا انتسبوا الى ذلك فالطريق المحمدى أين هو وحصل بسبب ماتقدم بينهم تعصبات وشنآن كثير حتى صاروا أحزابا ووقع بعضهم فى حق غير شيخه الذى ينتمى اليه أعاذنا الله من بلائه بمنه . والطريق المحمدى غير هذا كله . ولذلك كان سيدى أبو محمد المرجانى رحمه الله يقول

طريق القوم واحدة . وكان سيدى أبو محمد بن أبى جمرة رحمه الله يقول سنة الاحباب واحدة يعنى أن مشربهم واحد وهو الاتباع وترك الابتداع ولا يظن ظان أن ما تقدم ذكره فيه انكار لاخذ العهد من أهله لاهله بشرطه المعتبر عندهم اذ أنه عليه درج السلف الصالح نفعنا الله بهم ولا تنكر أيضا الانتماء الى المشايخ بشرطه وهو أن يكون عند المريد شيخه وغير شيخه بالسواء بالنسبة الى الاتباع وترك الابتداع ويكون ايثاره لشيخه بسبب أنه كان وصوله الى الله تعالى على يديه فيرى له ذلك فبهذا الاعتبار يقع التفضل لشيخه والاختصاص به دون غيره . وقد ورد فى الحديث عنه عليه الصلاة والسلام (من صنع اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله يأبى أن يأخذ العهد على أحد فسألته ما الموجب لذلك أهو بدعة قال لا ولكن عبد الله يعنى نفسه ليس كغيره فأخاف ان أخذت العهد على أحد فقد لا يوفى بما أخذ عليه من العهد فيقع له التشويش وأكون السبب فى ذلك فأتركهم رحمة بهم وشفقة عليهم وأعوض عنه الدعاء لهم بظاهر الغيب بالاستقامة أو كما قال . والحاصل من أخذ العهد هو أن يأخذ الشيخ العهد على المريد بأنه لا يراه الله حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره وهذا هو زبدته وأصله وبقيت تفاريعه على هذا الاصل قل أن تتناهى وهى الامانة التى عرضها الله تعالى على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا . قال علماؤنا رحمة الله عليهم ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه وذلك راجع الى الغالب منهم والا فكثير من وفى والحمد لله وكثير من دخل فى جاه من وفى ولاجل هذا المعنى بقى كثير من المحققين ينتمون الى المشايخ ليكونوا فى حرمتهم واليه الاشارة بقوله فى الحديث اخبارا عن رب العزة عز وجل حيث يقول (هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) فكما لا يشقى بهم جليسهم كذلك لا يشقى بهم معتقدهم ولا محبهم . وقد خرج

الترمذى عن أنس قال (جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله متى قيام الساعة قال فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة فلما قضى صلاته قال أين السائل عن قيام الساعة فقال الرجل أنا يارسول الله فقال ماأعددت لها فقال يارسول الله ماأعددت لها كثير صلاة ولا صوم الا أنى أحب الله ورسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وأنت مع من أحببت) فما رأيت فرح المسلمين بعد الاسلام كفرحهم بهذا الحديث ولا يظن ظان أن هذا معارض لقوله عليه الصلاة والسلام للسائل حين سأله مرافقته فى الجنة فقال له عليه الصلاة والسلام أوغير ذلك فقال هو ذلك يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أعنى على نفسك بكثرة السجود. لأن هذا طلب منصبا عظيما فأرشده عليه الصلاة والسلام الى الأسباب الموصلة اليه لقوله عليه الصلاة والسلام (أقرب مايكون العبد فى الصلاه وأقرب مايكون فى الصلاة اذا كان ساجدا) فأرشد عليه الصلاة والسلام لذلك وطالب المعية تشمله الدار وهى واحدة وان كانت المنازل تتفاوت فيها ولكن قد جعلت السعادة لمن نالها. لقوله عليه الصلاة والسلام (لموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها) فاذا حصل له ذلك سلم من أهوال الدنيا والآخرة ومن العناء والتنغيص. ومنهم من يفعل فعلا قبيحا حين يأخذ العهد على من يريد أن يدخل فى طريقه فيكلفه أن يعترف بين يديه بكل مافعله من الذنوب وفى هذا من مخالفة الشرع مافيه وقد ورد أن الله عز وجل يقول يوم القيامة لبعض من فعل الذنوب (أنا سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) وقد ورد (كل الناس معافى الا المجاهرون) فاذا جاء أحد لمن تقدم ذكره ليتوب على يديه أوقعه الشيخ باعترافه فى هذه المهالك فكان عدم التوبة به أولى والحالة هذه. وفى هذا تشبه بالقسيسين لأن من عادتهم الذميمة اذا جاءهم أحد ليتوب على أيديهم يطالبونه بأن يسمى لهم

ذنو به ذنبا ذنبا ثم بعد ذلك يقبلون عليه . وقد قيل ان التشبه بالكرام فلاح وعكسه عكسه . فانا لله وانا اليه راجعون على تخليط أمور الدين بما ليس منه ولا فيه . ومنهم من ارتكب بدعة شنيعة آلت الى ترك الصلاة وتركها فيه اختلاف بين العلماء هل هو ارتداد أو ارتكاب كبيرة ممن فعله . وذلك أن بعضهم يلبدون شعور رؤسهم والغالب أن الجنابة تصيبهم فاذا اغتسلوا لم يمكنهم أن يوصلوا الماء الى البشرة وليس ثم عذر شرعى يجيز المسح على حائل عند من يقول به فصلاتهم على هذا باطلة . ثم ضموا الى هذه المفسدة مفسدة أخرى أعظم منها وهو أنهم معتقدون أنهم على الخير والصواب وعلى طريق السلوك والهداية . نسأل الله السلامة بمنه من بلائه . ومنهم من يتعانى اتخاذ الحروز الكثيرة ويجعلها فى عنقه كالقلادة للمرأة . ومنهم من يجعلها على صفة أخرى يتوشح بها وهذا شهرة ممن فعله وشوه ظاهر . وان كان يدعى أنه فعل ذلك للتبرك والتحفظ من العين ومن مردة الجن فله طريق غير هذا بأن يعلق ذلك عليه من تحت ثوبه بحيث لا يشعر به ولا يظهر وأما على هذه الصفة المذكورة فيمنع لمخالفته للسنة وللسلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين . ومنهم من يأخذ سبحة كبيرة ويعلقها فى عنقه أو يتوشح بها ومع ذلك هو مشتغل بالقيل والقال والتحدث فى أمور الغيب اظهارا منه أنه يكاشفها ويخبر بوقوعها ومنهم من يعوض عنها خيطا من صوف على صفات وصبغ فيتقلدون به وذلك كله من الشهرة أو الشهوة والبدعة والخروج عن الاتباع للسلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين . ومنهم من يفعل فعلا قبيحا شنيعا رذلا يأباه الله ورسوله والمؤمنون وهو أن يكون مع الناس فى الجامع ينتظرون الصلاة فاذا قامت الصلاة وقام الناس اليها قام هو فى جملتهم فاذا ركعوا وسجدوا بقى واقفا ينظر اليهم لا يحرم ولا يركع ولا يسجد ثم يتمادى على ذلك حتى يفرغ الناس من صلاتهم

وأقبح من هذا وأرذل من يعتقد من هذا حاله ويرى أنه ممن يتبرك به وأنه من الواصلين ويتأول بأنه يصلي في مواضع أخر وانما هذا منه تخريب على نفسه حتى لايشهر ولا يعتقد وتأويلهم هذا من السخافة والحمق ومخالفة الشريعة المطهرة وعدم الغيرة في الدين واصطلاحهم على الرضا بترك هذه الشعيرة العظمى التي هي عماد الدين ورأسه وأول أركانه بعد كلمتي التوحيد اذ أن من رأى ولم ينكر كمن فعل ولا ضرورة تدعو الى التخريب لأن من مشى على لسان العلم واتبع الحق والسنة المحمدية واقتفى آثار السلف الماضين رضي الله عنهم سيما ان أنكر عليهم ماهم فيه من عوائدهم الذميمة المخالفة للسنة فالغالب من حال أهل هذا الزمان النفور منه لأنهم يزعمون أنه قد ضيق عليهم وهو انما ترك العوائد والابتداع واتبع السنة المحمدية وتمسك بها وعادة النفوس في الغالب النفور من الحكم عليها . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ياحق ماأبقيت لي حبيبا . وقد كان السلف رضي الله عنهم على عكس هذا الحال من اتبع السنة أحبوه واعتقدوه وعظموه ووقروه واحترموه ومن كان على غير ذلك تركوه وأهملوه ومقتوه وأبغضوه حتى كان من يريد الرفعة عندهم والتعظيم ممن لاخير فيه يظهر الاتباع حتى يعتقدوه على ذلك . وأما اليوم فيعتقدون ويحترمون من يفعل العوائد المحدثة ويمشي عليها ولاينكر على أحد ماهو فيه فمن أراد التخريب في هذا الزمان فليتبع السنة المطهرة فانهم ينفرون عنه ولا يعتقدونه غالبا لانكاره ماهم فيه حتى قد ينفر عنه أبواه وأهله وأقاربه لمخالفته ماهم عليه . ثم ان المخرب لايخلو حاله من أحد أمرين اما أن يعتقد حل ذلك أم لا فان اعتقد حله فهو كافر وأما ان فعله مع اعتقاد تحريمه فهو فاسق على ماقاله العلماء . وأما المكروه فقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم ان المداومة على المكروه يفسق فاعله . ثم انهم يتغالون في اعتقادهم فيقولون هذا بدل هذا قطب الى غير ذلك . وهذا اللفظ لايحسن أن

يطلق على من اتبع السنة وبذل جهده فى الاتباع فكيف يطلق على من تلبس بشىء من المحرمات أو المكروهات أو هما معا . ثم ان المتبع من الناس فى اعتقاده على قسمين . فمنهم من يحمل جميع أفعاله وأقواله كلها على سبيل الورع فأى شىء فعله أو قاله أو أشار اليه من اتباع الأمر واجتناب النهى مثل أن يقول هذا موضع لا أدخله لأجل أنه مغصوب أو استعمل المسلمون فيه الغصب أو غير ذلك فيقولون هذا من باب الورع هذا ليس بمتبع وقد دخله فلان وفلان ويحتجون بمن لا يحتج به وان كان فى بعضهم أهلية للاحتجاج به فقد تكون له أعذار فى ارتكاب ذلك فى خاصة نفسه ولا يلزمه أن يبين عذره فيما وقع منه . وقد قال مالك رحمه الله ما كل الاعذار تبدى . واذا كان كذلك فلا يجوز أن يقتدى به فى هذا وما شاكله اذ أن اتباع لسان العلم هو المتعين على الناس عموما وخصوصا وقد كان سيدى أبو محمد رحمه الله يقول انى لا أتكلم بالورع فى هذا الزمان والناس يحملون ما أتكلم به على سبيل الورع وليس كذلك فصار لسان العلم عندهم ورعا وترتبت على هذا مفسدة عظيمة وهى أنهم ينسبون كثيرا من الشريعة الى الورع فيتركون بسبب ذلك الاتباع وباب الورع ضيق لا يدخله الا الأفذاذ اذ ليس هذا زمان الورع غالبا وما يتعللون به من ذكر الورع انما هو من تسويل النفس والهوى والشيطان ليثبط عن بركة الاتباع . والقسم الثانى وهو غير المعتقد يقول هذا يابس مشدد مربوط يشير بكلامه وحاله الى أن غيره على الباطل وهو على الحق والطريق المستقيم . وكلامهم هذا يرده ما ورد فى الحديث من قوله عليه الصلاة والسلام (بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء من أمتى قيل يارسول الله ومن الغرباء من أمتك قال الذين يصلحون اذا فسد الناس) وفى رواية الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى وروى أبو داود فى سننه عن على بن أبى طالب

كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كيف بكم اذا فسق فتيانكم وطغى نساؤكم قالوا يارسول الله وان ذلك لكائن قال نعم وأشد كيف بكم اذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر قالوا يارسول الله وان ذلك لكائن قال نعم وأشد كيف بكم اذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا) والاحاديث فى هذا المعنى كثيرة والله الموفق

﴿فصـــل﴾ ثم ان غالب حالهم أن اعتقادهم يدور بين أمرين . فمنهم من يكون اعتقاده شهوة فيعتقده مدة ثم ينحل عن اعتقاده . ومنهم من يدوم اعتقاده لكن يزيد فى اعتقاده و يتغالى فيه فيقول هذا بدل هذا قطب كما تقدم . وكذلك يقولون فى حق غيره فيتناقض قولهم اذ أن القطب انما هو واحد وهو أعز من أن يجتمع به الا الواحد من الأفذاذ ومع ذلك قل من يعرفه لأن صفته كما قال الشيخ الامام أبو عبد الرحمن الصقلى رحمه الله فى كتاب الأنوار له والله سبحانه وتعالى يدير القطب فى الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك فى أفق السماء وقد سترت أحوال الغوث وهو القطب عن العامة والخاصة غيرة من الحق عليه غير أنه يرى عالما جاهلا أبله فطنا تاركا آخذا قريبا بعيدا سهلا عسرا آمنا حذرا . ومنهم من اذا حصل له اعتقاد فى شيخ بعينه نقص غيره أو فضله على غيره و يقع بسبب ذلك شنآن بين أصحابهم ومن ينتمون اليهم حتى أنهم ليرجعون أحزابا ويهجر بعضهم بعضا لعدم تسليم كل واحد منهما لصاحبه كما تقدم . وقد حدثنى بعض الفقراء ممن كان يحضر مجلس سيدى أبى محمد المرجانى رحمه الله أنه كان يسمعه وهو يعظم سيدى أبا محمد بن أبى جمرة رحمه الله فكان هذا الفقير يقول فى نفسه ماهذا الارجل كبير القدر مثل هذا السيد يعظمه قال فمضيت يوما اليه حتى أراه فدخلت الى المسجد وهو يتكلم فى الدرس والقارىء يقرأ عليه فرأيت عبارته دون عبارة سيدى أبى محمد المرجانى رحمه الله

فتعجبت وقلت في نفسى أمثل هـذا يكون أفضل من سيدى أبى محمد المرجانى فاستبعدت ذلك فرد الشيخ رحمه الله رأسه الى ونظر لى ثم رجع يتكلم فيما كان بسبيله فقال فى أثناء كلامه ينبغى للفقير اذا دخل على الشيوخ أن لايفضل من تلقاء نفسه شيخا على غيره يامسكين هذا الذى تفضله لو سألته عمن فضلته عليه كان جوابه أن يقول هو بركتى وهو كذا وكذا أرجو من الله تعالى أن ينفعنى به الى غير ذلك فرب ساكت أفضل من ناطق فيجىء أحدكم يفضل من يخطر له بما يخطر له أجاء لك أحد من عند الله تعالى وأخبرك أن فلانا عنده أفضل من فلان فهذا من قلة الأدب والاحترام فتب الى الله تعالى وارجع اليه ما كفى أن أحدكم يحرم العمل حتى يحرم الاعتقاد ما هذا الحال . قال فبقيت أتوب وأستغفر الله لعله يسكت فما سكت الا بعـد حين أو كما قال . واذا كان ذلك كذلك فلا ينبغى أن يفضل بين شيخين الا بأحد أمرين . بأن يكون أحدهما أكثر اتباعا للسنة المطهرة من الآخر . أو يكون الذى يفضل أعلى مقاما منهما فيكشف عليهما لأن من هو فى مقام يكشف على من هو دونه ولا يكشف على من هو فوقه لان النبى صلى الله عليه وسلم كشف على مقامات الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يكشف على مقامه الخاص أحد منهم . ولا يرد على هـذا كون المريد يعظم شيخه ويؤثره على غيره ممن هو فى وقته لأن تعظيمه له انما هو من جهة أن الله تعالى قد قسم له على يديه رزقا حسنا كما تقدم والنبى صلى الله عليه وسلم يقول (من رزق فى شىء فليلزمه) وقال فى حديث آخر (جبلت القلوب على حب من أحسن اليها) ولا شك أن الاحسان بما يبقى هو أفضل وأعلى من الاحسان بما يفنى وحقيقة المريد مع شيخه أن الشيخ وجده غريقا فى بحر التلف فأنقذه وخلصه منه وأوقفه بباب ربه سبحانه وتعالى ولا احسان أعظم من هذا الاحسان. ووجه آخر وهو محبة المريد لطاعة ربه عز وجل فلما

أن رأى عند شيخه ما يحبه التزمه لمحبوبه الذى وجده عنده . وقد كان بعض الناس يخدم بعض أبناء الدنيا و يحبه و يؤثره بالخدمة له فعذله بعض الناس على التزام خدمته له وهو لا يعطيه شيئاً فكان جوابه أن قال محبوبى عنده . وقيل لآخر أيضا وقد رأوه واقفا بباب عدوه فعذلوه فى ذلك فأخبر بما تقدم وهو أن محبوبه عنده والمريد بنيته وبخاطره وكليته راغب فى طاعة ربه عز وجل متسبب فى الوصول اليه فاذا رأى من هو مثله أو أرفع منه قد أحكم الطريق وعرفها أحبه والتزمه وأنس به لما حصل عنده من المحاسن الجميلة . فالحاصل من هذا أنه يعظمه لما خلع الله عز وجل عليه من الخلع السنية الشاهدة له بالقرب من المولى سبحانه وتعالى . ومنهم من يظهر له شيء من الكرامات فيغتر بها فيتلف حاله بسببها . ومنهم من يسلم بواسطة أحد من الاولياء كما جرى لبعض المريدين بمدينة فاس أنه بات ليلة فى زاوية خارج البلد فطلع على سطح الزاوية فى ليلة مقمرة فأعجبه ضوء القمر فخطر له أن يجرب نفسه فى الطيران هل يقدر عليه أم لا فجرب نفسه فطار فى الهواء فدخل البلد من أعلى سورها وهو طائر فقال أى موضع أقصده فوقع له أن يأتى الى زيارة بعض الاكابر من المشايخ فى وقته فأتى الى باب داره ونزل ودق الباب فخرج اليه الشيخ فقال له من أنت فقال فلان فقال له ماوجدت شيأ تأتيني به الا بهذه الكرامة والله لا كلمتك بعدها أبدا فأدبه بذلك وكان سبب اجتماعه على ربه عز وجل وسلامته أو كما جرى . ومثل هذا ما حكى عن بعض المريدين أنه كان يحضر مجلس شيخه ثم انقطع فسأل الشيخ عنه فقالوا له هو فى عافية فأرسل خلفه فحضر فسأله ما الموجب لانقطاعك فقال ياسيدى كنت أجيء لكى أصل والآن قد وصلت فلا حاجة تدعو الى الحضور فسأله عن كيفية وصوله فأخبره أنه فى كل ليلة يصلى ورده فى الجنة فقال له الشيخ يابنى والله ما دخلتها أبدا فلعلك أن تتفضل على فتأخذنى معك لعلى أن أدخلها كما

دخلتها أنت قال نعم فبات الشيخ عند المريد فلما أن كان بعد العشاء جاء طائر فنزل عند الباب فقال المريد للشيخ هذا الطائر الذى يحملنى فى كل ليلة على ظهره الى الجنة فركب الشيخ والمريد على ظهر الطائر فطار بهما ساعة ثم نزل بهما فى موضع كثير الشجر فقام المريد ليصلى وقعد الشيخ فقال له المريد ياسيدى أما تقوم الليلة فقال الشيخ يابنى الجنة هذه وليس فى الجنة صلاة فبقى المريد يصلى والشيخ قاعد فلما أن طلع الفجر جاء الطائر ونزل فقال المريد للشيخ قم بنا نرجع الى موضعنا فقال له الشيخ اجلس مارأيت أحدا يدخل الجنة و يخرج منها فجعل الطائر يضرب باجنحته و يصيح حتى أراهم أن الارض تتحرك بهم فبقى المريد يقول للشيخ قم بنا لئلا يجرى علينا منه شئ فقال له الشيخ هذا يضحك عليك يريد أن يخرجك من الجنة فاستفتح الشيخ يقرأ القرآن فذهب الطائر و بقيا كذلك الى أن تبين الضوء واذا هما على مزبلة والعذرة والنجاسات حولهما فصفع الشيخ المريد وقال له هذه هى الجنة التى أوصلك الشيطان اليها قم فاحضر مع اخوانك أو كما جرى . وحكاياتهم فى هذا المعنى قل أن تنحصر والحاصل منه أن الشيطان لايترك أحدا ولا ييأس منه الا بعد خروج روحه وأما قبل ذلك فيضرب عليه بخيله ورجله و يستعمل حيله كلها . وقد تقدم بعض هذا واذا كان ذلك كذلك فيتعين على المريد أن لايدعى حالا و لا مقاما خيفة أن يفسد على نفسه ما من به عليه ان كان حقيقة أو يكون من الشيطان ابتداء وكثير من الناس فى هذا الزمان ممن ليس له رسوخ فى الطريق بل بعضهم مغموس فى الجهل ويدعى أنه من الشيوخ الموصلين الى الله وليس له ذوق فى طريق القوم بالكلية بل عكسه . أسأل الله السلامة بمنه . ومنهم من يفعل فعلا قبيحا شنيعا فى مطالبة بعضهم لبعض وقيام المستغفر مكشوف الرأس زمنا طويلا و ربما كان معتل الدماغ فتأخذه نزلة سيما ان كان فى وقت البرد وقد

يؤول الأمر من ذلك الى الموت أو الى أمراض خطرة قد تطول عليه المدة بالعلل . ثم ان بعضهم زاد على ذلك أن يفعله بمشهد من الناس عامة وذلك مخالف لطريق القوم لانهم اذا كانت مطالبة بعضهم لبعض فانما يكون ذلك فيما بينهم مستترين لايخالطهم غيرهم لأنهم كما قيل لايطلع عليهم الا ذو محرم ومحرمهم من كان منهم أعنى من أصحاب الخرقة دون غيرهم . ويزيد بعضهم حمل الأقدام ويقف طويلا بها ينتظر اقبالهم عليه . وبعضهم يبالغ فى هذا المعنى فيأمر بكشف رأس الجانى على زعمه وضربه بالجاجم (١) والجريد وغيرها وهذا قبح وشناعة أن ينسب هذا لمن يدعى الطريق وطريق القوم غير هذه الطريقة اذ أنها مبنية على الصفح والتجاوز والاغضاء مالم يكن فى أمر الدين فان كان فى أمر الدين فيكفى فيه الهجران لاغير وفيه مقنع للجانى والمجنى عليه وغير هذا ليس من السنة فى شىء . وطريقهم أنهم اذا وقع أحد منهم فى مخالفة يطالبونه بالتوبة والاقلاع عما وقع فيه . ثم زاد بعضهم على ذلك اعتقادهم أنه من طريق القوم الصادقين وقد تقدم كيفية مايفعله الصادق منهم مع اخوانه اذا اطلع على شىء من المكروه الذى وقعوا فيه وأنه يتوجه الى الله تعالى فى انقاذ من وقع منه ذلك . وينبغى أن تكون المطالبة للشيخ آكد من المطالبة للمريد لان بغفلة الشيخ عنه جرى عليه ماجرى فلو كان الشيخ يلحظه لما قدر على ذلك فى الغالب . ألا ترى الى ماجرى لسيدى أبى على بن السماط شيخ سيدى أبى محمد المرجانى رحمهما الله تعالى أن بعض أصحابه جاء اليه وطلب منه اذنا أن يتزوج فأبى عليه ثم جاءه ثانيا فأبى عليه ثم ثالثا كذلك فقال أزنى قال اذهب فذهب المريد فأخذ امرأة وجاء بها الى بيته وأغلق الباب واذا بالحائط قد انشق ودخل عليه الشيخ فخرج هاربا يسيح فى البرية بحال أخذه لايعرف أين يذهب ثم رجع اليه عقله بعد ذلك

(١) الجاجم جمع جمجم وهو المداس « معرب »

فقال من أين أصابنى المرض من هناك أتداوى فرجع الى موضع الشيخ فدخل وسلم عليه فقال له الشيخ رحمه الله أقدرت على شئ تفعله أتظن أنك لنفسك بل كثير منهم لايتحملون أن يروا من ينتمى اليهم فى ذرة مما لاينبغى .ألا ترى الى ماحكى عن بعضهم أنه رأى بعض أصحابه فى الصف الأول يوم الجمعة فقال له مالى أراك ههنا فقال له لأجل فضيلة الصف الأول وللقرب من الخطيب فقال له أما تعلم أن البعد من هؤلاء القوم أقرب الى الله تعالى من القرب منهم وما ذاك الا لمشاهدة ما الشرع يأمر بتغييره عليه . أقل مايمكن فى التغيير أن لايرى شيئاً يخالف السنة حتى يتعين عليه التغيير بالقلب اذ أن أصعب مافى التغيير التغيير بالقلب لان الغالب على القلب تدنيسه بما يشاهدو يرى و يسمع فقل أن يتأثر مع مداومة هذا الحال عليه فالتغيير بالقلب وان كان دون المرتبتين اللتين قبله فهو أصعب منهما بهذا الاعتبار فتأمله . وما ذاك الالتأنيس القلوب غالبا بالعوائد المستمرة . ألاترى الى ماحكى عن بعضهم أنه قال أول بدعة رأيت بلت الدم وقد تقدم ذلك . وقد ورد(ولوا البدع ظهوركم) وكذلك ورد (من لم يزل المنكر فليزل عنه) فكيف يقبل المكلف على شئ من ذلك أو يصغى اليه وأما ان فاجأه ذلك وعجز عن التغيير فالتخلص منه أقرب وأيسر . لما ورد فيمن لم يقدر على التغيير أن يقول اللهم ان هذا منكر ثلاثا . ثم ليمض لسبيله و يعرض عنه

فصل فى مكاتبة الفقير لأخيه

و ينبغى له أن يجتنب ماعتاده بعض الناس فى مكاتبة بعضهم لبعض بالألفاظ التى احتوت على التزكية والتعظيم والكذب والتنميق والقوافى والسجع والعبارات القلقة والتكلف اذ أن ذلك لايجوز . ألاترى أن كتب السلف رضى الله عنهم بعضهم الى بعض على منهاج غير هذا . فمن ذلك كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

رضى الله تعالى عنه الى من يكاتبه من ولاته . من عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة ابن الجراح الى خالد بن الوليد الى عمرو بن العاص . وكتبهم له . من أبى عبيدة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فوصفوه بالصفة الملازمة له . فان قيل قد كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل : من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . فالجواب ماقاله القاضى أبو بكر بن العربى رحمه الله فى سراج المريدين له أن معنى كتب النبي عليه الصلاة والسلام الى هرقل عظيم الروم أى الذى يعظمه الروم وتعظيم الروم له باطل ولكنه موجود حقيقة فلذلك وصفه النبي صلى الله عليه وسلم به . وعلى هذا درج السلف والخلف رضى الله عنهم . وتعظيم هذه الطائفة انما هو بالقلوب لا باللقلقة من الألسن كما هو الحال فى هذا الزمان فهذه بعض نبذ يستدل بها على ماعداها . وأما طريق كثير من الفقراء المسافرين أعنى غير المحققين منهم فلهم اصطلاحات وعوائد قل أن تجد للاتباع فيها سبيلا . فمن ذلك ما كانوا يوجبونه على من يريدون أخذ ثيابه وغيرها من مطلبات كثيرة يسمونها شغل الفقراء وليس هذا الحال خاصا بهم وذلك كله ممنوع فى الشرع الشريف لقوله عليه الصلاة والسلام (لايحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس منه) وهم يأخذون ذلك بغير طيب نفس من صاحبه حتى انهم ليكلفون من كان فقيرا الى المسألة بالالحاح وتكليف الناس كما تقدم من فعلهم فى الضيافات والاجازات وأحوالهم فى هذا المعنى قل أن تنحصر . وفيما ذكر تنبيه على ماعداه والله الموفق

فصل فى صرف همم المريد كلها الى الآخرة وأمورها

وينبغى له أن يكون أهم الامور عليه وآكدها عنده أمور الآخرة اذ أنه مصيره اليها فيتعين عليه ايثارها ولا يعبأ بغير ذلك الا من طريق الامتثال لأن غير أمر الآخرة منقطع زائل وماهو كذلك فأمره أقرب وأيسر من الدائم الذى

لاينقطع . ألاترى الى حال النبي صلى الله عليه وسلم وكيف كان على ماوصف الواصف متواصل الاحزان . وقد كان الحسن البصرى رضى الله عنه قدغلب عليه هـذا المعنى حتى كأنه يقدم للقتل على مانقل عنه . وكان يقول أعجب ممن يملأ فاه بالضحك وهو لايعلم فى أى ديوان اسمه هل فى الجنـة أو فى النار . وقد سأل رجل أحمد ابن حنبل رحمه الله أن يعظه فقال له الامام أحمد ان كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك بالرزق لماذا وان كان الرزق مقسوما فالحرص لماذا وان كان الخلف على الله حقا فالبخل لماذا وان كانت الجنة حقا فالراحة لماذا وان كانت النار حقا فالمعصية لماذا وان كان سؤال منكر ونكير حقا فالانس لماذا وان كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا وان كان الحساب حقا فالجمع لماذا وان كان كل شئ بقضائه وقدره فالحزن لماذا . وقد قالت رابعة العدوية لرجل رأته مهموما ان كان همك من أمر الآخرة فزادك الله هما وان كان من أمر الدنيا ففرج الله همك . وقد أنشد بعضهم فى هذا المعنى فقال

لاتجزعن اذا ماالأمر ضقت به ذرعا ونم وتوسد خالى البال
مابين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

﴿فصـــل﴾ هذا ماتيسر من الكلام على آداب المريد وينبغى أن نختمه بذكر شئ من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم تبركا بذكر آثاره وأحواله ولكى يكون سلما للمريد فى اتباعه عليه الصلاة والسلام فى تصرفاته وحركاته وسكناته واشاراته . فمن ذلك ماذكره الباجى رحمه الله فى كتابه المسمى بسنن الصالحين وسنن العابدين . قال مالك ان رجلين كانا جالسين يتحدثان وكعب الاحبار قريب منهما فقال أحدهما لصاحبه انى رأيت فى المنام كأن الناس جمعوا ليوم القيامة فرأيت النبيين لهم نوران نوران ولأتباعهم نور نور قال ورأيت النبي صلى الله عليـه وسلم مامن شعرة فى جسده ولا رأسه الا وفيها

نوران ورأيت أتباعه لهم نوران نوران فقال له كعب اتق الله وانظر ماذا تحدث به فقال انما هي رؤيا رأيتها فقال كعب والذى نفسي بيده انه فى كتاب الله المنزل لكما ذكرت . ومنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو يبكى بأبي أنت وأمى يارسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه فلما كثروا اتخذت منبرا لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم . بأبي أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته فقال تعالى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ بأبي أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال تعالى ﴿واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ بأبي أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون ﴿يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ بأبي أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار فما ذاك بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك . بأبي أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله ريحا غدوها شهر ورواحها شهر فما ذاك بأعجب من البراق حين سريت عليه الى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك . بأبي أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى ابن مريم أعطاه الله تعالى احياء الموتى فما ذاك بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مسمومة فقالت لاتأكلني فاني مسمومة . بأبي أنت وأمى يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال ﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ ولو دعوت مثلها علينا لهلكنا عن آخرنا فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول الا خيرا فقلت ﴿اللهم اغفر لقومى فانهم

لايعلمون﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى احداث سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كبر سنه وطول عمره فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا قليل. بابى أنت وأمى يارسول الله لو لم تجالس الا كفوا لك ماجالستنا. ولولم تنكح الا كفوا لك مانكحت الينا. ولولم تؤاكل الا كفوا لك ما آكلتنا. ولبست الصوف وركبت الحمار ووضعت طعامك بالأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك. ومن كتاب التفسير للطبرى رحمه الله كان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف وينتعل المخصوف ولا يتأنف من ملبس. يلبس ما وجده مرة شملة ومرة بردة حبرة ومرة جبة صوف. وكان يلبس النعال السبتية ويتوضأ فيها وكان لنعليه قبالان وأول من عقد عقدا واحدا عثمان وكان أحب اللباس اليه الحبرة وهى برود اليمن فيها حمرة وبياض. وكان أحب اللباس اليه القميص وكان اذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة كان أو قميصا ورداء ويقول اللهم لك الحمد كما ألبستنيه أسألك خيره وخير ماصنع له وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له. وكان يعجبه الثياب الخضر. وكان يلبس الكساء الصوف وحده فيصلى فيه وربما لبس الازار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ويصلى فيه. وكان يلبس القلانس تحت العمائم ويلبسها دون العمائم ويلبس العمائم دونها ويلبس القلانس ذات الآذان فى الحرب وربما نزع قلنسوته وجعلها سترة بين يديه وصلى اليها وربما مشى بلا قلنسوة ولا عمامة ولا رداء راجلا يعود المرضى كذلك فى أقصى المدينة وكان يعتم ويسدل طرف عمامته بين كتفيه وعن على رضى الله تعالى عنه أنه قال عممنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمامة وسدل طرفها بين كتفى وقال (ان العمامة حاجز بين المسلمين والمشركين) وكان يلبس يوم الجمعة برده الاحمر ويعتم. وكان يلبس خاتما من فضة فصه منه نقشه محمد رسول الله فى خنصره الايمن وربما لبسه فى الايسر ويجعل فصه

مما يلى بطن كفه . وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة وكان يقول (ان الله تعالى جعل لذتى فى الدنيا النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة) وكان يتطيب بالغالية وبالمسك حتى يرى وبيصه(١) فى مفارقه ويتبخر بالعود ويطرح فيه الكافور. وكان يعرف فى الليلة المظلمة بطيب ريحه . وكان صلى الله عليه وسلم يكتحل بالاثمد فى كل ليلة ثلاثا فى كل عين وربما اكتحل ثلاثا فى اليمنى واثنتين فى اليسرى وربما اكتحل وهو صائم . وكان يقول عليكم بالاثمد فانه يجلو البصر وينبت الشعر . وكان يكثر دهن رأسه ولحيته . وكان يترجل غبا . وكان ينظر فى المرآة وربما نظر فى الماء فى ركوة فى حجرة عائشة وسوى جمته . وكان لا تفارقه قارورة الدهن فى سفره والمكحلة والمرآة والمشط والمقراض والسواك والخيوط والابرة فيخيط ثيابه ويخصف نعله . وكان يستاك بالاراك وكان اذا قام من النوم يشوص فاه بالسواك ويستاك فى الليلة ثلاث مرات قبل النوم وبعده عند القيام ولورده عند الخروج لصلاة الصبح وكان صلى الله عليه وسلم يحتجم فى الأخدعين وبين الكتفين واحتجم وهو محرم بمكة على ظاهر القدم . وكان يحتجم لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين وكان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الا حقا . دخل يوما على أم سليم وقدمات نغر ابنها(٢) من بنى أبى طلحة فقال له ياأبا عمير مافعل النغير وجاءته امرأة فقالت يارسول الله احملنى على جمل فقال أحملك على ولد الناقة وجاءته امرأة فقالت يارسول الله ان زوجى مريض فقال لعل زوجك الذى فى عينيه بياض فرجعت المرأة وفتحت عينى زوجها لتنظر اليهما فقال مالك فقالت أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى عينيك بياضا فقال ويحك وهل أحد الا وفى عينيه بياض . وجاءته أخرى فقالت يارسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال ياأم فلان

(١) الوبيص البريق (٢) نغر كصرد طائر كالعصفور أحمر المنقار

ان الجنة لا يدخلها عجوز فولت المرأة وهي تبكي فقال صلى الله عليه وسلم أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ان الله تعالى يقول ﴿انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها سابقت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما كثر لحمي سابقته فسبقني ثم ضرب كتفي وقال هذه بتلك . وجاء صلى الله عليه وسلم الى السوق من وراء ظهر رجل اسمه زاهر وكان صلى الله عليه وسلم يحبه فوضع يده على عينيه وما كان يعرف أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال من يشترى هذا العبد فجعل يمسح ظهره برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول اذن والله تجدني كاسدا يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم لكنك عند ربك لست كاسدا . ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسينا مع صبية في الطريق فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام القوم وطفق الحسين يفر هاربا ههنا وههنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضاحكه حتى أخذه فجعل احدى يديه تحت ذقنه والأخرى فوق رأسه . وكان صلى الله عليه وسلم يدخل على عائشة والجوارى يلعبن عندها فاذا رأينه تفرقن فيسيرهن اليها . وقال لها يوما وهي تلعب بلعبتها ماهذه ياعائشة فقالت خيل سليمان بن دواد فضحك وطلب الباب فابتدرته واعتنقته فقال مالك ياحميراء فقالت بأبي أنت وأمي يارسول الله ادع الله أن يغفرلى ماتقدم من ذنبي وما تأخر فرفع يديه حتى رؤى بياض ابطيه فقال اللهم اغفر لعائشة بنت أبي بكر مغفرة ظاهرة وباطنة لاتغادر ذنبا ولا تكسب بعدها خطيئة ولا اثما . ثم قال صلى الله عليه وسلم أفرحت ياعائشة فقالت اى والذى بعثك بالحق فقال أما والذى بعثني بالحق ماخصصتك بها من بين أمتي وانها لصلاتي لأمتي بالليل والنهار فيمن مضى منهم ومن بقي ومن هو آت الى يوم القيامة وأنا أدعو لهم والملائكة يؤمنون على دعائي . وكان عليه الصلاة والسلام يكرم ضيفه ويبسط رداءه له كرامة . وجاءته ظئره التي أرضعته يوما فبسط لها رداءه وقال

مرحباً بأمى وأجلسها عليه . وكان أكثر الناس تبسما وأحسنهم بشرا مع أنه كان متواصل الاحزان دائم الفكرة لا يمضى له وقت فى غير عمل الله أو فيما لا بد له أو لأهله أو لأمته منه وما خير بين شيئين الا اختار أيسرهما الا أن يكون فيه قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه . وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم فى مهنة أهله ويقطع اللحم معهن ويركب الفرس والبغل والحمار ويردف خلفه عبده أو غيره ويمسح وجه فرسه بطرف كمه أو بطرف ردائه . وكان يتوكأ على العصا وقال التوكؤ على العصا من أخلاق الانبياء . ورعى الغنم وقال مامن نبي الا وقد رعاها وعق صلى الله عليه وسلم عن نفسه بعد ماجاءته النبوة . وكان لا يدع العقيقة عن المولود من أهله ويأمر بحلق رأسه يوم السابع وأن يتصدق عنه بزنة شعره فضة وكان يحب الفأل ويكره الطيرة ويقول مامنا الامن يجد فى نفسه ولكن الله يذهبه بالتوكل . وكان اذا جاءه ما يحب قال (الحمد لله رب العالمين) واذا جاءه مايكره قال (الحمد على كل حال) واذا رفع الطعام من بين يديه قال (الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين) وروى فيه (الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا) واذا عطس خفض صوته واستتر بيده أو بثوبه وحمد الله . وكان صلى الله عليه وسلم أكثر جلوسه مستقبل القبلة . واذا جلس فى المجلس احتبى بيديه . وكان يكثر الذكر ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ويستغفر فى المجلس الواحد مائة مرة وكان ينام أول الليل ثم يقوم من السحر ثم يوتر ثم يأتى فراشه فاذا سمع الاذان وثب قائما فان كان جنبا أفاض عليه الماء والا توضأ وخرج الى الصلاة . وكان يصلى فى سبحته (١) قائما وربما صلى قاعدا . قالت عائشة لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته جالسا . وكان يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء وهو فى الصلاة . وكان يصوم الاثنين

(١) السبحة بضم فسكون النافلة

والخميس وثلاثة أيام من كل شهر وعاشوراء وقلما يفطر يوم الجمعة وأكثر صيامه في شعبان. وكان صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه انتظارا للوحى واذا نام نفخ ولا يغط غطيطا. وكان اذا رأى فى منامه مايروعه قال (هو الله ربى لاشريك له) واذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الايمن وقال (رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك) وكان يقول (اللهم باسمك أموت وأحيا) واذا استيقظ قال (الحمد لله الذى أحيانا بعد ماأماتنا واليه النشور) وكان صلى الله عليه وسلم اذا تكلم يبين كلامه حتى يحفظه من جلس اليه ويعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه. ويخزن لسانه ولا يتكلم فى غير حاجة ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضولا ولا تقصيرا وكان يتمثل بشئ من الشعر وكان يتمثل بقول بعضهم ويأتيك بالاخبار من لم تزود وكان صلى الله عليه وسلم جل ضحكه التبسم وربما ضحك من شئ معجب حتى تبدو نواجذه من غير قهقهة. وماعاب صلى الله عليه وسلم طعاما قط ان اشتهاه أكله وان لم يشتهيه تركه وكان لايأكل متكئا ولا على خوان يأكل الهدية ويكافئ عليها ولايأكل الصدقة ولا يأنف فى مأكل يأكل ماوجد ان وجد تمرا أكله وان وجد خبزا أكله وان وجد لبنا اكتفى به ولم يأكل خبزا مرققا حتى مات صلى الله عليه وسلم. قال أبو هريرة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع بخبز الشعير وكان يأتى على آل محمد الشهر والشهران لاتوقد فى بيت من بيوته نار وكان قوتهم التمر والماء وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع. هذا وقد آتاه الله مفاتيح خزائن الارض فأبى أن يقبلها واختار الآخرة وأكل صلى الله عليه وسلم الخبز بالخل وقال (نعم الادام الخل) وأكل لحم الدجاج وكان يحب الدباء ويأكله ويعجبه الذراع من الشاة وقال ان أطيب اللحم لحم الظهر وقال (كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة) وكان يعجبه الثفل يعنى مابقى من الطعام وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهن

وأكل صلى الله عليه وسلم خبز الشعير بالتمر وقال هذا أدم هذا وأكل صلى الله عليه وسلم البطيخ بالرطب والقثاء بالرطب والتمر بالزبد وكان يحب الحلواء والعسل وكان صلى الله عليه وسلم يشرب قاعدا وربما شرب قائما ويتنفس ثلاثا واذا فضلت منه فضلة وأراد أن يسقيها بدأ بمن عن يمينه وشرب صلى الله عليه وسلم لبنا وقال (من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا خيرا منه ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه) وقال صلى الله عليه وسلم (ليس شئ يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن) زاد الباجى رحمه الله وكان عليه الصلاة والسلام على خلق عظيم كما وصفه الله تعالى . وكان أحلم الناس وأعدل وأعف الناس لم تمس يده قط امرأة الا بملك رقبتها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه . أسخى الناس لايبيت عنده دينار ولادرهم فان فضل ولم يجد من يعطيه وفجاه الليل لم يأو الى منزله حتى يعطيه من يحتاج اليه . لايأخذ مما آتاه الله الاقوت عامه فقط من أيسر مايجد من الشعير والتمر ويضع سائر ذلك فى سبيل الله تعالى لايسأل شيئاً الا أعطاه ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى يحتاج قبل انقضاء العام . أشد الناس حياء لايثبت بصره فى وجه أحد . يجيب دعوة العبد والحر . ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن . وتستتبعه الأمة والمسكين فيتبعهما حيث دعواه . لايغضب لنفسه ويغضب لربه . منديله باطن قدمه . يشهد الجنائز . أشد الناس تواضعا وأسكتهم من غير كبر وأبلغهم من غير عى . لايهوله شىء من أمر الدنيا . يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم . يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم لايجفو على أحد . يقبل معذرة المعتذر . يخرج الى بساتين أصحابه لايحقر مسكينا لفقره وزمانته . ولا يهاب ملكا لملكه . يدعو هذا وهذا الى الله تعالى دعاء مستويا . قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو

أمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فعلمه الله جميع محاسن الاخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا . قال الباجى رحمه الله وذكر العتبي قال كنت عند حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فجاء اعرابى فقال السلام عليك يارسول الله سمعت الله تعالى يقول ﴿ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ وقد ظلمت نفسى وجئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك الى ربى ثم أنشأ الاعرابى يقول

ياخير من دفنت فى الأرض أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف . قال العتبي فغلبتنى عيناى فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال لى ياعتبي الحق الاعرابى فبشره أن الله قد غفرله . ومن كتاب الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأخذ عنى هذه الكلمات فيعمل بهن ويعلم من يعمل بهن قال أبوهريرة أنا يارسول الله فأخذ بيدى فعد خمسا فقال (اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن الى جارك تكن مؤمنا وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلما ولا تكثر الضحك فان كثرة الضحك تميت القلب ومنه عن عقبة بن عامر قال قلت يارسول الله ماالنجاة قال (أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك) ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (بدا الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء من أمتى قيل يارسول الله ومن الغرباء من أمتك قال الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى)

﴿فصــــل﴾ قد تقدم الكلام على السبعة الذين يدور عليهم أمر الدين ونرجع الآن الى القسم الثانى وهو تصرف الناس فى أسبابهم وصنائعهم

ومعايشهم وما يحتاج اليه بعضهم من النية فيما هو يحاوله وما يتحفظ منه وهذا النوع كثير . فنبدأ أولا بما هو الأولى فالأولى والآكد فالآكد . فأول مانبدأ به من الكلام على الصنائع والحرف غسل الميت وحفر القبر وغيرهما وما يفعل فى ذلك من الأحكام والتنبيه على بعض ماأحدثوه فيه اذ أنه من أهم أمور الدين وآكدها . لكن نقدم أولا ذكر حال المحتضر وما يحتاج اليه من الآداب والله المستعان . قد ورد فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (لقنوا موتاكم لا اله الا الله) وورد أيضا (من كان آخر كلامه لااله الا الله دخل الجنة)، وينبغى أن لايقربه حائض ولا جنب ولا صغير يعبث لايرجع لما يؤمر به أو ينهى عنه . وينبغى أنه مهما أمكن أن لاتكون عليه نجاسة فعل فعلى هذا يكون ثوبه طاهرا وبدنه طاهرا وكذلك من حضره يكون كذلك . وينبغى أن يكون على المحتضر اذ ذاك ماتيسر من الطيب اكراما للقاء الملائكة . وينبغى أن يحضره اذ ذاك أحسن أهله وأصحابه هديا وخلقا ودينا وسمتا ووقارا فيلقنه كلمتى التوحيد برفق وذلك بأن يقول لااله الا الله محمد رسول الله جهرا ثم يسكت ساعة ثم يعيدها ثم كذلك الى أن يقضى . ولا ينبغى أن يقول له قل لااله الا الله أو يلح عليه بذلك وما ذاك الا لأنه اذا قال له قل لااله الا الله قد يتوهم المحتضر اذ ذاك وقد يكون أخذته غشية فيتوهم فيكون سببا لموته واذا أكثر عليه بلااله الا الله اختلط عليه فاذا كان على ماوصف قبل سلم من هذا . وينبغى أن يكثر من الدعاء له وللحاضرين لكن بخفض صوت وحسن سمت ووقار لأن الملائكة يحضرون ويؤمنون على دعاء الداعى . وهذا الموطن من المواطن التى يرجى فيها قبول الدعاء . وقد أنكر مالك رحمه الله القراءة عنده بسورة يس وسورة الأنعام وعلل ذلك بأنه لم يكن من عمل الناس وأجازه ابن حبيب على ماتقدم وصفه من الوقار والتؤدة وكذلك اختلفا فى توجيهه الى القبلة فقال مالك رحمه

الله لم يكن من عمل الناس وكره أن يعمل ذلك استنانا . وقال ابن حبيب يستحب ذلك لأنها الجهة التى كان يعظمها فى حياته فاذا فعل المكلف ماقاله ابن حبيب فلا يفعل ذلك به حتى يعاين وهو أن يشخص ببصره لأنه ان فعل ذلك به قبل المعاينة قد يوهمه فيكون سببا لموته أو للغشيان عليه . وينبغى لمن يلقنه أن لا يضجر ولا يقلق ان طال الأمر عليه و وجد من يقوم عنه بذلك حتى يأخذ راحة لنفسه فعل وان كانوا جماعة فيفعلون ذلك واحدا بعد واحد ولا يلقنونه بجماعتهم فان ذلك يحرجه ويقلقه . وينبغى أن لا يضجر أيضا من عدم قبول المحتضر لما يلقيه اليه . وقد يرى من بعضهم عدم القبول لذلك لأن الموضع موضع فتنة وأمر شديد . ألا ترى الى ما ورد أن المحتضر اذا احتضر يأتيه شيطانان أحدهما على صفة أبيه والآخر على صفة أمه فيقول له الذى هو عن يمينه على صفة أبيه يابنى أنا قد سبقتك الى هذا الموضع وقد عرفت الحق فيه والدين الأقوم الذى به النجاة وهو دين النصرانية فمت عليه فهو الحق . أعاذنا الله من ذلك بمنه ويقول الذى على صفة أمه يابنى قد كان بطنى لك وعاء وثديى لك سقاء وحجرى لك وطاء وأنا أحب لك ماأحب لنفسى وقد سبقتك الى هذا الموطن وعرفت الحق من غيره فمت على دين اليهودية أو كما قال الى غير ذلك . وقد ورد أن الاديان تعرض عليه اذ ذاك والامر أمر خطر عظيم فى الخطر فينبغى أن يكثروا له من الدعاء وأن يجتنبوا اللغط والقيل والقال . وقد سمعت سيدى أبا محمد رحمه الله يحكى ان بعض المغاربة جاؤا الى البلاد بنية الحجاز فمرض بعضهم واحتضر فجلس اليه رفقاؤه يلقنونه على ماتقدم وصفه فكان اذا قال من على يمينه لا اله الا الله محمد رسول الله معر وجهه ورده الى ناحية اليسار واذا قال من على يساره ذلك معر وجهه ورده الى الناحية الأخرى ثم كذلك الى أن غلب عليهم النوم فناموا وبقى واحد منهم يلقنه فاذا حول وجهه الى ناحية اليمين دار اليه واذا

حوله الى جهة اليسار دار اليه ثم كذلك الى أن غلب عليه النوم أيضا كاصحابه فبينما هو فى النوم اذ رأى الناس يتجارون فقال فقلت فما بال الناس فقالوا هم ماشون الى فلان «اسم المحتضر» يهنونه بالموت على الاسلام فقلت هذا صاحبي فأسرعت معهم لأهنيه من جملة من يهنيه فجئنا الى باب كبير فدخل الناس من ذلك الباب فدخلت معهم فاذا بصاحبي واقف والناس يهنونه بالموت على الاسلام فزاحمت معهم حتى اجتمعت به فهنيته كما فعل غيري فأمسك بيدي وقال آه يافلان ماهذا الحال الذي فعلتم معي تركتموني وحيدا للشياطين يتسلوني فقلت له كنا نلقنك وأنت تمعر وجهك وتعرض عنا يمينا و يسارا فقال لى ماعنكم كنت أعرض وانما كنت أعرض عن الشياطين فانهما أتياني على صفة أبى من جهة اليمين وعلى صفة أمي من جهة اليسار فهذا يدعوني الى دين النصرانية وهذه تدعوني الى دين اليهودية و كان كلامكم يؤنسني وأستوثق به فلما تمم تسلياني لكن الحمدلله الذى أعانني فاني لما أن بقيت وحيدا نزل ملك من السماء وبيده حربة فهزها عليهما وقال لهما اليكما عن ولى الله فوليا هاربين ثم لقنني الشهادة فقلتها فمت عند ذلك وهؤلاء يهنونني بما أنعم الله به على أو كما قال فاستفاق من نومه فقام الى صاحبه فوجده قد مات رحمه الله. وقد حكى عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه لما جاءه الموت ولقن لا اله الا الله قال لا فرؤى بعد موته فى المنام فقيل له كنا نقول لك لا اله الا الله وأنت تقول لا فقال كان ابليس تعرض لى وقال لى سلمت مني ياأحمد فقلت له مادامت الروح فى الحلقوم لا أسلم منك وكان ذلك جوابا له لا لكم أو كما قال. وقد روى مالك فى موطئه عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا مرض العبد بعث الله اليه ملكين فقال انظر ماذا يقول لعواده فان هو اذا جاؤه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك الى الله وهو أعلم فيقول لعبدى على ان توفيته أدخله الجنة وان أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه

وأن أكفر عنه سيئاته . و روى الترمذى عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تصيب العبد نكبة فما فوقها أو دونها الا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر قال وقرأ ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ الآية . وينبغى أن لا يترك أحدا يبكى حوله برفع صوته بذلك . ومن كان باكيا من جماعته فليعتزل عنه بموضع لا يسمعه المحتضر ولا بأس بالبكاء بالدموع حينئذ وحسن التعزى والتصبر أولى وأجمل لمن استطاع . وليحذر من السخط والضجر وليكن موقنا بالعوض من الله تعالى اذ أن من مات لم يكن بيده حل ولا ربط ولا قدرة ولا ارادة الا بأمر من المولى سبحانه وتعالى فالذى أقامه فى ذلك يقيمه فى غيره أو لا يحوجه اليه . وينبغى أن يمتثل السنة و يتعلق بها حين وقوع الامر به فيقول ما ورد فى الحديث عن صاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول (ما من امرىء تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل انا لله وانا اليه راجعون ثم يقول اللهم أجرنى فى مصيبتى واعقبنى خيرا منها الا أبدله خيراً منها) قالت أم سلمة فلما أن مات أبو سلمة جعلت أقولها وقلت ومن خير من أبى سلمة ثم قلت أمتثل السنة فأقولها فقلتها فأبدلنى الله به رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما قالت . وينبغى أن تكون النساء بمعزل عنه اذ ذاك لان فيهن من الرقة و عدم الصبر وعدم العلم أو قلتهما ونقصان العقل ما هو معلوم وذلك يؤدى الى وقوع ما لا ينبغى بحضرة المحتضر فيتحفظ من ذلك وما يترتب عليه من الوقوع فى النهى الصريح . لقوله عليه الصلاة والسلام (ليس منا من حلق وخرق ودلق وسلق) ومعنى حلق حلق الشعور وخرق خرق الثياب ودلق هو تخميش الوجوه والضرب على الخدود وسلق هو الكلام الردىء القبيح ومنه ﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾ وقد روى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن عبد الله بن مسعود رضى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية) وروى

الترمذى عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (مامن ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول واجبلاه واسنداه ونحو ذلك الاوكل الله به ملكين يلتهزانه ويقولان له أهكذا كنت) وروى البخارى عن النعمان بن بشير قال أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكى وتقول واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه فقال حين أفاق ماقلت شيئا الا قيل لى أنت كذا فلما مات لم تبك عليه . وينبغى لمن حضر من الرجال أن لايظهر الجزع اذذاك فانه اذا ظهر ذلك منه للنساء كان سببا لوقوع ماتقدم ذكره منهن فليحذر من هذا جهده مع وجود الرفق والشفقة والرحمة والسياسة مع أهل الميت ان أمكن ذلك فان لم يمكنه أقام سطوة الشرع عليهم ولا يتركها لاجل مانزل بهم لان الشرع قدقرر مافيه ماقرر بقوله عليه الصلاة والسلام (فاذا وجبت «أى مات» فلا تبكى باكية) فلا يتعدى ماحده عليه الصلاة والسلام والله المستعان ومن حضر من أهله أو غيرهم فأمرهم ونهاهم فلم يسمعوا منه فيتعين عليه أن لايحضر مادام ذلك موجودا لانه منكر بين وتغييره واجب متعين فاذا لم يسمع ذلك فأقل مايلزمه فى خاصة نفسه عدم حضوره لانه أقل مراتب الانكار لما ورد عنه عليه الصلاة والسلام (من لم يزل المنكر فليزل عنه) لكنه ان كان قدوة فيتعين عليه أن يخبرهم بأن المانع من حضوره ماوقعوا فيه من المخالفة وليحذر أن يقع بحضرته مايفعله بعض الناس فى هذا الزمان من اختلاط النساء بالرجال وكشف وجوههن وتسويدها وتسويد بعض أجسادهن ونشر الشعور والدعاء بالويل والثبور وهو دعوى الجاهلية ولباس الأزرق والسواد ومايفعله بعضهن من خرق قعور القدور السود وجعلها فى حلوقهم وسكب التراب على الرؤس وتلطيخ البيوت بالسواد ومايجعلونه فى الأعناق من السلاسل ولو لم يكن فيه من القبح الا التفاؤل بالسلاسل والاغلال التى توعد بها أهل النار . أسأل الله السلامة من ذلك بمنه . وتحفيتهم

للأقدام من أجل ذلك و بعضهم يترك لبس السواد و يعوض عنه البياض وان كان لبس البياض مباحا أو مأمورابه فى بعض المواطن لكن اتخاذه فى هذا الموطن على سبيل الاستنان بدعة . و بعضهم يتركون الصلاة عند موت ميتهم و لا يرجعون لها الا بعد مدة تختلف أحوالهم فيها فمنهم من يتركها اليوم واليومين ومنهم من يتركها الشهر والشهرين الى غير ذلك جهلا منهم بما يجب عليهم ومايؤمرون به فيحرمهم اللعين ثواب مصابهم وثواب الصلاة و يوقعهم فى الاثم فى تركها بعادته الذميمة أسأل الله السلامة من ذلك بمنه . وقد ورد فى الحديث عنه عليه الصلاة والسلام (لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا) والاحداد على ماقاله علماؤنا رحمة الله عليهم يتضمن الامتناع من خمس لباس المصبغات كلها الا السواد والحلى والكحل والطيب والقاء التفث فاذا كان هذا فى حق النساء فما بالك به فى حق الرجال . ومما أحدثوه أيضا من المحرمات حضور الطارات والضرب بها سيما مع النائحة . وقد قال عليه الصلاة والسلام (كل نائحة فى النار الا نائحة حمزة) وروى أبو داود فى سننه عن أسيد بن أبى أسيد عن امرأة من المبايعات قالت كان فيما أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المعروف الذى أخذ علينا أن لانعصيه فيه أن لانخمش وجها و لاندعو و يلاو لانشق جيبا و لاننشر شعرا وروى البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن أم عطية قالت أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البيعة أن لانتوح على ميت . و روى النسائى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن فقلن يارسول ان نساء ساعدننا فى الجاهلية أفنساعدهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لااسعاد فى الاسلام . و روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن النعى فقال اياكم

والنعى فانه من عمل الجاهلية قال عبد الله من النعى الأذان على الميت. ثم ان بعضهن يفعلن ذلك ليلا ونهارا ولو أخذن لأنفسهن راحة وخفضن من أصواتهن حين نعيهن ثم اعتدن مع ذلك عادة جاهلية وهى أن من جاءت لتعزى تدخل وهى تدعو بالويل والثبور واللطم على الخدود وتخميش الوجوه وتتلقاها النوائح على مايعهد من فعلهن الذميم ويتكلفن اذ ذاك رفع أصواتهن فاذا وصلن الى أهل الميت قمن الى لقائهن وفعلن معهن كفعلهن ويعملن كذلك ساعة ثم كذلك ثم كذلك مع كل من أتى اليهن من النساء للتعزية ويقين على ذلك مدة على قدر ماينقطع معارفهن ويفعلن مع ذلك أفعالا قبيحة شنيعة تنزه الاقلام عن كتبها والألسن عن النطق بها فلا حاجة تدعو الى ذكرها وكلها مصادمة للشريعة المطهرة وهى أكثر من أن تنحصر أو ترجع الى قانون معلوم لأن ذلك يختلف باختلاف عوائد البلاد والاقاليم فليحذر من هذا جهده فان وقع شئ منه فلا يحضر موضعه كما تقدم فلو قدرنا أنه حضر لكان واحدا منهم أعنى فى حصول الاثم له وان كان اعتقاده ليس كاعتقادهم أسأل الله السلامة بمنه. فاذا قضى الميت فليشتغل من حضره بحقه ويأخذ فى اصلاح شأنه. فمن ذلك أن يغمض عينيه لئلا تبقى مفتوحتين وذلك شوه. وينبغى له أن يأخذ عصابة أو طرف عمامة أو غيرهما ويجعلها تحت ذقنه ويشدها على رأسه لئلا تسترخى ذقنه فيبقى فاه مفتوحا وذلك شوه وقد ينزل الماء فى جوفه حين غسله ثم يخرج بعد تكفينه فيلوثه وقد تدخل الهوام منه لجوفه اذا كان مفتوحا. ثم يلين مفاصله ويمد يديه مدا وكذلك ركبتيه حين خروج الروح منه وليحذر أن يؤخر ذلك لئلا يتعذر مدها. ثم يجعل على بطنه حديدة أو سكينا فان لم يجد فطينا مبلولا طاهراً لئلا يعلو فؤاده فيخشى أن يتفجر قبل حلوله فى قبره. ثم يزيل ماعليه من الثياب ماعدا القميص. ثم يجعل على شئ مرتفع كدكة ونحوها

لئلا يتسارع اليه الهوام والتغيير ويسجى بثوب . ثم يأخذ فى تجهيزه على الفور لأن من اكرام الميت الاستعجال بدفنه ومواراته اللهم الا أن يكون موته فجأة أو بصعق أو غرق أو سبتة أو ماأشبه ذلك فلا يستعجل عليه ويمهل حتى يتحقق موته ولو أتى عليه اليومان والثلاثة مالم يظهر تغييره فيحصل التيقن بموته لئلا يدفن حيا فيحتاط له . وقد وقع ذلك لكثير فيتحفظ من هذا . واذا فعل به ماتقدم ذكره من تليين مفاصله وغيرها فليكن ذلك بتؤدة ووقار لأن حرمة الميت كحرمة الحى . ويسمى الله عز وجل عند الأخذ فى ذلك فيقول بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وليحذر من هذه البدعة التى أحدثها بعضهم وهى أن الميت اذا مات أوقدوا عنده تلك الليلة شمعة حتى يصبح وذلك بدعة وسرف ومن لم يكن منهم له قدرة على الشمع أوقدوا سراجا عليه حتى يصبح وييسر قبل غسله مايحتاج اليه من الكفن والحنوط ويبخر الكفن ثلاثا أو خمسا أو سبعا . ثم بعد ذلك يأخذ فى غسله فيشد على وسط الميت مئزرا غليظا ثم يعريه من القميص وبعد ذلك يغسله وهذا مذهب مالك رحمه الله ومذهب الشافعى رحمه الله أن يغسل فى قميص ولايعرى واستدل على ذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم غسل فى قميصه بعد أن كانوا أرادوا أن يعروه كما يفعلون بموتاهم فسمعوا الهاتف يقول غسلوه فى القميص واستدل مالك رحمه الله ومن وافقه على تعرية الميت من القميص لأنهم أرادوا أن يغسلوه عليه الصلاة والسلام متجردا من القميص كما يفعلون بموتاهم حتى سمعوا الهاتف فتركوه فدل ذلك على أنه خاص به عليه الصلاة والسلام دون غيره والآن تعرية الميت أبلغ فى تنظيفه . وينبغى أن يجعل على عورته خرقة غليظة فوق المئزر حتى لاتوصف العورة . وينبغى أن لايحضره أحد اذ ذاك الا الغاسل وحده اللهم الا أن يكون الغاسل يحتاج الى من يعينه فيجوز ذلك على سبيل الضرورة

والضرورة لهـا أحكام. و ينبغي أن يكون الغاسل ومن يعينه من أهل الديانة والأمانة لأن المحل مضطر الى ذلك لأن الميت قد يتغير حاله وهو الغالب فاذا رآه أحد فقد يخيل اليه أن ذلك من شقاوته. و ينبغي له أنه ان رأى خيرا فان شاء ذكره وان شاء تركه وان رأى غير ذلك سكت عنـه ولا يبوح به لأحد. وغسل الميت من أحد الأركان الأربعة التي تجب على الحي في حق الميت المسلم وذلك أن من حق المسلم على أخيه المسـلم أربعا غسله وتكفينه والصلاة عليـه ودفنه والغسل أولهـا وكيفيته ككيفية غسل الجنابة سواء بسواء الا أن غسل الجنابة يتولاه الحي بنفسه غالبا وهـذا يغسله غيره وقد تقدم في غسل الجنابة فرائضها وسننها وفضائلها فكذلك ههنا سواء بسواء. فأول ما يبدأ بغسل النجاسة عنـه فيباشر محل النجو بخرقة غليظة وان كانت من الصوف فهو أبلغ في التنظيف فيعرك بهـا الموضع ومن يعينه يسكب عليـه المـاء ثم يغسل الخرقة غسلا جيـدا حتى تطهر ثم يعيد غسل المحل وهو يعرك بها حتى يرى أنه قد طهر وتنظف فحينئـذ يفيض عليه المـاء القراح من فرقه الى قدمه ثم ينظر في بدنه فمهما شعر بنجاسة في أي موضع كانت منه غسلها عنه والبخور اذذاك حاضر يبخر به لئلا تشم منه رائحة كريهة والميت يكره أن يشم ذلك منـه كما يكره ذلك من الحي ثم يقعـده و يعصر بطنه عصراً رفيقاً ومن يعينه يصب عليه المـاء حين يفعل كذلك و يزاد في البخور في هـذا الوقت أكثر ممـا قبله حتى اذا رأى أنه قد أنقى جسده أفاض عليه المـاء وأعاد غسل المحل من النجاسة بخرقة أخرى أو بها بعد غسلها وتطهيرها وتنظيفها. وقد اختلف علمـاؤنا رحمة الله عليهم فيما اذا كان على المحل نجاسة لا يمكن زوالهـا الا بمباشرتها باليد هل يباشرها بيده للضرورة أو يتركها كما لو كان حيا ولا يمكنه أن يزيلها بنفسه فانه يصلي بها فكذلك الحكم في الميت وهذا على مذهب مالك رحمـه الله. وليحذر ممـا يفعله كثير منهم من

حلق عانة الميت لأنهم يكشفون العورة لحاقها فيشاهدها من يزيلها ومن يعينه في غسله وبعض الحاضرين لأنه قدجرت عادة بعضهم في هذا الزمان أن الميت اذا غسل يحضر غسله أقاربه وأصحابه وذلك خلاف السنة لوسلم من اطلاعهم على عورته وان كان قدأجاز بعض العلماء حلق عانته لكن ذلك بشرط أن لايطلع على ذلك الامن يفعل ذلك به واطلاع غيره محرم. وقد تقدم الخلاف في النجاسة اذا كانت على المحل ولم يمكن ازالتها الاباليد فما بالك بازالة شيء مستغنى عنه. ألاترى أنه لوكان حيا لم تجب عليه ازالتها ولايجوزله كشف عورته لمن يزيل ذلك عنه فبعد الموت من باب أولى أن يمنع. قال علماؤنا رحمة الله عليهم ولاحجة لمن أجاز ذلك مستدلا بقوله عليه الصلاة والسلام (افعلوا بموتاكم ماتفعلوا بعروسكم) أوكما قال عليه الصلاة والسلام لأن هذا الفعل انما يتولاه العروس بنفسه لنفسه ولايجوز له أن يأذن لغيره في ذلك وكذلك لايجوز للمأذون له أن يفعله به. وهذا النوع قدعمت به البلوى في هذا الزمان في الاحياء فضلا عن الموتى فتجد بعض الناس يدخلون الى الحمام فيأمرون البلان أن يحلق لهم عانتهم فيكشف عليه من لايجوزله الاطلاع على ذلك وليته لوكان وحده وان كان محرما لكن يطلع على ذلك جماعة ممن في الحمام فانا لله وانا اليه راجعون فاذا رأى أنه قدطهر من النجاسة فليأخذ رأس الميت فيحوله الى ناحية اليمين ويخرجه عن الدكة قليلا ويجعل فمه وأنفه الى جهة الأرض ويعصر أنفه برفق فان كان هناك فضلة خرجت. فاذا فرغ من ذلك رد رأسه كما كان ثم يفيض الماء عليه وعلى الدكة حتى يرى أنه قدتنظف ذلك كله وطهر ثم يزيل ماعلى الميت من المئزر ثم يستره بغيره أوبه بعد غسله ويتحفظ على عورته لئلا تنكشف عند محاولة ذلك. فاذا فرغ فحينئذ يأخذ في الغسلة الاولى وهي الواجبة فيبدأ بأعضاء الوضوء فيغسلها ويمضمض فمه برفق بعد أن يحول رأسه

كما تقدم حتى يفرغ من مضمضته واستنشاقه لئلا ينزل الماء الى جوفه ثم يخرج بعد الفراغ من غسله و يسوكه بخرقة من صوف أومايقاربها . فاذا فرغ من ذلك رده الى الدكة كما تقدم . فاذا فرغ من غسل أعضاء وضوئه أفاض الماء على رأسه بعد تخليل شعره فيغسل رأسه بيده ثم الأيمن فالأيمن والأعلى فالأعلى من جسده و يقلبه فى أثناء الغسل يمينا و يسارا وظهرا و بطنا حتى يرى أنه قد عمه بالغسل فهذه غسلة واحدة وهى الفرض الذى لايجوز دفن الميت مع القدرة عليها الابها . ثم بعد ذلك يأخذ فى تنظيفه من الأوساخ بالماء والسدر كما ينظف الحى سواء بسواء . فاذا فرغ من هذه الغسلة الثانية أخذ شيئاً من الكافور فجعله فى اناء فيه ماء ويذيبه فيه ثم يغسل الميت به كما تقدم وصفه بعد تنظيف الميت والمئزر والدكة من أثر السدر. وليحذر من هذه البدعة التى يفعلها أكثرهم وهو أنه اذا جاء الى غسله بالماء والكافور أزال ما كان عليه من السترة الكثيفة وألقى عليه خرقة لطيفة من شمختانية ونحوها ثم يفيض عليها الماء فتبقى العورة كأنها مكشوفة اذا ابتلت الخرقة بالماء وذلك محرم بل يستره بمثل الخرقة الكثيفة التى كانت عليه أو بها بعد تنظيفها وهو مع ذلك يتحفظ من كشف العورة عند المحاولة و يغض طرفه مهما استطاع جهده مع التوفية بغسله . وليحذر من هذه البدعة الاخرى التى يفعلها أكثرهم وهو أنه اذا غسل الميت يجعله بين رجليه وهو واقف على الدكة وذلك مكروه بل يكون الغاسل واقفا بالأرض و يقلبه عند غسله له. وليحذر من هذه البدعة الاخرى التى يفعلها أكثرهم وهو أن الغاسل اذا بدأ فى غسله أخذ يذكر لكل عضو يغسله ذكرا من الاذكار وقد تقدم أن ذكر الله تعالى حسن سرا وعلنا لكن فى المواضع المأمور به فيها وهذا المحل محل تفكر واعتبار وخشية فيشتغل به عن غيره من العبادات ذكرا كان أوغيره وهو عمل السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين وغيره بدعة . فاذا

فرغ من هذه الغسلة الثالثة فقد تم غسله على الكمال ثم يتفقد فمه وأنفه من الماء لاحتمال أن يكون دخل فى جوفه شىء منه فيميل رأسه خارجا عن الدكة فان كان دخل فيهما شىء خرج ثم يعيده الى الدكة ثم ينظف ماتحت أظفاره بعود أوغيره و لايقلمها وتقليمها على مذهب مالك بدعة ممن فعله اذ أنه لم يكن من فعل السلف. ثم يسرح لحيته بمشط واسع الأسنان. وكذلك يفعل برأسه و يترفق فى ذلك فان خرج فى المشط شعر جمعه وألقاه فى الكفن يدفن معه. ثم يأخذ فوطة أوغيرها فينشف بها جميع بدن الميت فاذا فرغ منه نشف بها الدكة حتى لايبتل بها مايجعل على الميت من قميص وغيره. ثم يأخذ فى تجهيزه. فأول شىء يفعله أن يأخذ قطنة و يجعل عليها شيئاً من الكافور أوغيره من الطيب والكافور أحسن لأنه يردع المواد فيجعلها على فمه. ثم يأخذ قطنة أخرى فيفعل فيها ماتقدم و يسد بها أنفه ثم أخرى من الناحية الاخرى و يرسلها فى أنفه قليلا. ثم يأخذ خرقة فيشدها على الفم والأنف ثم يعقدها من خلف عنقه عقدا وثيقا فتبقى كأنها اللثام ثم يجعل على عينيه وأذنيه خرقة ثانية بعد وضع القطن مع الكافور على عينيه وأذنيه و يعقدها عقدا جيدا فتصير كالعصابة. ثم يأخذ خرقة ثالثة فيشد بها وسطه ثم يأخذ خرقة رابعة فيعقدها على هذه الخرقة المشدود بها وسطه أو يخيطها فيها ثم يلحمها بها بعد أن يأخذ قطنة و يجعل عليها شيئاً من الطيب والكافور وهو أحسن لأنه يشد العضو و يسده و يجعلها على باب الدبر و يرسل ذلك قليلا برفق و يزيد للمرأة فى القبل قطنة أخرى و يفعل فيه كما تقدم فى الدبر سواء بسواء ثم يلحمه عليه بالخرقة المذكورة ثم يربطها ربطا وثيقا. وليحذر من هذه البدعة بل المحرم الذى يفعله بعضهم فى هذا الزمان وهو أنهم يخرقون حرمة الميت و يرسلون فى دبره قطنا وكذلك فى حلقه وأنفه وقد تقدم مافى ذلك من مخالفة السنة واخراق حرمة الميت. ثم يأخذ فى تكفينه فيشد على وسطه مئزرا

أو يلبسه سراويل وهو أستر له . ثم يلبسه القميص . قال مالك رحمه الله والذى عليه العمل أن الميت يقمص ويعمم . ثم يعممه ويجعل له من العمامة ذؤابة وتحنيكا كما هى العمامة الشرعية فى حق الحى لكن الفرق بينهما أن الحى يرخى التحنيك بخلاف الميت فانه يشد ذلك عليه ويستوثق فى عقده لئلا يسترخى ذقنه وينفتح فمه وقد يخرج منه شئ يلوث الكفن ثم يعممه بباقى العمامة ويشدها شدا وثيقا بخلاف عمامة الحى ثم يبسط الذؤابة على وجهه فيستر وجهه بها وكذلك يفعل بما يفضل من المنعة فى حق المرأة يستر بها وجهها . ثم ينقله الى موضع الكفن فيجعله عليه ويحنطه . ومواضع الحنوط خمس . أحدها أن يجعل على ظاهر جسد الميت . الثانى أن يجعل فيما بين أكفانه ولا يجعل على ظاهر الكفن . الثالث أن يجعل على المساجد السبعة وهى الجبهة والأنف والكفان مع الأصابع والركبتان وأطراف أصابع الرجلين . الرابع أن يجعل على منافذ الوجه السبعة المتقدم ذكرها . الخامس أن يجعل على الأرفاغ وهى مغابن الجسد خلف أذنيه وتحت حلقه وتحت ابطيه وفى سرته وما بين فخذيه وأسافل ركبتيه وقعر قدميه وذلك بحسب ما يكون معه من الطيب فان قل عن استيعاب ذلك فليقتصر على الأرفاغ والمساجد السبعة المتقدم ذكرها . والمستحب أن يكفن فى وتر . ثم يأخذ طرف أحد كميه فيربطه بطرف الكم الآخر ربطا وثيقا . ثم يأخذ خرقة طويلة فيربطها موضع ربط الكمين ثم يمدها الى ابهامى رجليه فيربطها فيهما ربطا جيدا وثيقا لئلا تتحرك أطرافه وتتفرق فاذا فعل به ذلك أمن من حركتها . وهذه الصفة المذكورة انما هى اذا ألبس الميت القميص . وأما اذا أدرج فلا حاجة تدعو الى فعل ذلك لعدم حركة أطرافه . فاذا جاء الى لحده أزال الرباط عنه . وليحذر من هذه البدعة التى اعتادها أكثرهم فى هذا الزمان وهو أنهم يأخذون القطن الكثير فيجعلونه على وجه الميت حتى يعلو ثم يجعلون القطن على ركبتيه وتحت حنكه

وتحت رقبته حتى تصير رأسه وكتفاه بالسواء ثم يجعلون القطن كذلك عند ساقيه من ههنا ومن ههنا حتى يصير بطنه ورأسه ورجلاه بالسواء . وهذا الفعل قد جمع بين محرمين وبدعة . فالمحرم الاول اضاعة المال فى كثرة القطن لغير ضرورة شرعية . والمحرم الثانى أخذ ثمن القطن من مال الورثة لأن الميت ليس له من تركته الا قدر ضرورته الشرعية والزيادة على ذلك غصب لحق الوارث سيما اذا كان صغيرا ولو فرض ورضى الورثة لمنع من ذلك لأنه من باب اضاعة المال والاعانة على البدعة . وأما البدعة فكونهم اعتادوا أن يخرجوه فى كفنه بالسواء عند الناظر له كما تقدم وهذا من محدثات الامور والميت يتأذى مما يتأذى منه الحى فلو جعل شىء من القطن على وجه الحى لكان فيه تشوه وخرق لحرمته ولا يرضى بذلك فكذلك يمنع فى حق الميت لما تقدم أن حرمة الميت المسلم كحرمته فى حال حياته . وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (كسر عظم الميت ككسره وهو حى) أو كما قال عليه الصلاة والسلام . وذلك عام فى العظم وغيره قل أو كثر فكل مالا يليق به فى حال حياته لا يفعل به بعد مماته الا ما أذن الشرع فيه وما لم يأذن الشرع فيه فيمنع على كل حال . والسنة فى ادراج الميت فى كفنه أن يكون فيه بحيث يعرف رأسه وكتفاه ورجلاه كما يعلم ذلك منه فى حال الحياة وهو فى ثيابه وهذا عندهم فى هذا الزمان عيب عظيم حتى يقول بعضهم أن من غسل الميت وكفنه على هذه الصفة لا يعرف شيئا وما ذاك الا لما أنس به كثير ممن يغسل الموتى من ارتكاب مالا ينبغى من البدع وغيرها فى ذلك بسبب العوائد الرديئة وقلة العلم وهذا وما شاكله من محدثات الامور . وهذا هو عين ما جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال (كيف بك يا حذيفة اذا تركت بدعة قالوا ترك سنة) وها هو ذا فانا لله وانا اليه راجعون . واذا كان

ذلك كذلك فينبغي أن يجتنب المرء من اتصف بفعل شيء مما تقدم ذكره من عوائدهم الرديئة ولم يزل السلف الصالح رضوان الله عليهم يوصون بمن يحضرهم عند الموت ومن يغسلهم ومن يصلي عليهم ومن يلحدهم من أهل الخير والصلاح هذا وهم كما قيل عيون فى العيون فاذا كان هذا حالهم فى زمانهم على هذا الاسلوب فما بالك بهذا الزمان فلينظر الانسان لنفسه لعل أن يقع له الخلاص من هذه العوائد الرديئة . ثم ان المخالفة ههنا صعبة لأنه لو قدرنا أن الغاسل تاب الى الله تعالى ورجع عن عوائده الرديئة لتعذر ذلك عليه فى الدنيا لعدم من يتحلل منه . واذا كان ذلك كذلك فينبغي للمرء أن ينظر لنفسه قبل موته لأنه ليس أحد ينظر له فى هذا الزمان فى الغالب الا بما تقدم ذكره من تلك العوائد المخالفة للسنة المطهرة فيتعين على الانسان أن يكون من آكد وصيته أن يوصى بمن تقدم ذكره بمن يحضر موته أو من يغسله ومن يصلي عليه ومن يلحده لأنه متعذر فى هذا الزمان غالبا اذ أن الغالب من بعض الفقهاء أنهم يعرفون الأحكام ولا يعرفون كيفية المباشرة لذلك وبعضهم يهاب الميت فلا يتولى غسله ولا تجهيزه و كذلك من ينسب الى الصلاح غالبا قل أن يعرف مباشرة ذلك فبقى الأمر فى ذلك عزيزاً لقلة وجود من يعرف ذلك فقها وعملا . واذا كان ذلك كذلك فيتعين على الانسان أن يعين من يختاره من أهل الدين ويلقى اليه ما يحتاج اليه من الأحكام المحتاج اليها فى ذلك كله فى حال حياته ان أمكنه ذلك والا فيوصى به الى شخص يقوم بذلك عارف بالأحكام يحضر حين غسله ويأمر بالسنة فى ذلك و ينهى عن ضدها من العوائد الرديئة و يمشى على الاسلوب الموصوف من أحوال السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين . واذا كان ذلك كذلك فينبغي أن لا يغسله و لا يكفنه الا من يرجى بركته وخيره لأن الميت آخر عهده من الدنيا هذا الموطن فينبغي أن يختم بالوسائل الشرعية التى يحصل للميت بسببها

النفع حالا ومآلا . وما زال السلف رضوان الله عليهم يوصون بما تقدم ذكره لاعتنائهم به . وحكى فى ذلك حكايات كثيرة تدل على أن الميت غفر له ببركة من تولى ماتقدم ذكره . فمن ذلك ماحكى الشيخ الامام السهروردى رحمه الله فى كتاب العوارف له أن رجلا ممن لايرضى حاله مات فسئل بعض الاكابر «سماه» أن يصلى عليه فامتنع من ذلك فرؤى الميت فى المنام وهو فى حالة حسنة فقيل له مافعل الله بك قال غفر لى قيل له بماذا قال باعراض فلان عنى حيث ترك الصلاة على قال الامام السهروردى رحمه الله فهؤلاء اقبالهم رحمة واعراضهم رحمة . ألا ترى أنه لما أن ترك الصلاة عليه رحم لاجل أنه ميت وامتثلت السنة فى حقه فرحم لامتثال السنة فيه . واذا كان ذلك كذلك فيتعين التحفظ على امتثال السنة فى هذا الموطن وان كان صاحبه معرضا فى طول عمره لأن الختام اذا كان حسنا لعله يحسن الجميع . نسأل الله الموت على الاسلام بمنه وكرمه انه قريب مجيب . وقد سمعت سيدى أبا محمد رحمه الله يقول انه كان عندهم ببلاد الاندلس امرأة مسرفة على نفسها فماتت على شر حال فرآها بعض الصالحين فى النوم وهى فى حالة حسنة فقال لها أنت فلانة قالت نعم فقال كيف حالك فقالت غفر لى فقال لها بماذا وقد كنت وكنت فقالت لما أن أخرج بجنازتى مربها على رجل خياط وفى كمه ثوب لسيدى فلان فصلى على فغفر لى كرامة لذلك الثوب . وقد حدثنى بعض أولاد سيدى أبى محمد المرجانى رحمه الله أن والدته أتت الى أبيه فأخبرته أن أمها قد توفيت وطلبت منه قميصاً تكفنها فيه فأعطاها فلما أن كان من الغد أخبرها بأن الملكين عليهما السلام جاءاها فقال أحدهما للآخر اذهب بنا فان ثوب المرجانى عليها فلم يتعرضا لها . وكنت أعهد بمدينة فاس أن الغسالين للموتى على قسمين قسم من أهل الخير والصلاح فاذا مات أحد ممن يرتضى دينه غسله هذا القسم من غير أجرة ولا عوض بل لابتغاء الثواب والقسم الثانى يغسلون

بالأجرة وهم عامة الناس . وينبغى لمن يغسل الميت أن يغتسل بعدأن يفرغ من غسله لأنه اذا وطن نفسه على الغسل بالغ فى غسل الميت وتنظيفه وأكثر الناس فى هذا الزمان لايغتسلون فيدعون ذلك تحفظا على أنفسهم فاذا تحفظوا فقد يؤول ذلك الى الاخلال بشيء من تنظيف الميت أو ترك شيء من المأمور به فيه والله الموفق . وليحذر من هذه البدعة التى تجر الى المحرم وهو مااعتاده أكثرهم فى هذا الزمان وهو أن ماكان على الميت يأخذه الغاسل الذى يغسله فهذه بدعة جرت الى المحرم وذلك أن أهل الميت اذا علموا بأن الغاسل يأخذ ماعلى ميتهم لم يتركوا عليه شيئاً الا مالابد منه وقديترك بعضهم موصوف العورة . وقد مات بعض المباركين من المعارف فدخلت عليه وهو يغسل وعلى عورته خرقة من عمامة شمختانية ملبوسة وقدابتلت بالماء فبقيت العورة موصوفة فأنكرت عليهم وأمرتهم بستره فقال الغاسل هذا الذى وجدناه ليس عندهم غيره فأخذت فوطة جديدة كانت على اذ ذاك ودفعتها لهم ليستروه بها فلما رأى أخو الميت ذلك أسرع فجاء بفوطتين غليظتين جياد فستروه باحداهما وعملوا الأخرى من فوقها كما تقدم ذكره قبل. فانظر الى هذه البدعة كيف تجر الى المحرمات فعلى هذا ينبغى بل يتعين تعيين أجرة الغاسل وأن يشترط عليه أن لايأخذ شيئاً مما يجده على الميت كائناً ماكان فتنسد هذه الثلمة التى وقع بسببها كشف العورة لغير ضرورة شرعية وقد تقدم المنع من كشف العورة لحلق العانة والنجاسة اذا كانت على المحل ولايمكن زوالها الا بمباشرتها باليد فمن باب أولى وأحرى أن يمنع هذا . وليحذر من هذه البدعة التى اعتادها أكثرهم وهى أنهم اذا مات لهم ميت نادوا عليه وقد روى الترمذى عن حذيفة رضى الله عنه أنه قال لما احتضر اذا أنامت فلاتؤذنوا بى أحدا فانى أخاف أن يكون نعيا وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النعى فاذا مت فصلوا على وسلونى الى ربى سلا . لكن قدتسامح

علماؤنا رضى الله عنهم فى الاعلام بذلك بأن يقف الرجل على باب المسجد عند انصراف الناس من الصلاة فيقول أخوكم فلان قدمات بصوت يجهر به على سنة الجهر لاعلى مايعهد من زعقات المؤذنين وعوائدهم فان ذلك من النعى المنهى عنه وماتقدم من النداء على الغائب فهو محمول على ماذكر هنا من أنه يقف على باب المسجد ويجهر بصوته كما ذكر . وأما على مااعتاده المؤذنون من زعقاتهم فيمنع والله الموفق. ثم يربط الكفن من عند رأسه ومن عند رجليه ربطا وثيقا. ثم يأخذ فى نقله واخراجه من البيت الى النعش وذلك كله برفق وحسن سمت و وقار. وليحذر عند ذلك مما يفعله أكثر الناس وهو أنهم عند اخراج الميت يقيمون الصيحة العظيمة نساء و رجالا وقد يختلطون وهو الغالب و يسمون ذلك وداعا للميت وقياما بحقه وذلك كذب منهم وافتراء لمخالفتهم فى ذلك السنة المطهرة والغالب أن يكون مع ذلك لطم الخدود وماشا كله مما تقدم منعه فى الشرع الشريف فليحذر من هذا جهده ولا يمنع أحد من البكاء الجائز فى الشرع مالم يكن معه رفع صوت أولطم أوشىء من العوائد الرديئة المعهودة عندهم الممنوعة شرعا والتصبر عن البكاء أجمل لمن استطاع. وليحذر من هذه البدعة التى يفعلها أكثرهم وهو أن الغاسل اذا دخل ليغسل الميت يقيمون اذذاك الصيحة العظيمة ويفعلون نحو ماتقدم من أفعالهم المذكورة قبل بل يزيد النساء على ذلك فعلا قبيحا وهو أن الغاسلة اذا دخلت لتغسل الميتة قام النساء اليها بالشتم والضرب وهى على علم من ذلك بالعادة فتأخذ حذرها وتتخبأ منهن ويقلن لها ياوجه الشؤم فتقول هى لهن جوابا انما رأيت الشؤم عندكن الى غير ذلك من الألفاظ الرديئة ثم بعد حين يمكنها من تغسيل الميتة بعد أن تعظهن وتذكرهن بأن هذا قضاء الله تعالى وقدره وهذا كله مخالفا للشريعة المطهرة فليحذر منه وبالله التوفيق . وكذلك يحذر مما

يفعله بعضهم وهو أنهم اذا أخذوا فى غسل الميت وقد تقدم أن الموضع موضع اعتبار و رجوع وسكون يفعلون اذ ذاك ضد المراد و يكثرون اللغط مع الغاسل والحمالين لأن فى ذلك الوقت يقع الاتفاق على أجرة الغسل والمشاحة فيها وتقع ضجة عظيمة اذ ذاك وهو ضد ما أمروا به من التذكر والاعتبار كما تقدم فيحتاج وكيل الميت أن يحتاط له بما يقطع مادة هذه الأشياء الممنوعة فى الشرع الشريف بأن يتفق مع الغاسل والحمالين قبل الاتيان بهم على شىء معلوم لانزاع بينهم فيه بعد ذلك حتى يسلم من الوقوع فيما تقدم ذكره . وقد كان السلف رضوان الله عليهم ليس لهم غاسل ولا حمال بأجرة بل كانوا يغسلون بعضهم بعضا و يحمل بعضهم بعضا و يتزاحمون على النعش ابتغاء الثواب فيحملونه بالنوبة والعمل عليه الى اليوم ببلاد الحجاز غالبا فمن قدر على هذا فبها ونعمت ومن عجز عنه فيزيل ما يتوقع مما تقدم ذكره بالاتفاق على شىء معلوم . وكذلك يحذر مما يفعله أكثرهم فى هذا الزمان وهو أن الغاسل أو الغاسلة اذا فرغا من غسل الميت وتكفينه يأتون به الى حضرة الرجال ان كان رجلا أو الى النساء ان كانت امرأة حتى يأخذوا شيئاً من حطام الدنيا من الحاضرين وذلك بدعة ومخالفة للسنة المطهرة لأن من السنة اكرام الميت بتعجيل دفنه . وقد روى الأئمة الستة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اسرعوا بجنائزكم فان تك صالحة فخير تقدمونها اليه وان تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم) وهؤلاء يتركونه بعد تجهيزه لغير ضرورة شرعية بل للبدعة والرغبة فى حطام الدنيا وذلك منهم فعل قبيح شنيع فليحذر من هذا بما تقدم ذكره من الاتفاق على شىء معلوم ليرد به ما أحدثوه من البدعة والله المسئول فى الصفح والتجاوز . وليحذر من هذه البدعة التى يفعلها بعضهم وهو أن الماء الذى يغسل به الميت يجتمع تحت دكة الغسل فيعملون ترابا حولها

ليرد المـاء أن يسيل من نواحيها الاربع فاذا فرغوا من الغسل رفعوا الدكة ونزحوا من المـاء ماأمكنهم ثم يخلطون مابقى منـه بذلك التراب ثم يحملونه و يرمونه خارج البيت فتتنجس أيديهم وأجسادهم وثيابهم ثم بعدذلك يأخذون الميت و يحملونه حتى يخرجوه من البيت و يضعونه على النعش من غير أن يغسلوا ماأصابهم من المـاء النجس فينجسون الكفن ونحن قدأمرنا بطهارته وهـذا عكس الحال فليحذر من هذا جهده. فاذا أخذوا فى اخراجه الى النعش فليحذر من هذه البدعة الاخرى التى يفعلها أكثرهم وهى حضور شخص يسمونه بالمدير فيزكى الميت على الله تعالى بمثل قوله السعيد الشهيد القاضى الصدر الرئيس الصالح العابد الخاشع الورع كهف الفقراء والمساكين وللمرأة السعيدة الشهيدة الى غير ذلك من ألفاظهم المعهودة عندهم المنهى عنها فى الشرع الشريف التى جمعت بين التزكية والكذب الصراح والمحل محل صدق واخلاص و رجوع الى المولى سبحانه وتعالى فقابلوه بضد المراد منهم والميت فى هـذا الوقت مضطر الى الدعاء له واظهار فقره ومسكنته واضطراره واحتياجه الى رحمة ربه سبحانه وتعالى وهم يأخذون فى نقيض ذلك كله فانا لله وانا اليه راجعون. ثم ان المدير لم يكتف بالتزكية للميت والكذب فى حقه حتى فعل ذلك فى حق غيره من الأحياء بنحو قوله ليتقدم سيدنا القاضى الصدر الرئيس وماأشبه ذلك من التزكية المنهى عنها فى الشرع ثم بعد ذلك يقول فلان الدين ينعته بغير اسمه الشرعى وقد تقدم مافى النعوت من المنع وتعظيمه لكل واحد منهم على قدر مايرجوه منه فى الحال أوفى المـآل وقد تقدم أن المحل محل تواضع و رجوع وتوبة وما يفعلونه من حضور المدير وما يرضون به من أفعاله وأقواله كل ذلك نقيض وعكس حال السلف رضى الله عنهم فى هـذا المحل. وليحذر من هـذه البدعة التى يفعلها أكثرهم وذلك أن من مات له ميت بموضع وكان بقربه مسجد فاذا أتى النـاس جلسوا

فى ذلك المسجد ينتظرون خروج الجنازة والمسجد انما بنى للصلاة وما أشبهها لا للجلوس فيه لانتظار الموتى فينزه المسجد عن الجلوس فيه لغير مابنى له وبعضهم يدخل ولا يصلى التحية . وقد قال الله فى كتابه العزيز (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) قال علماؤنا رحمة الله عليهم فى معناه أنها تغلق ولا تفتح الا أوقات الصلاة ويدخل فى ذلك كل من أراد الصلاة فيه أو انتظارها فى أى وقت كان . وليحذر مما يفعله أكثرهم من حضور القراء اذ ذاك ويبسط لهم حصير على الطريق أو بساط أوهما معا فيجلسون عليها ويقرؤن القرآن وفى ذلك من مخالفة الشرع الشريف أشياء . فمنها أن القرآن ينزه عن أن يقرأ فى الطرق وفى الأسواق فى مواضع النجاسات اذ الغالب على الطرق ماهو معلوم من كثرة بول الدواب وغيرها وممن لا يتحفظ من بنى آدم والقرآن ينزه عن ذلك . ومنها أن الطرقات محل للمرور فيها لا للجلوس . وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس على الطرقات فمن جلس فيها لغير ضرورة شرعية فهو غاصب لذلك الموضع فى وقته ذلك ومن غصب شبرا من أرض طوقه يوم القيامة الى سبع أرضين وهم غاصبون للمواضع التى جلسوا فيها للقراءة فى وقتهم ذلك حتى ينصرفوا . ومنها مايفعله القراء فى قراءتهم من شبه الهنوك والترجيعات كترجيع الغناء حتى أنك اذا لم تكن حاضرا معهم فى موضع وتسمعهم لا تفرق بينهم وبين الأغانى غالبا وهذا مشاهد منهم مرئى من فعلهم وهو من أكبر القبائح لو سلم من المحرم المجمع عليه وهو الزيادة فى كتاب الله تعالى والنقصان منه عمدا . وقد تقدم مافى ذلك فى أول الكتاب فأغنى عن اعادته ومنها أنهم يأتون بالقراء فكان ينبغى أن لو كان ذلك من السنة أن تكون قراءتهم بحضرة الميت لان القرآن اذا قرىء تنزل الرحمة لعل أن تعم الميت وتعمهم لكنهم يفعلون ضد ذلك فيتركونهم يقرؤن فى الطرق فيالله وياللعجب أين

ذهبت العقول لو لم يكن للشرع الشريف فى ذلك أمر ولا نهى لكان فعله قبيحا شنيعا فكيف والشرع ينهى عنه . والحاصل من ذلك أنهم تركوا أمر الشرع ودلالة العقل وفعلوا مازين لهم اللعين . وقد نقل الباجى رحمه الله فى كتاب سنن الصالحين وسنن العابدين أن ابليس اللعين يقول العجب لبنى آدم يحبون الله ويعصونه ويبغضونى ويطيعونى . وليحذر من البدعة الأخرى التى يفعلها أكثرهم وهو أنهم يأتون بجماعة من الناس يسمونهم بالفقراء الذاكرين يذكرون أمام الجنازة جماعة على صوت واحد ويتصنعون فى ذكرهم ويتكلفون به على طرق مختلفة وكل طائفة لها طريق فى الذكر وعادة تختص بها فيقولون هذه طريقة المسلمية مثلا وهذه طريقة كذا وهذه طريقة كذا كما جرت عادتهم فى اختلافهم فى الأحزاب التى يقرؤنها فيقولون هذا حزب الزاوية الفلانية وهذا حزب الزاوية الفلانية وهذا حزب الرباط الفلانى وهذا حزب الرباط الفلانى كل واحد لايشبه الآخر غالبا . ثم العجب منهم كيف يأتون بالفقراء للذكر على الجنازة للتبرك بهم وهم عنه بمعزل لانهم يبدلون لفظ الذكر بكونهم يجعلون موضع الهمزة ياء وبعضهم ينقطع نفسه عند آخر قوله لااله ثم يجد أصحابه قد سبقوه بالايجاب فيعيد النفى معهم فى المرة الثانية وذلك ليس بذكر ويؤدب فاعله ويزجر لقبح ماأتى به من التغيير للذكر الشرعى . واذا كان ذلك كذلك فأين البركة التى حصلت بحضورهم على أنهم لو أتوا بالذكر على وجهه لمنع فعله للحدث فى الدين وقد تقدم . وليحذر من هذه البدعة الأخرى التى يفعلها أكثرهم وهى قريبة العهد والحدوث وأول من أحدثها وال كان بمصر وهى تكبير المؤذنين مع الجنازة وقد تقدم فيجتمع بسببهم مع القراء والفقراء الذاكرين والمريدين ومن يتابعهم فى فعلهم جمع كثير فيبقى فى الجنازة غوغاء وتخليط وتخبيط فأين هذا من امتثال الآية الكريمة وهى قوله تعالى ﴿ واذا قرئ القرآن فاستمعوا له

وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ وقد تقدم مافى زعقات الجميع بما لاينبغى. ويزيد بعضهم زعقات النساء من خلفهم وكشف الوجوه واللطم على الخدود وماأشبه ذلك على ماهو مشاهد معلوم منهم. وهذا وماشا كله ضد ماكانت عليه جنائز السلف الماضين رضى الله عنهم أجمعين لان جنائزهم كانت على التزام الأدب والسكون والخشوع والتضرع حتى ان صاحب المصيبة كان لايعرف من بينهم لكثرة حزن الجميع وماأخذهم من القلق والانزعاج بسبب الفكرة فيماهم اليه صائرون وعليه قادمون حتى لقد كان بعضهم يريد أن يلقى صاحبه لضرورات تقع له عنده فيلقاه فى الجنازة فلايزيد على السلام الشرعى شيئاً لشغل كل منهما بماتقدم ذكره حتى أن بعضهم لايقدر أن يأخذ الغذاء تلك الليلة لشدة ماأصابه من الجزع كما قال الحسن البصرى رضى الله عنه ميت غد يشيع ميت اليوم. وانظر رحمنا الله تعالى واياك الى قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لمن قال فى الجنازة استغفروا لأخيكم فقال له لاغفر الله لك. فاذا كان هذا حالهم فى تحفظهم فى رفع الصوت بمثل هذا اللفظ فما بالك بما يفعلونه مما تقدم ذكره فأين الحال من الحال فانا لله وانا اليه راجعون. فعلى هذا ينبغى بل يتعين على من له عقل أن لا ينظر الى أفعال أكثر أهل الوقت ولا لعوائدهم لانه ان فعل ذلك تعذر عليه الاقتداء بأفعال السلف وأحوالهم فالسعيد السعيد من شد يده على اتباعهم فهم القوم لايشقى بهم من جالسهم ولا من أحبهم * ان المحب لمن يحب مطيع * وقد تقدم مافى الدخول بالميت الى المسجد والحالة هذه. لكن بقى شئ لم يتقدم ذكره فيتعين التنبيه عليه وذلك أن بعض من يعتنون به من الموتى يتركونه بعدأن يصلى عليه فى المسجد ويقفون عنده يدعون ويطولون الدعاء وبعضهم يفعل ماهو أكثر من ذلك وهو تكبير المؤذنين اذ ذاك على ما تقدم من زعقاتهم ويطولون فى ذلك والسنة التعجيل بالميت الى دفنه ومواراته وفعلهم ضد ذلك فليحذر من

هذا والله المستعان . وقد تقدم أن الصلاة على الميت فى المسجد مكروهة على مذهب مالك رحمه الله جائزة على مذهب الشافعى رحمه الله فالزيادة على ذلك هى البدعة . وقد تقدم الكلام على شروط وجوب الصلاة وفرائضها وسننها وفضائلها لكن بقيت شروط الصلاة على الجنازة وأركانها وسننها . فشروطها سبعة وهى طهارة الحدث وطهارة الخبث وستر العورة واستقبال القبلة وترك الكلام وترك الافعال الكثيرة والنية . وأركانها أربعة أربع تكبيرات والدعاء والتسليم والقيام مع القدرة . وسننها ستة الاولى رفع اليدين فى التكبيرة الاولى والثانية الحمد والثناء على الله تعالى والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والثالثة الدعاء للمؤمنين والمؤمنات والرابعة التيامن بالسلام واخفاؤه والخامسة أن تكون فى جماعة والسادسة أن يوضع الميت بين يدى المصلى ورأسه الى جهة المغرب وموضع قيام المصلى فى وسط الرجل والمرأة عند منكبيها على مذهب مالك رحمه الله تعالى لانه يخاف عليه ان قام فى وسطها أن يتذكر بذلك ما يفسد الصلاة أو ما تنزه الصلاة عنه وهذا اذ كان الميت ممن يغسل ويصلى عليه . ويخرج من ذلك ثلاثة من الموتى لا يغسلون ولا يصلى عليهم . أولهم الشهيد بين الصفين فى نصرة التوحيد . والثانى السقط اذا لم يستهل صارخا ولا حكم لحركته . والثالث الكافر اذا مات على كفره وقد وردت فى الدعاء فى الصلاة على الميت أحاديث وآثار جملة وقد جمع الشيخ أبو محمد ابن أبى زيد رحمه الله غالب ذلك فى الدعاء الذى ذكره فى رسالته وهو قوله (الحمد لله الذى أمات وأحيا والحمد لله الذى يحيى الموتى له العظمة والكبرياء والملك والقدرة والسناء وهو على كل شىء قدير اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت ورحمت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد اللهم انه عبدك وابن عبدك وابن أمتك أنت خلقته وأنت رزقته وأنت أمته وأنت تحييه وأنت أعلم بسره وعلانيته جئناك شفعاء له فشفعنا فيه اللهم انا نستجير بحبل جوارك له انك ذو وفاء وذمة

اللهم قه من فتنة القبر ومن عذاب جهنم اللهم اغفر له وارحمه واعف عنه وعافه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بماء وثلج وبرد ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه اللهم ان كان محسنا فزد فى احسانه وان كان مسيئا فتجاوز عن سيئاته اللهم انه قد نزل بك وأنت خير منزول به فقير الى رحمتك وأنت غنى عن عذابه اللهم ثبت عند المسألة منطقه ولا تبتله فى قبره بما لا طاقة له به اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده) تقول هذا باثر كل تكبيرة وتقول بعد الرابعة (اللهم اغفر لحينا وميتنا وحاضرنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا انك تعلم متقلبنا ومثوانا ولوالدينا ولمن سبقنا بالايمان مغفرة عزما وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات اللهم من أحييته منا فاحيه على الايمان ومن توفيته منا فتوفه على الاسلام واسعدنا بلقائك وطيبنا للموت وطيبه لنا واجعل فيه راحتنا ومسرتنا) ثم تسلم فان كانت امرأة قلت (اللهم انها أمتك) ثم تتمادى بذكرها على التأنيث غير أنك لا تقول وأبدلها زوجا خيرا من زوجها لانها قد تكون زوجا فى الجنة لزوجها فى الدنيا ونساء الجنة مقصورات على أزواجهن لا يبغين بهم بدلا والرجل تكون له زوجات كثيرة فى الجنة ولا يكون للمرأة أزواج فان كان طفلا فتثنى على الله تبارك وتعالى وتصلى على نبيه ثم تقول (اللهم انه عبدك وابن عبدك وابن أمتك أنت خلقته وأنت رزقته وأنت أمته وأنت تحييه اللهم اجعله لوالديه سلفا وذخرا وفرطا وأجرا وثقل به موازينهما وأعظم به أجورهما ولا تحرمنا واياهما أجره ولا تفتنا واياهما بعده اللهم ألحقه بصالح سلف المؤمنين فى كفالة ابراهيم عليه السلام وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وعافه من فتنة القبر ومن عذاب جهنم) تقول ذلك باثر كل تكبيرة وتقول بعد الرابعة (اللهم اغفر لأسلافنا وأفراطنا ولمن سبقنا بالايمان اللهم من أحييته منا فأحيه على الايمان ومن توفيته

منا فتوفه على الاسلام واغفر للسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات) ثم تسلم ولا بأس أن تجمع الجنائز فى صلاة واحدة و يلى الامام الرجال ان كان فيهم نساء وان كانوا رجالا جعل أفضلهم مما يلى الامام وجعل من دونه الصبيان والنساء من وراء ذلك الى القبلة . فان كان مأموما ولا يعرف ماهو الميت أواحداً أو أكثر أو ذكراً أو أنثى أو صغيراً أو كبيراً فانه ينوى أن يصلى على من صلى عليه امامه ثم يدعو بالدعاء المتقدم ذكره على ماتقدم فاذا أخرج الميت من موضع الصلاة عليه فقد تقدمت كيفية خروجه على السنة ومايتعاطونه من غيرها وهم يستمرون على ذلك الى أن يصلوا بها الى موضع خارج عن الاسواق يسمونه بدرب الوداع فاذا وصلوا اليه قطعوا كل ماتقدم ذكره من عوائدهم من القراء والفقراء الذاكرين والمؤذنين ثم يفعلون عند ذلك أيضا أفعالا مخالفة للسنة المطهرة . فمنها أنهم يضعون النعش هناك و يقف ولى الميت بموضع والمدير ينادى أمامه فى الناس أن يأتوا الى التعزية و يتكلم بألفاظ معلومة محتوية على الكذب والتزكية كما تقدم فيأتونه للتعزية واحدا بعد واحد والمدير يزكى و يثنى على كل واحد منهم كما تقدم . والتعزية جائزة قبل الدفن ان لم يحصل للميت بسببها تأخير عن مواراته فان حصل ذلك فتمنع . والأدب فى التعزية على مانقله علماؤنا رحمة الله عليهم أن تكون عند رجوع أهل الميت بعد الدفن الى بيته وسيأتى بيان صفتها فى موضعه ان شاء الله تعالى . ثم ان من عزى منهم أكثرهم يرجعون من ذلك الموضع والمشيعون للجنازة انما يشيعها من يشيعها منهم لأمرين أو لأحدهما وهما الصلاة عليها ودفنها أو الصلاة عليها ليس الا . فمن خرج للصلاة عليها فانصرافه من حيث صلى عليها ومن خرج لهما معا فانصرافه بعد مواراتها . وكذلك من يخرج للدفن فقط لعذر يمنعه عن الصلاة وهم يرجعون من الموضع الذى يسمونه بدرب الوداع وهو ليس بواحد من الموضعين المتقدمى

الذكر ويرتكبون فيه محذورا على مذهب مالك رحمه الله لأن من مذهبه أن من دخل فى عمل قربة يلزمه اتمامه وهم قد شرعوا فى التشييع من الموضع الذى صلى فيه على الجنازة الى الموضع المسمى بدرب الوداع كما تقدم وهذا عمل قربة قد شرعوا فيه فيتعين عليهم اتمامه وهو أن يتبعوه الى أن يوارى بالتراب. ألا ترى الى قول مالك رحمه الله لما أن سئل عن النساء يصلين صلاة العيد قيل له أينصرفن قبل الخطبة فقال لا من دخل فى عمل وجب عليه اتمامه فلا ينصرفن حتى يفرغ الامام من خطبته وان كن لا يسمعنها أو كما قال لأن صلاة العيد ليست بواجبة عليهن فلما أن شرعن فيها لزمهن اتمامها على سنتها وذلك بسماع الخطبة بعد الصلاة فكذلك فيما نحن بسبيله اذ أن اتباع الجنازة ليس بواجب فمن تبعها بعد الصلاة عليها فقد شرع فى قربة فيلزمه اتمامها والاتمام لا يكون الا بمواراتها والله الموفق . وبعضهم اذا كان لهم ميت يعتنون به يتركونه عند درب الوداع ساعة يقرؤن ويذكرون ويكبرون كما تقدم من فعلهم بعد الصلاة على بعض الموتى ويسمونه وداعا وهو مخالف للسنة لأن السنة اكرام الميت بالتعجيل بدفنه ثم ان القراء والذاكرين والمكبرين فى الغالب يرجعون من هذا الموضع ثم العجب من فعلهم ذلك لأنهم يزعمون أنهم يفعلون ما يفعلون للتبرك فكان ينبغى على مازعموا أن يصحبوا الميت بذلك كله الى أن يوارى فى قبره فلما أن اقتصروا على مافعلوا فى الأسواق والطرق دون غيرها كان ذلك دليلا على أن مافعلوه انما هو لاجل الناس . ثم ان السنة فى تشييع الجنازة أن من يشيعها يمشى معها حتى تدفن وهم يفعلون غير هذا لأنهم يتبعونها حتى يصلوا عليها ويمشوا معها الى درب الوداع فاذا أتوا اليه فنهم من يمشى ومنهم من يركب وكل يسلك مايختاره من الطرق فيسبقون الجنازة الى القبر وتبقى الجنازة تجرى بها الحمالون ولا يشيعها الا القليل من الناس ومن شدة جرى الحمالين بها ترى الميت يهتز

على النعش ورأسه يخفق وبدنه يضطرب ويتمخض فؤاده وربما كان ذلك سببا الى خروج شىء من الفضلات من جوفه الى فمه أو دبره فيذهب المعنى الذى لأجله أمرنا بتغسيل الميت وهو الاكرام للقاء الملائكة وهذا كله شنيع من الفعل وأصل ذلك كله انما نشأ من مخالفة السنة والنظر اليها والتبرك بمراسمها لأنها لاتفعل فى شىء الا حلت البركة فيه وذهب كل مايتخوف منه من المفاسد فليحذر من هذا جهده والله الموفق . فان قال قائل ان كثيرا من الناس لايقدرون على المشى معها لاستعجال الحاملين بها . فالجواب أن الاستعجال هنا مكروه لمخالفة السنة المطهرة ولما يخشى أن يخرج شىء من الفضلات من الميت كما تقدم فيمنعون من العجلة التى تؤدى الى الضرر بالميت وبمن يمشى معه . وهذا عكس مايمشون به حين الخروج به من بيته الى موضع الصلاة عليه ومنه الى درب الوداع فانهم يمشون به الهوينا . وقد جاء النهى عنه بما ورد (ولاتدبوا بها كدبيب اليهود) وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم ان السنة فى المشى بالجنازة أن يكون كالشاب المسرع فى حاجته وهذا المأمور به هو وسط بين مايفعلونه أولا من الدبيب بها وآخرا من الاستعجال الذى يضر بها ﴿وكان بين ذلك قواما﴾ فكانت السنة عند أكثرهم لايعرفونها اذ أنهم لوعرفوها ماتركوها لأن السنة لايتركها أحد مع عدم الضرورة وليس هنا ضرورة داعية الى تركها فانا لله وانا اليه راجعون . ويكون الماشون أمامها والركبان خلفها الى قبرها لأن الماشى أفضل من الراكب فيتقدم رجاء قبول شفاعته لأن حاله حال تواضع وافتقار والمحل قابل لذلك . ثم اذا مشى المشاة أمامها والركبان خلفها فالسنة أن لايتكلم أحد مع أحد لأن الكلام فى هذا المحل لغير ضرورة شرعية بدعة اذ أنهم ذاهبون للشفاعة يرجون قبولها فيشتغلون بما هم اليه صائرون فيكون كل واحد منهم مشتغلا فى نفسه بالاعتبار وبالدعاء للميت أو لنفسه

وللمسلمين أو لجميع ذلك كله. وقد كان السلف رضى الله عنهم فى حضور جنائزهم يتناكر بعضهم من بعض كما تقدم ذكره اذا دخل عليهم شهر رمضان حتى اذا رجعوا للبلد تعارفوا على عادتهم فى ودهم الشرعى . ثم العجب من بعضهم فى كونهم يسبقون الجنازة ويجلسون ينتظرونها ويتحدثون اذ ذاك فى التجارات والصنائع وفى محاولة أمور الدنيا. ومن كان على هذه الصفة كيف يرجى قبول شفاعته. بل بعضهم يفعل ذلك والميت يقبر فى الغالب. بل بعضهم يتضاحكون حين يتكلمون وآخرون يتبسمون وآخرون يستمعون وكل ذلك مخالف للسنة المطهرة فانا لله وانا اليه راجعون. وينبغى أن يشرع أولا فى حفر القبر قبل الأخذ فى غسله. وقد كان الغالب على حال السلف رضى الله عنهم أن يحفر بعضهم لبعض كما تقدم فى الغسل وعلى ذلك أكثر أهل الحجاز الى اليوم ولا بأس باجارة من يحفره وينبغى أن يكون الحفر فى المقبرة لأنه يؤمن عليه فيها بخلاف أن لو دفن فى غيرها فانه لا يؤمن من النبش عليه أو وصول النجاسات اليه أو يدفن فى أرض مستعارة أعنى لا أصل لها كالكيمان وماشابهها وذلك كله ليس بحرز للميت لانه قد ينبش ويبنى عليه وانما حرزه مقبرة المسلمين . وينبغى لولى الميت أن يختار له الدفن عند العلماء والأولياء والصالحين للتبرك بهم لما ورد (هم القوم لايشقى بهم جليسهم) ولما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) فلعل بركة الجوار وهو الغالب أن تعود على من جاورهم ونزل بساحتهم وقد مضت عادة السلف رضى الله عنهم أن يختاروا الدفن عند قبور الآباء والأقارب عند عدم القدرة على الدفن عند الأولياء والصلحاء فان اجتمعا فياحبذا . وينبغى أن يكون الذى يحفر القبر من أهل الدين والخير والأمانة لانه اذا لم يكن على هذه الصفة فقد يجد فى الموضع أثر ميت فيزيله أو يكسره وذلك لا يجوز.

لان الموضع حبس على من دفن فيه حتى لا يبقى منه أثر ألبتة ثم بعد ذلك يتصرف فيه وأما مع وجود شيء منه فلا يجوز ومن فعل ذلك فهو غاصب لموضع الميت الأول والتحلل منه متعذر فيتحفظ من هذا جهده و بعض الناس فى هذا الزمان يحفرون ويرمون عظام الموتى بعد تكسيرها بموضع آخر وهو محرم فان لم يجد موضعا يحفر فيه بسبب آثار الموتى التى هناك فليخرج عن المقبرة الى البرية قليلا بحيث يكون متصلا بها فهو أبرأ للذمة ويراعى مع ذلك أن يكون قريبا من الطريق دون شيء يستره عن المارين مثل جدار أو غيره فلعل أن يناله بركة من يمر على تلك الطريق من المسلمين ولعل من يترحم عليه منهم لان الميت مضطر الى ذلك كائنا ما كان. وحكمة دفن الميت فى الصحراء قد تقدم ذكرها. وذلك بخلاف ما يفعلون فى هذا الزمان وهو أن من كان له رياسة ومال عمل له تربة فى البلد ودفن فيها فتصيبه النجاسات وتمر عليه السرابات فيتاع الميت فيها وكذلك يفعلون فى المقبرة يبنون فيها البيوت و يعملون فيها السرابات و بعضهم يبنون الآبار والحمامات وقد تقدم قبح ذلك وما فيه من المخالفة للشرع الشريف. واذا كان ذلك كذلك فيتعين أن يبعد بالحفر عن هذه المواضع حتى لا يصل الى الميت شيء من النجاسات والرطوبات. واذا حفر القبر فينبغى أن يكون من يحفره ممن يعرف القبلة معرفة جيدة و لا يعمل على ما يجده من المحاريب فى القبور لأن الغالب عليها الانحراف عن القبلة لأن أكثر من يضعها لا يعرف شيئاً من علم ذلك فيقع بسببه الخطأ والخلل فان لم يكن عارفا بذلك فيتعين عليه أن يأتى بمن يعرف الحكم فى ذلك حتى يكون القبر الى القبلة بالسواء. و ينبغى له بل يتعين عليه أن يحفر للميت على طوله أو أزيد قليلا حتى اذا دخل فى قبره يكون دخوله فيه بالسواء وعلى ذلك مضى السلف والخلف. وهذا بخلاف ما يفعله بعض أهل الوقت من أنهم يخالفون السنة فى صفة حفر القبر فيحفرونه من

أعلاه ضيقا ومن أسفله بطول الميت أوأقل منه وذلك لايجوز لأن الغالب فى الموتى أنهم لايمكن أن يتناولهم الرجل الواحد أعنى مع التحفظ على دخول الميت فى القبر على السنة باحترامه فيحتاج الى أكثر من الواحد . ومذهب مالك رحمه الله أنه ليس لذلك حد من شفع أو وتر ولكن قدر مايحتاج اليه الميت ويقوم به ويكون ذلك برفق وتؤدة حتى كأن الميت لايتحرك لوجود التلطف به فى ادخاله فى قبره . واذا كان ذلك كذلك فيحتاج ولى الميت أن يأخذ قياسه ويحفر له على قدر ذلك أوأزيد قليلا ويكون ذلك بالسواء من أعلى القبر الى اللحد حتى يدخل الميت فى قبره بالسواء كما تقدم ويكون من يدخله فى قبره من أهل العلم والخير والصلاح لأنه آخر عهده بالدنيا وأول منزل يحل فيه من منازل الآخرة فينبغى أن يكون آخر عهده بمن اتصف بما تقدم ذكره . وينبغى أن لايمكن الحفارين بالاجرة فى هذا الزمان أن يدخلوه فى قبره لعدم اتصافهم بالعلم والصلاح غالبا فاذا أرادوا أن يدخلوه فى قبره فيكون المتناولون له من أهل الخير والصلاح كما تقدم فيسلون الميت من جهة رأسه ويتناولونه قليلا قليلا برفق وأكثر الناس فى هذا الزمان يفعلون ضد ذلك وهو أن الحفار يتناوله حتى اذا نزل أكثره جعله الحفار على ركبتيه ثم يرميه بشدة فيقع فى القبر وهو يضطرب وفى ذلك اخراق لحرمة الميت وقد يكون ذلك سببا لخروج الفضلات منه كما تقدم فليحذر من هذا وماشاكله . ثم انهم يدخلونه القبر منكوسا على رأسه وذلك يمنع لثلاث معان . أحدها مخالفة السنة المطهرة لأن السنة قد مضت أن يدخل فى قبره بالسواء كما تقدم . المعنى الثانى أنه اذا أدخل على رأسه فقد تنزل المواد الى فمه وأنفه فتخرج كما تقدم . المعنى الثالث مافيه من التفاؤل فى أول منزل من منازل الآخرة يدخلونه فيه منكوسا على رأسه أسأل الله السلامة بمنه . وليحذر من أن يكون اللحد ضيقا عليه لأن الغالب على كثير منهم أنهم يدخلون الميت القبر فلايسعه

فيحتاجون الى معالجة ذلك و لاتقع المعالجة بعد ادخال الميت فى قبره الا باخراق حرمته . فيحتاج أن يكون اللحد أطول من الميت حتى يدخل فيه دون معالجة كما تقدم . ثم يأخذ فى لحده فيزيل ما كان عليه من الرباط من ناحية رأسه ومن ناحية رجليه ثم يزيل الرباط الذى كان قدجعله على عينيه وأذنيه وعلى فمه وأنفه و لايزيل شيئاً من القطن لئلا يرى عليه أثر . وكذلك الخرق التى حلها قبل لئلا يرى عليها ذلك . ثم يحل الرباط الذى فى ابهامى رجليه . وكذلك يحل الرباط الذى فى كميه و يسرح يديه . ثم يضجعه على جنبه الأيمن ويكون فى الكفن كأنه فى فراشه بعضه تحته و باقيه مغطى به . ثم يلصقه الى جهة القبلة و لايجعل تحت رأسه شيئاً و يكون بالسواء على الأرض بجسده لأن الموضع موضع ذل وافتقار وليس بموضع رفع رأس و لاغيره . وقد قال عمر بن الخطاب لولده عبد الله رضى الله عنهما لما أن غشى عليه فى سكرات الموت وأخذ عبد الله رأسه فرفعها على فخذه فلما أن استفاق من غشيته قال ضع رأسى على الأرض لاأم لك وقد روى عنه أيضا أنه قال افضوا بلحيتى الى الأرض . فاذا كان هذا حال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه مع ماخصه الله تعالى به من المآثر العظيمة مع نبيه صلى الله عليه وسلم فما بالك بغيره فهو أجدر بمباشرة الأرض دون حائل وارتفاع عليها بشىء ما وهذا بعكس مايفعله بعض الناس فى هذا الزمان فانهم يجعلون تحت الميت شيئاً يقيه من التراب بل بعضهم يزيد على ذلك بأن يجعل تحته طراحة وتحت رأسه وسادة . وليحذر من هذه البدعة التى يفعلها أكثرهم وهو أنهم اذا جاؤا الى لحده أزالوا تلك الخرق المذكورة وأخرجوا القطن الذى أرسلوه معه فى فمه وأنفه كما تقدم وصفه عنهم فيخرجونه من حلقه وتخرج المواد مع ذلك و يبقى فمه مفتوحا و فى ذلك من الشوه مافيه مع اخراق حرمة الميت و وجود النجاسة فى القبر وذهاب المعنى الذى أمرنا بغسله له . وكذلك يحترز مما يفعله

بعضهم من أنهم يجعلون التراب فى عينيه ويقولون عند ذلك لايملأ عين ابن آدم الاالتراب ولافرق فى الشرع فى اثم فاعل ذلك كما لو كان حيا بل هذا أشد لأنه يتعذر التحلل من الميت أسأل الله السلامة بمنه . بل يحل الرباطات كما تقدم ليس الاويكون فى ذلك كله يغمض عينيه مهما قدر . فاذا أضجعه على جنبه الأيمن فلتكن اليد اليمنى من الميت امامه واليسرى على جنبه الأيسر ثم يأخذ حجرا كبيرا فيركزه فى الأرض ويسند الميت به من خلف ظهره ولايقتصر على اسناد الميت من خلف ظهره بالتراب وحده دون هذا الحجر لأنه اذا أسنده بالتراب ليس الا خرجت الفضلات فيتحلل التراب بنداوتها فيستلقى الميت على ظهره فيميل وجهه عن جهة القبلة والمقصود دوامه مستقبلها حتى يفنى أو يفعل الله تعالى به مايشاء ويختار . ثم اذا فرغ من اسناده بالحجر جعل خلف الحجر ترابا يسنده به من رأس الميت الى قدمه ويكون مع ذلك خاشعا متذللا . فان كان القبر حجرا صلبا ليس فيه تراب فلابأس أن يؤتى بالرمل فيفرش تحت الميت للضرورة الداعية الى ذلك لأنه ان بقى دونه انماع فى قبره ويشترط فى الرمل أن يكون طاهرا . وهذا بخلاف أن لو كان القبر سبخا أو ترابا فان الاتيان بالرمل بدعة لأنه لم ينقل عن السلف رضى الله عنهم بخلاف مااعتاده بعض الناس فى هذا الزمان وهو أنهم يأتون به فيفرشونه تحته لغير الضرورة المتقدم ذكرها وهو خلاف السنة كما تقدم . فاذا فرغ من كل ماتقدم ذكره فى لحد الميت فليتربص قليلا قبل أن يأخذ فى سد اللحد على الميت ليتذكر حينئذ هل نسى شيئاً مما تقدم وصفه فان كان معه غيره ممن يعلم الحكم فى ذلك كان أولى فمن نسى منهما لعل الآخر يذكره ثم يأخذ فى سد اللحد ويمتثل السنة فى أن يقول مع ذلك مارواه أبوداود عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا وضع الميت فى قبره يقول (بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم) واستحب

ذلك الشافعي رحمه الله وقال يقول بعد التسمية (اللهم أسلمه اليك الأشحاء من ولده وأهله وقرابته واخوانه وفارق من كان يحب قربه وخرج من سعة الدنيا والحياة الى ظلمة القبر وضيقه ونزل بك وأنت خير منزول به ان عاقبته فبذنبه وان عفوت عنه فأنت أهل العفو أنت غني عن عذابه وهو فقير الى رحمتك اللهم اشكر حسناته واغفر سيئاته وأعذه من عذاب القبر واجمع له برحمتك الأمن من عذابك واكفه كل هول دون الجنة اللهم فاخلفه فى تركته فى الغابرين وارفعه فى عليين وجد عليه بفضلك ياأرحم الراحمين) وذكر الشيخ أبو محمد بن أبى زيد رحمه الله أنه يقول اذا سوى عليه اللبن (اللهم انه قد نزل بك وخلف الدنيا وراء ظهره وافتقر الى ماعندك وأنت غنى عن عذابه اللهم ثبت عند المسألة منطقه ولا تبتله فى قبره بما لا طاقة له به) وينبغى أن يتجنب ماأحدثه بعضهم من أنهم يأتون بماء الورد فيجعلونه على الميت فى قبره وذلك لم يرد عن السلف رضى الله عنهم واذا لم يرد فهو بدعة . ثم العجب منهم كيف يأتون بماء الورد ويخرجون القطن من فمه وأنفه وتخرج المواد اذ ذاك وتشم منه الروائح الكريهة ويتنجس المحل باحداثهم النجاسة فى القبر برشهم ماء الورد وقد تقدم هذا وليس من السنة أن يبخر القبر ولا أن يفرش فيه ريحان لأنه خروج عن فعل السلف ويكفيه من الطيب ماقد عمل له وهو فى البيت فنحن متبعون لامبتدعون فحيث وقف سلفنا وقفنا . ثم يسد عليه اللحد وقد كره بعضهم أن يسد بالألواح ولهم فى اللبن اتساع ان كان طاهرا وطهارته اليوم معدومة فى الغالب واذا كان ذلك كذلك فالحجر يقوم مقامه . ثم يليس مابين الحجرين بالتراب الطاهر المعجون بالماء الطاهر وان كان لايغنى عن الميت شيأ لكن وردت السنة به فتتبع ويسد الخلل حيث كان . فاذا فرغ منه فقد تم لحده فيصعد اذ ذاك ويهال عليه التراب قال ابن حبيب يستحب لمن كان على شفير القبر أن يحثو فيه ثلاث حثيات

من تراب . وفى كتاب ابن سحنون عن مالك أنه قال ما سمعت من أمر به ولا أعرفه . و ينبغى أن لا يقرأ أحد اذ ذاك القرآن لوجهين . أحدهما أن المحل محل فكرة واعتبار ونظر فى المآل وذلك يشغل عن استماع القرآن والله تعالى يقول فى كتابه العزيز ﴿واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ والانصات متعذر لشغل القلب بالفكر فيما هو اليه صائر وعليه قادم . الوجه الثانى أنه لم يكن من فعل من مضى وهم السابقون والقدوة المتبعون ونحن التابعون فيسعنا ما وسعهم فالخير والبركة والرحمة فى اتباعهم وفقنا الله لذلك بمنه . فاذا فرغوا من اهالة التراب عليه فليرفعوا القبر قليلا عن الأرض و يكره أن يؤتى بتراب آخر حتى يكثر و يرتفع القبر به والسنة أن يكون لاطئا(١) مع الأرض لكن بعد أن يرتفع عن الارض قليلا كما تقدم . واختلف هل يسطح القبر أو يسنم على قولين فأيما فعل منهما كان حسنا . ولا يجصص القبر وكره مالك أن يرص على القبر بالحجر والطين وأن يبنى عليه بطوب أو حجارة . قال الامام أبو عبد الله القرطبي رحمه الله فى تفسيره لما أن تكلم على قوله تعالى فى سورة الكهف ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا﴾ روى مسلم عن جابر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه . وأخرج أبو داود والترمذى عن جابر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وروى النسائى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تجصيص القبور وهو تقصيصها . وروى أبو داود أن يزاد عليها . ومن القرطبي روى مسلم عن أبى التياح الاسدى قال قال لى على بن أبى طالب أبعثك على ما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته . وفى

(١) لاطئاً أى لاصقاً

رواية ولا صورة الا طمستها وأخرجه أبو داود والترمذى . قال علماؤنا ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة . وقد قال به بعض أهل العلم. وذهب الجمهور الى أن هذا الارتفاع المأمور بازالته هو مازاد على التسنيم ويبقى للقبر مايعرف به ويحترم وذلك صفة قبر نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على مارواه الدارقطنى من حديث ابن عباس . وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيما وتعظيما فذلك يهدم ويزال فان فيه استعمال زينة الدنيا فى أول منازل الآخرة وتشبيها بمن كان يعظم القبور ويعبدها وباعتبار هذه المعانى وظاهر النهى ينبغى أن يقال هو حرام والتسنيم فى القبر ارتفاعه قدر شبر مأخوذ من سنام البعير ويرش عليه الماء لئلا ينتثر بالريح . قال الشافعى لا بأس أن يطين وقال أبو حنيفة لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء والدفن فى التابوت جائز لا سيما فى الارض الرخوة . ولا يجعل القبر مربعا . ويستحب أن يعلم عند رأسه بحجر والاصل فى ذلك مارواه أبو داود باسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أن دفن عثمان بن مظعون أمر رجلا أن يأتيه بحجر فلم يستطع حمله فقام اليه صلى الله عليه وسلم فحسر عن ذراعيه ثم حمله فوضعه عند رأسه وقال أعلم به قبر أخى وأدفن اليه من مات من أهلى . فاذا فرغوا من ذلك فلينصرفوا عنه وينبغى أن لا يقرأ شئ من القصائد ولا ماشابهها للوجهين المتقدمى الذكر فى قراءة القرآن اذ ذاك ثم ياخذون فى الانصراف وموضع التعزية على تمام الأدب اذا رجع ولى الميت الى بيته ويجوز قبله أعنى قبل الدفن وبعده كما تقدم وينبغى أن يتفقده بعد انصراف الناس عنه من كان من أهل الفضل والدين ويقف عند قبره تلقاء وجهه ويلقنه لان الملكين عليهما السلام اذ ذاك يسألانه وهو يسمع قرع نعال المنصرفين عنه . وقد روى أبو داود فى سننه عن عثمان رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف

عليه وقال (استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل) وروى رزين في كتابه عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول بعد ما يفرغ من دفن الميت (اللهم هذا عبدك نزل بك وأنت خير منزول به فاغفر له ووسع مدخله) وقد كان سيدي أبو حامد بن البقال وكان من كبار العلماء والصلحاء اذا حضر جنازة عزى وليها بعد الدفن وانصرف مع من ينصرف فيتوارى هنيهة حتى ينصرف الناس ثم يأتي الى القبر فيذكر الميت بما يجاوب به الملكين عليهما السلام. ويكون التلقين بصوت فوق السر ودون الجهر فيقول (يافلان لاتنس ما كنت عليه في دار الدنيا من شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا جاءك الملكان عليهما السلام وسألاك فقل لهما الله ربي ومحمد نبيي والقرآن امامي والكعبة قبلتي) وما زاد على ذلك أو نقص بخفيف ومايفعله كثير من الناس في هذا الزمان من التلقين برفع الأصوات والزعقات لحضور الناس قبل انصرافهم فليس من السنة في شيء بل هو بدعة. وكذلك مايفعلوه بعد انصراف الناس عنه على هذه الصفة فهو بدعة أيضا. وقد سألت سيدي أبا محمد رحمه الله فقلت له أينبغي للمكلف أن يحفظ هذا التلقين في حياته حتى يكون متيسرا على لسانه اذ ذاك فانزعج وقال أنت تجاوب انما يجاوب عملك ان كان صالحا فصالحا وان كان سيئاً فسيئاً فحصل العمل فهو يكفيك فانه العدة التي تنجو بها بفضل الله تعالى لا اللقلقة باللسان أو كما قال. وقد أمر الشرع بالتعزية فقال عليه الصلاة والسلام (اذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فانها من أعظم المصائب) وهذا أمر منه عليه الصلاة والسلام لأمته وتسلية لهم أما الامر فقوله عليه الصلاة والسلام فليذكر مصيبته بي وأما التسلية فقوله عليه الصلاة والسلام فانها من أعظم المصائب فاذا تذكر المؤمن ما أصيب به من فقد النبي صلى الله عليه وسلم هانت عليه جميع المصائب واضمحلت ولم

يبق لها خطر ولابال. وقدورد فى التعزية ألفاظ متعددة. قال بعضهم وأحسن التعزية ماجاء فى الحديث (آجركم الله فى مصيبتكم وأعقبكم خيرآمنها انالله وانااليه راجعون) و ينبغى أن يعزى الرجل فى صديقه لانه من المصائب وكذلك يعزى الرجل فى زوجته الصالحة لانها من المصائب. وقدذكر الفقهاء فى كتبهم ألفاظ التعزية على اختلافها ومن يعزى ومن يعزى فيه ليس هذا موضعها. وقد روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى على امرأة تبكى على صبي لها فقال لها اتق الله واصبرى فقالت وماتبالى بمصيبتى فلما ذهب قيل لها انه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذها مثل الموت فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت يارسول الله لم أعرفك فقال (انما الصبر عند الصدمة الأولى) وروى الترمذى عن أبى سنان قال دفنت ابنى سنانا وأبو طلحة الخولانى جالس على شفير القبر فلما فرغت قال ألا أبشرك قلت بلى قال حدثنى أبو موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقولون ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد) وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يقول الله تعالى مالعبدى المؤمن عندى جزاء اذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه الا الجنة) و ينبغى لأهل الفضل والدين أن يراعوا التعزية فى الدين أكثر كما نقل عن بعضهم أنه قال فاتتنى الصلاة فى جماعة فعزانى فيها فلان ولم يعزنى غيره ولو مات لى ولد لعزانى فيه مائة ألف أو كما قال وماذاك الا أن مصيبة الدين عند أهل الدين أعظم من مصيبة الدنيا عكس ما الحال عليه فى هذا الزمان. وليحذر من هذه البدعة التى يفعلها بعضهم وهى أنهم يحملون أمام الجنازة مع الحاملين فى الاقفاص الخرفان والخبز و يسمون ذلك

بعشاء القبر فاذا أتوا الى القبر ذبحوا ما أتوا به بعد الدفن وفرقوه مع الخبز و يقع بسبب ذلك مزاحمة وضرب و يأخذ ذلك من لا يستحقه ويحرمه المستحق في الغالب . وذلك مخالف للسنة من وجوه . الأول أن ذلك من فعل الجاهلية لما رواه أبو داود عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا عقر في الاسلام) والعقر هو الذبح عند القبر كما تقدم . الثاني ما فيه من الرياء والسمعة والمباهاة والفخر لأن السنة في أفعال القرب الاسرار بها دون الجهر فهو أسلم والمشي بذلك أمام الجنازة جمع بين اظهار الصدقة والرياء والسمعة والمباهاة والفخر ولو تصدق بذلك في البيت سرا لكان عملا صالحا لو سلم من البدعة أعني أن يتخذ ذلك سنة أو عادة لانه لم يكن من فعل من مضى والخير كله في اتباعهم رضي الله عنهم كما تقدم غير مرة . وليحذر من هذه البدعة التي أحدثها بعض من لا يعتني بحكمة الشرع في أوامره ونواهيه واشاراته وهي ادخال الميت في الفسقية التي أحدثوها وهي بدعة في نفسها فكيف بما يفعل فيها . فمن ذلك أنهم يفرشون فيها تحت الميت طراحة أو قطيفة أو غيرهما و يضعون تحت رأسه وسادة و يغطونه حتى كأنه مضطجع في بيته و يجعلون عنده من المشموم ما أمكنهم من الياسمين والريحان وغيرهما و يبيتون ذلك عنده فيها وموضع الفسقية فيه ظلمة لانه تحت الأرض وليس له موضع يدخل منه الضوء الا من موضع بابها وهو ضيق فيحتاجون في الغالب الى دخول الضوء معهم وذلك فيه تفاؤل بدخول النار في هذا المحل حتى ان بعضهم يوقد الشمع و يتركه موقودا عنده لئلا يبقى في الظلام و يسد عليه باب الفسقية فهذا فيه اضاعة المال مع ما تقدم من التفاؤل ومخالفة السنة وقد يقع ذلك على الميت قبل أن يطفأ فيحرقه أو يحرق ما عليه أو يحرق غير ما ان كان معه مع أنه لا فائدة في الوقود لأنه لا يدوم لو لم يكن فيه ما تقدم ذكره من المحذورات لأن الفسقية اذا سد بابها امتنع دخول الهواء اليها والنار لا تتقد الا

مع وجود الهواء فان لم يكن خمدت فى الغالب لكن قد لا تخمد حتى يجرى على الميت أو الموتى ما تقدم من الحريق ولأن الموضع موضع خشاش وهوام وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المكلف أن يطفىء المصباح قبل نومه وعلل ذلك بأن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم ناراً والنوم هو الوفاة الصغرى وذلك ممنوع معه فلا يفعل ذلك فى الكبرى من باب أولى وأحرى وجعل الميت فى الفسقية يمنع لوجوه . الأول مخالفة السنة المطهرة فى ترك الدفن وكفى بها لأن من هو فى الفسقية غير مدفون لأنه لا فرق بين جعله فى الفسقية أو فى بيت ويغلق عليه فهذا والحالة هذه لا يطلق عليه أنه مدفون فقد تركوا الدفن وهو شعيرة من شعائر المسلمين وقد امتن الله عز وجل فى كتابه العزيز علينا بالدفن فقال ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا ﴾ فالستر فى الحياة ما يتصرف فيه الانسان من ضرورات البشرية فى خلوته مما يكره أن يطلع عليه غيره و يستر عورته به والستر فى الممات ستر جيف الابدان ولولا نعمة القبور لكان شناعة بين الاشكال ويقال ما فى جميع الحيوان أشد كراهة من رائحة جيفة الآدمى فستره الله بالدفن اكراما له وتعظيما . ومن وضع فى الفسقية فقد ترك ما امتن الله تعالى به عليه من نعمة الدفن . وقد روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أبى طلحة يعوده فقال عليه الصلاة والسلام (انى لأرى أبا طلحة حدث عليه الموت فاذا توفى عجلوا به فانه لا ينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرانى أهله) ومن جعل فى الفسقية فأهله يكشفون عليه فى كل وقت مات لهم ميت فقد يعرفون ما تغير من حال من كشفوا عليه من موتاهم و يشمون الروائح الكريهة منه وهو يكره فى حال حياته أن يشم منه بعض ذلك . واذا كان ذلك كذلك فلا فرق بين أن يكون فى الفسقية أو بين ظهرانى أهله فيمنع لما فيه من خرق حرمته لأنهم يدخلون عليه بميت آخر فان كان قريب العهد ممن قبله

كشفوا حاله وما هو فيه من النتن والدود وغيرهما حتى لقد حكى أن امرأة نزلت فسقية لوضع ميت لها فيها فوجدت ابنة لها كانت قد دفنت من مدة فرأت رأسها و وجهها يغليان دودا فذهب عقلها وهذا هو الوجه الثانى . الوجه الثالث أن باب الفسقية ضيق كما هو مشاهد مرئى وتحبس فيه الروائح الكريهة فاذا فتح لجعل ميت آخر وكان قريب العهد ممن قبله خرجت تلك الروائح الكريهة ان كان الميت طريا فآذت كل من حضر الجنازة. وأما من ينزل اليها فانه يجد من الكلفة والمشقة النهاية وقد يكون ذلك سببا لمرضه أو موته أوهما معا . الوجه الرابع أنهم يدخلونه منكوسا على رأسه وقد تقدم ما فى ذلك من القبح حين ادخال الميت القبر فهو فى الفسقية أجدر بالمنع لأن بابها أضيق من الشق الذى يعملونه فى القبر . الوجه الخامس أنه قد اختلف علماؤنا رحمة الله عليهم فيمن ألحد ميتا وسقطت منه فى القبر نفقة أو لؤلؤة أو شيء له قيمة كبيرة فلم يذكره الا بعد أن أهيل عليه التراب أو بعضه هل يكشف ماأهيل عليه من التراب و يأخذ ماسقط منه لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن اضاعة المال وتركه من اضاعة المال أو لا يجوز ذلك لأن فيه كشفا على الميت بعد مواراته بالتراب وذلك خرق لحرمته ولما يخشى أن يكون قد تغير حاله الى أمر مغيب عنا فيكشف عليه و ينهتك ستره بذلك وذلك ممنوع فى الشرع الشريف. فاذا كان هذا الخلاف فيمن سقط منه شيء له قيمة كبيرة فما بالك بمن يكشف عنه لغير ضرورة شرعية فهذا أجدر بالمنع . الوجه السادس مافيه من القبح بهتك الستر عمن فيها وذلك أن أهل تلك الفسقية قد يتغيرون عن آخرهم وهو الغالب و ينكشفون فيبقون عراة بمرأى ممن يمر عليهم من الناس وذلك كشفة لهم وهتك لحرمتهم وهذا موجود ظاهر . حتى لقد رؤى بعض أهل الفساقى وحمار ميت قد طرح عليهم . فانظر بعين الانصاف ماأشنع هذا وأقبحه على مقتضى العقل فكيف والشريعة قد نهت

عنه وذمته فلاهم ممتثلون لأمر الشرع فى ذلك و لاهم يرجعون لمقتضى العقل لأن العقل يأبى ذلك أسأل الله السلامة بمنه . الوجه السابع ماحرمهم الشيطان من بركة الدفن ومافيه من الستر . ألا ترى أن المدفون اذا خرجت منه الفضلات شربتها الأرض فيبقى نظيفا فى قبره ومن وضع فى الفسقية ينماع فى النجاسات التى تخرج منه وتتحلل من جسده . الوجه الثامن أن ادخاله فى الفسقية فيه مافيه من الفخر والكبر لأن الغالب أنه مايفعله الا المتكبرون والموضع موضع ذل وافتقار واضطرار واظهار مسكنة واحتياج لا لاظهار العز والكبر. الوجه التاسع مايفعله بعضهم من تبليط الفسقية وذلك فى حال الحياة لا ينبغى فما بالك به بعد الممات اذ أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا ولم يبن لبنة على لبنة فأقل مايمكن فى حق المكلف أن يمتثل ذلك بعد موته . الوجه العاشر مازاده بعضهم من تبييض داخل الفسقية حتى تبقى كالبيوت التى يتفاخر بها أبناء الدنيا بعضهم على بعض فى حال الحياة . وكذلك يمنع كما تقدم فى التبليط سواء بسواء بل هذا أشد . الوجه الحادى عشر أن ما يفعلونه سبب لانبعاث الحشرات والنجاسات عليه وذلك أنه ينماع فى قبره فتكثر الروائح لعدم التراب والحشرات تتبع الروائح حيث كانت وكذلك الكلاب والسباع والذئاب وذلك بخلاف القبر لما تقدم من أنه يشرب الفضلات من الميت . الوجه الثانى عشر مافى ذلك من تيسير السرقة على من أرادها والسرقة معصية كبرى اذا كانت فى حق الاحياء فما بالك بها فى حق الموتى فوضع الميت فى الفسقية فيه تيسير على من ابتلى بنبش القبور اذ أنه لايحتاج فى ذلك الى كبير كلفة فى الدخول اليه الا أنه يفتح الباب ليس الا ويتيسر عليه حينئذ مايريده وفاعل المعصية ومن ييسرها عليه شريكان فى الاثم . الوجه الثالث عشر أن من يتحفظ منهم من التيسير على النباش يحتاجون الى البناء الحصين والأبواب المانعة والحراس ومن يسكن فيها أو الى جانبها ويبول ويتغوط والسراب سريع سريانه

تحت الأرض فيؤول ذلك الى تنجيس من هناك من الموتى بنجاسة أجنبية عنهم وذلك كله مع هذه الأحوال الرديئة يحتاج الى كلفة من تحصيل دنيا لأجل البواب والقيم والخادم ومن يحرس وجعل صهريج لهم فتزيد النداوة بذلك فيماع الميت فى قبره وقد حكمت السنة بالدفن فى الصحراء للسلامة من هذه المفاسد وغيرها وقد تقدم ذلك بما فيه كفاية فأغنى عن اعادته . الوجه الرابع عشر مافى فعلها من ارتكاب النهى لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن التشبه بالاعاجم وما كان ابتداء فعلها الا من جهتهم فسرى ذلك الى بعض الناس مع كونهم لا يشعرون بارتكاب هذا النهى الصريح نسأل الله السلامة بمنه . الوجه الخامس عشر أن من دفن فى القبور على ما أحكمته الشريعة له حرمة لكون قبره ظاهرا فلا يتأتى لاحد حفره ولا أن يبنى عليه ولا أن يجعل عليه سرابا بخلاف الفسقية فانها فى باطن الأرض غير مرتفعة كالقبر فى الغالب وليس للميت على ظاهر الأرض أثر يعرف به فيكون ذلك سببا الى البناء عليها حيث دثروها أو غيره من ارسال سراب أو جعل مرحاض وما أشبه ذلك . الوجه السادس عشر أنها قد تنخسف وهو الغالب فيتضرر بها من تنخسف به وقد يهلك ثم تبقى بعد ذلك معبرة لمن يمر بها وشنعة على من فيها حتى أن بعض من لا يعرف الشرع ليطيل النظر فيها حتى يعرف الذكر من الانثى وذلك لا يجوز سيما ان وقع السيل فيكون ذلك أعظم فى الكشفة وهتك الستر وذهاب حرمة المؤمن . الوجه السابع عشر من أوصى أن يدفن فى فسقية فانه لاتنفذ وصيته . وقد قال ابن عبد الحكم فيما هو أيسر من هذا وهو أن من أوصى أن يبنى على قبره بيت فقال لا ولا كرامة . فالمنع هنا من باب أولى وأحرى. الوجه الثامن عشر أنها تبقى مأوى اللصوص ومن لا خير فيه فيختبئون فيها ويجعلون فيها مايختارون من السرقة وغيرها حتى يتصرفوا فى ذلك وكانت سبباً للستر عليهم وقد وقع ذلك . الوجه التاسع عشر أن الفسقية تمسك مواضع

جماعة من الموتى فان كانت الأرض وقفا فيكون غاصبا لما عدا موضع جسده لأنه مستحق للغير ممن مات من المسلمين وليس له أن يحفر فيها الاقدر ضرورته وهو مايواريه منها اذا مات. وأشد منعا من الفسقية مااعتاده بعض من لايقدر على كلفة النفقة فى الفسقية اذا مات لهم ميت أنزلوه على الميت المتقدم لهم حتى أن بعضهم ليوصى بذلك وهو لايجوز لما تقدم من أن الكشف على الميت بعد مواراته محرم لأن الموضع حبس عليه فلايجوز لغيره أن يدفن معه فيه اللهم الاأن يكون الموضع فيه من الحرارة أوالسبخة بحيث يعلم أن الميت الأول قدفنى ولم يبق له أثر فلابأس به اذن مثل المعلى بمكة لشدة حرارته والبقيع بالمدينة لشدة سبخته فيبلى الميت فيهما سريعا حتى أنه لايوجد الاالتراب. ولهذا المعنى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحرث البقيع بعد سنين و يدفن فيه أعنى قبور من تحقق خلو القبر منهم لما تقدم ذكره من التعليل وليحذر من هذه البدعة التى اعتادها بعضهم وهى جعل الرخام على القبور وهى بدعة وسرف واضاعة مال ونخر وخيلاء وكذلك كل ماحواليه. وليحذر من أن يجعل على القبر ألواحا من خشب عوضا عن الرخام. وكذلك يحذر من أن يجعل عليه درابزين اذ أن هذا كله من البدع المكروهة فى الشرع الشريف. وقد تقدم صفة القبر على السنة فكل ماخالفها فهو بدعة مكروهة واضاعة مال ونخر وخيلاء كما تقدم. وليحذر مما يفعله بعضهم من نقش اسم الميت وتاريخ موته على القبر سواء كان ذلك عند رأس الميت فى الحجر المعلم به قبره وان كان الحجر من السنة على الصفة المتقدمة أوكان النقش على البناء الذى اعتادوه على القبر مع كون البناء على القبر ممنوعا كما تقدم أو كان فى بلاطة منقوشة أو فى لوح من خشب. وأشد من ذلك أن يكون على عمود كان رخاما أو غيره والرخام أشد كراهة. وكذلك لو كان العمود من خشب فيمنع أيضا. ثم انظر رحمنا الله واياك الى البدعة كيف تجر الى المحرم

ألا ترى أن بعضهم لما أن ارتكب بدعة النقش وفى ذلك آيات من القرآن واحتوت مع ذلك على اسم من أسماء الله تعالى أو على اسم النبى صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك مما له حرمة فى الشرع الشريف ثم تندثر تلك التربة ويندثر أهلها ومعارفها فيقع ذلك فى الأرض ان سلم من السرقة وقد يبيعه السارق لمن يجعله فى مواضع لاتليق به مثل عتبة باب أو فى موضع مرحاض ويجعل ناحية الكتابة الى الأرض ان كان مسلما ولا يشعر بما عليه من الاثم فيه وأما ان باعه لنصرانى أو يهودى فذلك أعظم لأنهم يقصدون امتهان ماتعظمه الشريعة المطهرة المحمدية وان سلم من السرقة فيبقى موطوءاً بالاقدام ممتهنا حتى كأنه لاحرمة له وذلك ممنوع فى الشرع الشريف فليحذر من ذلك جهده . وكذلك يمنع أن يوقف عند رأس الميت عمود وان لم ينقش عليه شئ سواء كان من رخام أو حجر أو خشب أو غير ذلك لأنه من باب الخيلاء والسرف واضاعة المال وذلك كله ممنوع فى حال الحياة فما بالك به بعد الوفاة . وفيه من القبح أن فاعل ذلك يريد الظهور وبقاء اسمه وأثره بعد الموت ان كان وصى بذلك أو كان يحبه فان لم يكن وفعله عليه غيره فبدعة ذلك مختصة بفاعلها لأن ذلك كله ممنوع فى الشريعة المطهرة . ولا بأس بذكر مآثر الصالحين والعلماء والأولياء مالم يكن منقوشا على القبر أو على جدار أو فى ورقة ملصوقة هناك فاذا كان هذا ممنوعا فما بالك بالشمع الغليظ الكبير الذى ليست به حاجة للوقود لو كان سائغا فلم يبق الا أن يكون ذلك اضاعة مال . وكذلك يمنع مايفعله بعضهم من تعليق قنديل على قبر من كان مشهورا بالخير والناس يعتقدونه ليأتى الناس الى مكان الضوء فيزورونه لأن الغرض الواجب مثل الحج وغيره اذا كان المكلف لايمكن أن يأتى به الا أن يرتكب محرما كاخراج الصلاة عن وقتها وما يشبهه فان الفرض ساقط عنه . فاذا كان هذا فى الفرض فما بالك به فيما ليس بواجب وزيارة

القبور ليست بواجبة فكيف تفعل مع وجود مفاسد . وقد تقدم بعض مايقع في زيارة القبور بالليل من المفاسد فأغنى عن اعادته . ومما يدل على منع هذه الأشياء أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى الأقاليم ومات كثير منهم فيها فى الجهاد وغيره ولم ينقل أنه نقش على قبر واحد منهم ولا علق عليه قنديل ولا عمل عليه غير ذلك من العلامات الدالة عليه . ويدلك على صحة هذا المعنى أنه لايعرف من قبورهم الا الفذ النادر وهم القدوة ونحن الأتباع فلو كان ذلك أمرا معمولا به لبادرت الامة الى فعله ولاشتهر الحكم فيه حتى لايخفى على متأخرى هذه الامة . وأيضا فى النقش على القبر مفسدة أخرى وهى أن بعض الناس يريدون الشهرة لقبور أوليائهم فينقشون عليها اسم من مضى من المتقدمين من العلماء والصالحين لكى يهرع الناس الى زيارتهم وهذا النوع كثيرا مايقع من بعض الجهلة بدينهم والفسقة فليحذر من هذا جهده . وليحذر مما يفعله بعضهم من أنهم يعملون على القبر سقفا من ذهب ويجعلون هناك تصاوير وهذا فيه من القبح ماهو ظاهر بين ألا ترى أن العلماء رحمة الله عليهم اختلفوا فى الاستظلال بالسقف الذى فيه الذهب هل يجوز للاحياء أن يدخلوا تحته أم لا فاذا كان هذا ممنوعا فى حق الاحياء فما بالك به فى حق الموتى اذ أنهم محتاجون الى اظهار الفقر والاحتياج والاضطرار أكثر من الأحياء وفى فعل السقف المذهب من ظهور الفخر والخيلاء ماهو مذموم فى حق الأحياء فما بالك به فى حق الموتى لما تقدم ذكره . وأما الصور فهى نقيض المراد لأن الملائكة لا تحضر موضعا فيه صورة والمؤمنون يطلبون حضور الملائكة عند ميتهم رجاء بركتهم ليغفر له فاذا امتنعت الملائكة من الحضور حصل ضد البركة والخير أسأل الله السلامة بمنه . وبالجملة فالبدعة اذا عملت فى شىء كثرت المفاسد فيه وقل أن تنحصر بضد ماهى السنة فانها اذا امتثلت

فى شىء أثار واستتار وتجمل والحمد لله وحده

﴿فصـــل﴾ ويستحب تهيئة طعام لأهل الميت مالم يكن الاجتماع للنياحة وشبهها لما روى الترمذى وأبو داود عن عبدالله بن جعفر قال لما جاء نعى جعفر قال النبى صلى الله عليه وسلم (اصنعوا لآل جعفر طعاما فانه قد جاءهم مايشغلهم) ولأن ذلك من التقرب الى الأهل والجيران والبر لهم فكان ذلك مستحبا. ولذلك قال أصحاب الشافعى رحمة الله عليهم ينبغى لقرابة الميت أن يعملوا لأهل الميت فى يومهم وليلتهم طعاما يشبعهم قالوا وأما اصلاح أهل الميت طعاما وجمع الناس عليه فلم ينقل فيه شىء وهو بدعة غير مستحب. وينبغى أن تكون التلبينة من أهم ذلك لما ورد أنها تذهب الحزن. وصفتها أن تكون خفيفة كأنها الماء الا أنها بيضاء لأجل الدقيق الذى يعمل فيها ويجعل فيها شىء من الملح قدر قوامها. ولا بأس أن يجعل شىء من الزيت أو الشيرج أو غيرهما من الأدهان ثم يوقد عليها حتى تنضج فان كانت أثخن من ذلك فهى الحريرة لا التلبينة. وينبغى أن يقدموا شربها على الطعام لما تقدم. فلو جاءهم الطعام من مواضع متعددة فينبغى أن يتصدقوا بما فضل عنهم أو يهدوه لمن يختارون. وقد سئل مالك رحمه الله عن جمع الناس على العقيقة فأنكر ذلك وقال تشبه بالولائم ولكن يأكلون منها ويطعمون ويهدون الى الجيران. فاذا كان هذا قوله فى العقيقة فما بالك به فى الطعام الذى اعتاد بعضهم عمله فى بيت الميت وجمع الناس عليه. قال القاضى أبو الوليد الباجى رحمه الله فى كتاب سنن الصالحين وسنن العابدين له وكان سعيد بن المسيب اذا دعى الى العرس أجاب واذا دعى الى الختان انتهر الذى دعاه أو رماه بالحصى وقال لايجيبكم الا أهل رياء وسمعة. وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال الوليمة أول يوم حق والثانى معروف والثالث سمعة ومن سمع سمع الله به. وقال أزهر بن عبد الله من

صنع طعاما لرياء وسمعة لم يستجب الله لمن دعاله ولم يخلف الله عليه نفقة ماأنفق واذا كان هذا فى وليمة العرس والختان فما بالك بما اعتاده بعضهم فى هذا الزمان من أن أهل الميت يعملون الطعام ثلاث ليال ويجمعون الناس عليه عكس ماحكى عن السلف رضى الله عنهم فليحذر من فعل ذلك فانه بدعة مكروهة ولا بأس بفعله للصدقة عن الميت للمحتاجين والمضطرين لا للجمع عليه مالم يتخذ ذلك شعارا يستن به لأن أفعال القرب أفضلها ما كان سرا والله الموفق وينبغى أن يتحرز من هذه البدعة التى يفعلها بعضهم وهى أنهم يوقدون السراج أو القنديل فى الموضع الذى مات فيه الميت ثلاث ليال من غروب الشمس الى طلوعها وعند بعضهم سبع ليال وبعضهم يزيد على ذلك أنهم يفعلون مثله فى الموضع الذى غسل فيه الميت. وليحذر مما أحدثه بعضهم وهو أنهم يضعون حجرا فى الموضع الذى مات فيه الميت ويجعلون عليه سراجا يوقد الى الصبح وذلك بدعة ممن فعله . وليحذر مما أحدثه بعضهم من أن ثياب الميت لاتغسل الا فى اليوم الثالث ويقولون ان ذلك يرد عنه عذاب القبر وذلك تحكم وافتراء على الشريعة المطهرة. وليحذر مما أحدثه بعضهم من أن ولى الميت يعمل العشاء ثلاث ليال وقد تقدم بعض ذلك. وليحذر مما أحدثه بعضهم وهو أنه لايرفع مائدة الطعام الليالى الثلاث الا الذى وضعها. وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من أن الموضع الذى غسل فيه الميت يوضع فيه رغيف وكوز ماء ثلاث ليال بعد موته. وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم وهو أن الميت اذا مات لا يأكل أهله حتى يفرغوا من دفنه. وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم وهو أنهم اذا رجعوا الى البيت من الدفن لا يدخلون البيت حتى يغسلوا أطرافهم من أثر الميت. وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من التزام البكاء بكرة وعشية حين الغداة والعشاء. وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم وهو أن من حضر الميت عند خروج

روحه لايعمل شغلا حتى تمضى عليه سبعة أيام . وكذلك يحذر مما أحدث بعضهم وهو أن أحدهم اذا عطس على الطعام يقولون له كلم فلانا أو فلانة ممن يحب من الاحياء باسمه ويعللون ذلك لئلا يلحق بالميت . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم وهو أن ماكان من الماء فى البيت فى زير أوغيره لاينتفعون به ويطرحونه ويرون أنه نجس ويعللون ذلك بأن روح الميت اذا طلعت غطست فيه . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم وهو أن ولى الميت مادام حزينا على ميته لايأكل مع جماعته حتى ينقضى حزنه . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم وهو أن الميت اذا مات حزنوا عليه سنة كاملة لايختضب النساء فيها بالحناء ولا يلبسن الثياب الحسان ولا يتحلين ولا يدخلن الحمام وان حصل الاضطرار الى دخوله . وقد تقدم مافى دخول الحمام فيمنعن من ذلك هن ومعارفهن فاذا انقضت السنة عملن مايعهد منهن من النقش والكتابة والغش الممنوع فى الشرع الشريف كما تقدم فيبادرن الى فعل ذلك هن ومن التزم الحزن معهن ويسمون ذلك بفك الحزن ويقع لهن اجتماع حتى كأنه فرح متجدد عند جميعهن وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من قولهم ان الميت اذا لم يخرج الى زيارته ليلة الجمعة بقى خاطره مكسوا بين الموتى ويزعمون أنه يراهم اذا خرجوا من سور البلد وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من قولهم بأن الموتى يتفاخرون فى قبورهم بالأكفان وحسنها ويعللون ذلك بأن من كان من الموتى فى كفنه دناءة يعايرونه بذلك ويحكون على ذلك منامات كثيرة يطول تتبعها مما لا أصل له ولافائدة لذكره وكذلك يحذر مما أحدثه بعض النسوة وذلك أن من كانت منهن يعز عليها الميت تخرج فى جنازته مكشوفة بغير رداء . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من التزام صبحة القبر وهو تبكيرهم الى قبر ميتهم الذى دفنوه بالأمس هم وأقاربهم ومعارفهم وأى من غاب منهم عنها وجدوا عليه حتى كأنه ترك فرضا متعينا

وكذلك يحذر من جعل بعضهم ثوبا منشورا على القبر . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من فرش البسط وغيرها فى التربة لمن يأتى الى الصبحة وغيرها وقد تقدم الكلام على ذلك ومنعه . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من نصب الخيمة على القبر . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من وقود الشمع وغيره فى الليل على القبر وكان ينبغى أن لايقرب الميت بشىء من أثر النار أصلا لما ورد فى الحديث من النهى عن اتباع الميت بالنار فما بالك بها توقد عند القبر . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من أنهم اذا دفنوا الميت سكنوا عنده مدة فى بيت فى التربة أو قربها وهم مع ذلك يوقدون الأحطاب الكثيرة لضروراتهم فيتفاءلون عليه بوقودها عنده ويبولون ويتغوطون هناك وبعضهم يقعد لتمام الشهر ويتعاهدونه بعد ذلك ويفعلون عنده الأشياء المعهودة منهم فتسرى النجاسة اليه كما سبق ذكره وهذا موضع النهى لما ورد من النهى عن الجلوس على المقابر . وقد حمل علماؤنا رحمة الله عليهم النهى على جلوس الانسان لحاجته على القبر فاذا كان هذا منهيا عنه وهو على وجه الأرض ظاهر وتنشفه الشمس وتنشفه الرياح ويشربه التراب ويزيله من رآه غالبا فما بالك بما يفعلونه حين اقامتهم عنده من البول والغائط الكثير فى الكنيف الذى هناك فتسرى الرطوبة النجسة الى الميت فى قبره منه لأنه تحت الأرض فتسرع النجاسه اليه كما تقدم . واذا كان ذلك كذلك فهو أشد من قضاء الحاجة عند القبر وعليه فالمنع من ذلك من باب أولى . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من فعل الثالث للميت وعملهم الاطعمة فيه حتى صار عندهم كأنه أمر معمول به ويشيعونه كأنه وليمة عرس ويجمعون لأجله الجمع الكثير من الأهل والأصحاب والمعارف فان بقى أحد منهم ولم يات وجدوا عليه الوجد العظيم . ثم انهم لم يقتصروا على ذلك حتى يقرؤا هناك القرآن العظيم على عوائدهم المعهودة منهم بالالحان والتطريب الخارج عن حد القراءة

المشروعة بسبب الزيادة والنقصان المتفق على تحريمهما ويأتون مع ذلك بالفقراء يذكرون ويحرفون الذكر عن مواضعه على الترتيب المعروف عندهم وبعضهم يزيد على ذلك فيأتى بالمؤذنين يكبرون كتكبير العيد على ما مضى من عادتهم. وقد صار هذا الحال فى هذا الزمان أمرا معمولا به حتى لو تركه أحد منهم لكثر فيه القيل والقال فكيف لو أنكر ذلك. ثم انضم اليه أنهم يتكلفون فيه التكليف الكثير لأجل ما يحتاجون له من العوائد فى ذلك. ومنهم من يأتى بالواعظ الى الرجال. ومنهم من يأتى بالواعظة الى النساء ويزيدون فى أقوالهم وينقصون ويحرفون بعض ذلك ويفهمون غير المراد ويتفوهون باطلاق أشياء لا ينبغى ذكرها على رؤس الاشهاد وقد تقدم ما فى ذلك من الذم فى أول الكتاب وقد تقدم ما فى الاجتماع للسماع وما فى السماع مما لا ينبغى وتلك القبائح والمفاسد موجوده فى الاجتماع للثالث والسابع وتمام الشهر وتمام السنة وفى أى موضع فعل ذلك فيه من بيت أو قبر أو غيرهما كل ذلك يمنع. وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من فعل التهليلات لموتاهم وجمعهم الجمع الكثير لذلك كما تقدم فى غيره وقد تقدم الذكر جهرا وجماعة وما فيه. ويحتجون على فعل ذلك بما حكى عن بعض الشيوخ من المتأخرين أنه رأى فى منامه بعض الموتى فى عذاب فذكر لا اله الا الله سبعين ألف مرة ثم أهداها له فرآه فى منامه بعد ذلك فى هيئة حسنة فسأله عن ذلك فأخبره أنه غفر له باهدائه له ثواب التسبعين ألفا. وهذا ليس فيه دليل من وجهين. أحدهما أنه منام والمنام لا يترتب عليه حكم. والثانى أنه انما فعلها وحده فى خاصة نفسه وأهدى له ثوابها ولم يجمع لذلك الناس كما يفعلون فى هذا الزمان من الشهرة حتى صار ذلك عندهم أمرا معمولا به وأما لو فعل ذلك أحد فى خاصة نفسه وأهدى ثوابه لمن شاء فلا يمنع لأنه قد فعل خيرا وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من ترك الفرش التى تجعل فى بيت الميت

لجلوس من يأتى الى التعزية فيتركونها كذلك حتى تمضى سبعة أيام ثم بعد ذلك يزيلونها . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من زرع شجرة أو صبارة أو ريحان أو غير ذلك عند القبر ويعللونه بوجهين . أحدهما أن الملائكة تحضر فى موضع الخضرة تذكر الله تعالى. والثانى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أن مر على قبرين وهما يعذبان فأخذ جريدة رطبة فشقها نصفين فجعل نصفها على أحد القبرين والنصف الثانى على الآخر وقال لعله يخفف عنهما مالم ييبسا . وهذا ليس فيه حجة . أما الوجه الأول فيرده ماتقدم من المعنى الذى لأجله شرع الدفن فى الصحراء وهو أن يبقى الميت فى قبره نظيفا لعطش الأرض التى يدفن فيها الميت فأى فضلة خرجت شربها التراب والغرس عند القبر يستدعى ضد ذلك لأنه يحتاج الى السقى بالماء وذلك يزيل هذه الحكمة لأجل أن القبر يبقى مبلولا من داخله فلا يشرب الفضلات فيتماع الميت فى قبره بسبب ذلك فيصير اذن لافرق بين دفنه فى الأرض الترية أو ينقرله فى الحجر الصلب وقد مضى بيان ذلك . وأما الوجه الثانى فالجواب عن قوله عليه الصلاة والسلام لعله يخفف عنهما مالم ييبسا راجع الى بركة ماوقع من لمسه عليه الصلاة والسلام لتلك الجريدة . وقد نص على ذلك الامام الطرطوشى رحمه الله فى كتاب سراج الملوك له لما ذكر هذا الحديث فقال عقبه وذلك لبركة يده عليه الصلاة والسلام . ومانقل عن واحد من الصحابة رضى الله عنهم فلم يصحبه عمل باقيهم رضى الله عنهم اذ لو فهموا ذلك لبادروا بأجمعهم اليه ولكان يقتضى أن يكون الدفن فى البساتين مستحبا . وقد قال الشيخ الامام أبو سليمان الخطابى رحمه الله فى كتابه شرح معالم سنن أبى داود السجستانى رحمه الله وأما غرسه صلى الله عليه وسلم شق العسيب على القبر وقوله لعله يخفف عنهما مالم ييبسا فانه من ناحية التبرك بأثر النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه بالتخفيف عنهما وكأنه صلى الله عليه وسلم جعل

مدة بقاء النداوة فيهما حداً لما وقعت به المسألة من تخفيف العذاب عنهما وليس ذلك من أجل أن فى الجريد الرطب معنى ليس فى اليابس والعامة فى كثير من البلدان تغرس الخوص فى قبورهم وتاهم وأراهم ذهبوا الى هذا وليس لما يتعاطونه من ذلك وجه والله أعلم . انتهى كلامه بلفظه . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم وهو أنهم لا يستعملون الملوخية ماداموا فى الحزن على ميتهم و يعللون ذلك بما اصطلحوا عليه من أنها بجمعة الأحباب فاذا أكلوها تذكروا بها ميتهم فيتجدد عليهم الحزن . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهم من أنهم لا يأكلون السمك مدة حزنهم على ميتهم وذلك كله من الاحداث والبدع فى الدين وترك الوقوف مع حدود الشريعة المطهرة . وكان ينبغى أن لا يذكر هذا ولا يعرج عليه لظهور باطله وسماجته وقبحه . لكن لما كان الشرط فى الكتاب أولا التنبيه على بعض العوائد المخالفة للسنة وقعت الحاجة الى التنبيه على بعضها ليستدل به على ماعداها والله الموفق . لارب سواه ولا مرجو الا اياه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

فصل فى ذكر النفاس وما يفعل فيه

وكان ينبغى أن يكون هذا الفصل متقدما على الفصل الذى قبله وهو غسل الميت ومايتعلق به مما ذكر لان الخلق أولا ثم الموت بعده . لكن لما أن كانت أحكام الولادة تختص بالنساء تأخر ذكرها . لقوله عليه الصلاة والسلام (أخروهن حيث أخرهن الله) فظهور الولد من بطن أمه هو أول خروجه الى دار التكليف . فينبغى بل يتعين على ولى المولود أن يكون ممتثلا لامر الله تعالى فيه ويتبع السنة المطهرة فى حقه لتعود بركتها على المولود فى ابتداء أمره وبعده وقد تقدم أن المحتضر عند موته ينبغى أن يكون على أحسن حالاته فيما بينه و بين ربه عز وجل لانه الختام فينبغى أن يكون الابتداء مثله حين بروزه

الى الدنيا. يدل على ذلك ماورد أن الحفظة اذا صعدوا بعمل العبد فان كانت الصحيفة أولها مبيضا وآخرها مبيضا بالحسنات يقول الله عز وجل للملائكته أشهدكم أنى قد غفرت له مابينهما أو كما ورد. واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور وفيه كيف تركتم عبادى وهو أعلم بهم فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون. واذا كان ذلك كذلك فينبغى الاعتناء بأمر المولود حين خروجه الى دار التكليف بان تمتثل السنة فى حقه والمخاطب بذلك وليه فلعل أن تحصل له بركة الامتثال فى أول دخوله الى الدنيا وفى خروجه منها فيحصل بسبب ذلك قوة الرجاء فى العفو عما بينهما فاذا كان الولى ماشيا فى حق نفسه وفى حق المولود على طريق السنة والمنهج الأقوم ولا يرجع فى ذلك الى عوائد أكثر أهل وقته قوى الرجاء فى التخلص. وقد تقدم فى كيفية موت المحتضر وفى دفنه ماأحدثوا فيه من البدع هذا والمباشر لذلك الرجال غالبا ومباشرة الرجال للعلماء أكثر من النساء فانهن محتجبات وتربين فى الجهل غالبا بسبب ذلك فلاجل بعدهن عن العلم وأهله غالبا اتخذن عوائد رديئة متعددة قل أن تنحصر خالفن فيها الشريعة المطهرة. فينبغى لولى المولود بل يتعين عليه أن لا يرجع اليهن ولا الى رأيهن ولا الى عوائدهن وان غضبن أو تشوشن أو آل أمره معهن الى هجرهن أو فراقهن لأن صلة الرحم انما هى مطلوبة فى الشرع الشريف بالاتباع والامتثال لا بالابتداع بل الابتداع اذا فعل كان قطعا للرحم وان كان يدخل به السرور فى الوقت فهو فى الحقيقة قطع. واذا كان ذلك كذلك فيتعين على ولى المولود أن ينظر لنفسه وللمولود بلسان العلم فى كل مايعرض له وعليه من أمر المولود فان لم يكن من أهله فليسأل عن ذلك أهله قال الله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون﴾ فبالسؤال تتبين له السنة فيتبعها وتظهر له البدعة فيتجنبها فيدخل بذلك فى عموم قوله

تعالى ﴿ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ فتحصل له المعية بسبب ذلك وأى نعمة أكبر منها لأن البارى سبحانه وتعالى اذا كان معه فقد أمن من العاهات والآفات وسلم دينا ودنيا . فعلى هذا يتعين عليه أن يكون نظره لصلة رحمه فى حق المولود أولا حين خطبة أمه ان كان والدا . لما ورد من قوله عليه الصلاة والسلام (اختاروا لنطفكم كما تختارون لصدقاتكم) هذا المقام الأول فى كيفية صلة رحمه لولده . المقام الثانى حين الوطء أعنى فى التسمية والاتيان بالآداب المتقدم ذكرها . المقام الثالث حين الولادة . وقد رأيت بعض المباركين وله ولد فيه بعض أعراض فكلمت والده فى ذلك فقال لا أبالى به فانى امتثلت السنة حين قربت أمه فلا يكون منه الا خير وكذلك كان لما أن بلغ الصبي وكانت معه فى البيت بنت عمه فجاء الى البيت فطلب قوته من خارج الباب فقيل له ألا تدخل فأبى فسأله والده عن موجب ذلك فقال انى قد احتلمت البارحة فلا يحل لى أن أدخل و بنت عمى فى البيت فهذه ثمرة الامتثال اللهم لا تحرمنا ذلك يارب العالمين بمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم وسلم . وقد تقدم أن البياعات والاجارات يشترط فيها أن تكون سالمة من الغرر والغش فههنا أوجب ليقع الامتثال فى حق المولود فى مبدأ أمره لتحصل له البركة والتفاؤل . واذا كان ذلك كذلك فتكون القابلة أجرتها معلومة يتفق معها عليها ثم بعد ذلك ان زادها شيئا فحكمه حكم الهبة لاحق واجب عليه فاذا أحب أن يوفيها ذلك والا تركه وكذلك هى ان رأت قبوله منه والا تركته . هذا ان كان والدا . وأما ان كان غير والد فلا يجوز له أن يعطى ذلك الا من مال نفسه وكذلك الوالد ان كان للصبي مال . واذا كان ذلك كذلك فيتعين عليه ترك ما أحدثه النساء من أن القابلة تأتى على غير معلوم غالبا فيحصل بسبب ذلك الجهالة والغرر والمغابنة والمنازعة والكلام الكثير بسبب مخالفة السنة فى ترك الأجرة الشرعية بل بعضهن يرين

أن تعيين الأجرة عيب وقلة حشمة وترك رياسة. وهو لعمر الله بضد ما قالوه سواء بسواء لأن السنة المطهرة اذا تركت لايخلفها الا ضدها فالرياسة على الحقيقة اتباع السنة فيتحرز عن ضدها جهده لتعود بركة اتباعها على الجميع من المولود والولى والقابلة ومن أعان على ذلك والله الموفق . وينبغى للولى بل يتأكد فى حقه أن يسأل القابلة عن كيفية مباشرتها للمولود لأن القوابل فى هذا الزمان قل أن يتحفظن من النجاسات فتباشر القابلة دم النفاس وغيره من النجاسات وتلمس المولود وما يجعل عليه من اللباس بذلك كله من غير غسل النجاسات بالماء الطهور وذلك لايجوز بل بعض القوابل يلعقن المولود مما يتعلق بأصابعهن من النجاسات و يعللنه بأن ذلك ينفعه لكذا وكذا وذلك كله كذب و بهتان ومخالفة للسنة المطهرة لما ورد أن أول مولود ولد فى الاسلام عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فأتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فحنكه بتمرة بعد أن لاكها فى فمه الكريم صلى الله عليه وسلم ثم مضت الأمة على ذلك وهو أنه اذا ولد لهم مولود أتوا به الى من يعتقدون بركته وخيره فيحنكه لهم رجاء بركته وما تقدم ذكره من فعل القابلة ضد هذا سواء بسواء . ومنهن من اذا تعسرت الولادة على المرأة أخذن لباب الخبز ويجعلن فى قلبه زبل الفأرة ويطعمنها ذلك من حيث لاتشعر به و يعللن ذلك بزعمهن أنه يهون عليها الولادة وهذا باطل لاشك فيه لما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (ان الله عز وجل لم يجعل شفاء أمتى فيما حرم عليها) فاذا كان فطر الصبى عند خروجه الى دار التكليف على الحرام فقد يخاف عليه لان الحرام له تأثير فى القلب وان كان صاحبه لم يقصده ولم يشعر به ولو لم يكن فيه الا أنه تفاؤل ردىء فى كونه أفطر فى ابتداء حاله عليه . فاذا كان الولى يسأل عن مثل هذه الأشياء انحسمت هذه المادة الفاسدة . ثم يعلمها مايجب عليها من الاحتراز من النجاسات فى حقها

وحق المولود فاذا كان عندها علم بذلك فياحبذا وان لم يكن عندها علم منه فتتعلم الحكم فيه بسبب سؤاله لهاعنه سيما وقد نشأ أكثرهن على عوائد رديئة اتخذنها وقد جرت الى محرمات جملة كما قد تقدم مما اتخذوه من العوائد الرديئة وهى أن غاسل الميت يأخذ ما يجد عليه فجر ذلك الى محرم وهو أن بعض أهل الميت يتركون ميتهم مكشوفا بلا سترة أو بشيء يصف العورة أو يحكيها وكذلك فيما نحن بسبيله سواء بسواء وهو أنهن قد جرت عوائدهن أن القابلة تأخذ ما نزل فيه المولود وذلك يجر الى الضرر بالمولود ان كان أهله فقراء لأن أهله اذا علموا أن القابلة تأخذ ذلك لا يعتنون به وقد مضت عادة الناس أنهم يتبركون بأثر الأكابر من أهل العلم والصلاح أوهما معاً فاذا نزل المولود فى ثوب أحدهم أو فى خرقة من أثرهم فذلك عندهم غنم وبركة فاذا علم أهل المولود أن القابلة تأخذ ذلك أمسكوه لأنفسهم للتبرك فحرم المولود بركة مباشرة تلك الخرقة فى أول ظهوره الى الدنيا بسبب البدعة كما حرم الميت السترة الشرعية بسبب البدعة التى أحدثوها فى أن الغاسل يأخذ ما وجد على الميت كما سبق . ومن الناس من يتفاخر فى الثوب الذى ينزل فيه المولود حتى انهم يخرجون فى ذلك عما لا ينبغى لأنهم يتخذونه من خرقة حرير غالبا . وقد ورد النهى عنه فى الحديث لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ شيئاً من الذهب والحرير بيده الكريمة وقال (هذان حرامان على ذكور أمتى حل لاناثها) فقوله عليه الصلاة والسلام على ذكور أمتى ولم يقل على رجال أمتى دليل على أن لبسه حرام على الذكر وان كان صغيرا على مقتضى ظاهر الحديث والمخاطب بذلك ولى المولود وهم يأخذون الخرقة ولا يعلمون ما هو المولود أذكراً أم أنثى . ولا حجة لمن يقول قد اختلف العلماء فى لباس الحرير للذكر الصغير لما تقدم من ظاهر الحديث أنه دال على المنع وأيضا لو قلنا بحله فهو مكروه فى حقه فيجنبه المولود لتحصل له البركة والتفاؤل الحسن بسبب خروجه من الخلاف وفى

ذلك عظيم الثواب لوليه لأنه المخاطب به كما تقدم . ثم ان بعض القوابل اذا استحسن الخرقة التى أعدت لأن ينزل فيها المولود أخذنها لأنفسهن ولم يباشرن المولود به خشية أن يتغير حسنها أو ينقص ثمنها . واذا كان ذلك كذلك فدخول القابلة على أن تأخذ ما اعتادته مما هو مجهول يمنع واذا كان معينا أو موصوفا بصفة تحصره فذلك سائغ قليلا كان أو كثيرا نقدا كان أو عرضا . فوقع بسبب ما أحدثته من البدعة أن الفقراء حرموا بركة أثر الأولياء والأغنياء وقعوا فى المفاخرة بحطام الدنيا لأجل ماتذكره القابلة للناس من الخرقة الحرير وصفتها التى اعتادوها لنزول المولود فيها فحصل الضرر للفريقين . فاذا كانت القابلة بأجرة معلومة كما تقدم انزاح هذا وغيره من المفاسد . وينبغى أن كل من يتناول المولود يتحفظ من النجاسات كالقابلة سواء بسواء بعد التسمية لأنها مشروعة فى كل الحركات والسكنات سيما فى هذا الموضع الذى له قدر و بال . فاذا خرج المولود من بطن أمه الى ضوء الدنيا وجب الشكر لوجوه عديدة . أحدها أن أمه كانت فى خطر عظيم حتى أنه ليس لها من مالها الا الثلث لما كانت فيه من الخطر وسلامتها نعمة من الله شاملة يجب عليها الشكر وشكرها امتثال طاعة الله تعالى واجتناب نهيه واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم اذ كأنها وهبت عمرا جديدا . الوجه الثانى أن المولود اذا خرج صحيحا سويا غير ناقص فهذه نعمة ثانية يجب الشكر عليها من الأب وأقاربه ومن الأم وأقاربها على سلامتهم من النقص فى ولدهم . الوجه الثالث الشكر على تكثير عددهم . وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم النكاح فيه خمس خصال حميدة . أولها أنه يغض الطرف والثانى يحصن الفرج والثالث يكثر النسل والرابع يبقى الذكر والخامس يبقى الأثر . فاذا ظهر المولود فقد كثر به العدد و رفع به الذكر ان كان ذكرا والأثر ان كانت أنثى فيتعين الشكر على ذلك . وقد ورد (أكثروا من العائلة فانكم لاتدرون بأيهم

ترزقون) فقد يكون هذا الولد للحكمة الربانية سببا لكثرة الرزق والاستراحة من التعب والنصب وهذا موجود حسا لأنا نشاهد بعض الناس يكون فقيرا ضعيفا تعبا من التكسب بعيدا من العلم وأهله الى غير ذلك من الأحوال الناقصة فاذا حدث له مولود ظهر أمره وكثر خيره وباشر العلماء وسمع فوائدهم بواسطة ولده الى غير ذلك من النعم المترادفة. وقد حكى أن حبيبا النجار رؤى وهو يمشى فى ركاب ولده فعذله بعض الناس فى ذلك فقال ماعرف حبيب الابولده وهذا مشاهد لايحتاج الى دليل ولا تمثيل. فقابلوا هذه النعم العظيمة بضدها سواء بسواء بسبب العوائد الرديئة المحدثة اذ أنهم اذا ظهرت عندهم هذه النعم أقبل النساء على الزغردة ويرفعن أصولتهن بذلك مع وجود الدف والرقص واللهو واللعب والاستهتار وقلة الحياء مع التفاخر بما يصنعنه من الأطعمة الكثيرة واجتماع أبناء الدنيا وحرمان الفقراء المضطرين والمحتاجين مع تشوفهم وطلبهم كل على قدر حاله وأكثرهن يقمن على هذا الحال مدة السبعة أيام ليلا ونهارا فكل من جاءت تهنئ جددن لها اللهو واللعب والرقص والاستهتار الى غير ذلك من أحوالهن الرديئة. ثم مع هذه القبائح الشنيعة المزامير والابواق على الباب تعمل مع مافى ذلك من الهرج والشهرة وقلة الحياء من عمل الذنوب حتى صار الأمر بينهم كأنه شعيرة من شعائر الدين تتبع فمن لم يفعل مثل فعلهم فكأنه ابتدع بدعة فى الدين. وقد قال بعض العلماء رحمة الله عليهم أن المرأة اذا اضطرت الى التصفيق فى صلاتها صفقت بأصبعين من يدها على ظهر يدها الاخرى لأن صوتها عورة فمنعت من الكلام وعوضت عنه التصفيق على هذه الصفة فما بالك بما أحدثنه من هذه الامور الفظيعة سيما عند احداث هذه النعم المتجددة. وأشد من هذا وأقبح منه أن الغالب ممن يراهم من الرجال أو يعلم حالهم لا يغيره ولا يستقبحه ولا تشمئز نفسه بل يسر بعضهم بذلك ويعين عليه. وأشد من

ذلك كله وأعظمه قبحا وشناعة أن بعض من ينسب الى العلم أوالى الخرقة أو الى المشيخة يفعلون ذلك فى بيوتهم ويستحسنونه ممن يفعله بل يجمعون الناس عليه ويدعونهم اليه ويذمون من يفعل ذلك ولايدعوهم اليه فانا لله وانا اليه راجعون على الجهل والجهل بالجهل . وليس مايتعاطونه من هـذه الأشياء خاصا بأمر النفاس بل هو عنـدهم عام فى كل أمر حدث به سرور حتى فى الحاج اذا قدم فعلوا مثل ماتقدم ذكره . وأما فى أمر النكاح فلاتسأل عمـا أحدثوا فيه من المخالفات بل مايفعلونه فى النفاس نقطة من بحر مايفعلونه فى النكاح وهو كثير متعدد قل أن ينحصر أو يرجع الى قانون معلوم لاختلافه بالنسبة الى الاقاليم والبلاد والعوائد وما تقدم ذكره من أمر النفاس فيه غنية عن الكلام على تفصيل مايفعلونه فى النكاح . ولا يظن ظان أن هـذا انكار لوليمة النكاح بل هى سنة معمول بها على الوجه المطلوب فى الشرع وكذلك الضرب بالدف الشرعى وهو أن يكون سالمـا من الصراصر والسلسلة الحديد اللتين أحدثتا فيه ويكون الفاعل لذلك أحد شخصين اما جارية من الوخش ممن لا يلتفت الى صورتها ولا الى سماع صوتها غالبا أو حرة متجالة لاتشتهى ولايلتذ بكلامها بخلاف من تشتهى ويلتذ بكلامها فان ذلك منها محرم لايجوز فهذا هو اعلان النكاح وافشاؤه على مامضى من فعل السلف رضى الله عنهم. بخلاف ماتسوله الأنفس الامارة بالسوء من الالتفات الى العوائد الرديئة والاغراض الخسيسة وقد ذكر أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دخل الى بلد فوجد فيها بعض الناس قد أصابهم حزن فضجوا وأظهروا المخالفة لمـا أصابهم ووجد آخرين قد أنعم عليهم ففرحوا وسروا وخرجوا بذلك الى كفر النعمة فقال ابتلى هؤلاء فمـا صبروا وأنعم على هؤلاء فمـا شكروا فلا يمكننى المقام مع قوم هذا حالهم أو كما قال وخرج من بينهم . وهذا حال أكثر أهل هذا الزمان الا أن الخروج من

بين أظهرهم فى هـذا الزمان متعذر لأن المكلف لايخرج الى موضع آخر الا ويجد فيه ماهو مثل ماخرج عنه أو يزيد عليه فلا فائدة اذن فى خروجه الا حصول التعب والنصب والاستشارة وغيرها مما يبدد حاله و يمنعه من جمع خاطره والدأب فى عبادة ربه عز وجل والنظر فى خلاص مهجته الى غير ذلك فالعزم على الانتقال من موضع الى آخر يوجب ماتقدم ذكره وغيره . فالحاصل من هـذا أن العازم على الانتقال فى هذا الزمان يعوض عن ذلك رسوم بيته وترك الخوض فيما هم بصدده غير مفارق لجماعتهم فيحصل له بذلك بركة امتثال السنة لقوله عليه الصلاة والسلام (نعم الصوامع بيوت أمتى) فاذا امتثل ماأمر به صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه سلم من هذه الآفات كلها وكأنه غائب عنهم فلم يضره بعون الله تعالى وبركة نبيه عليه الصلاة والسلام شئ مما هم فيه بل يكثر أجره ويعلو أمره عند ربه بحسب مايجد فى نفسه من القلق والانزعاج عند رؤيته شيء من ذلك أو سماعه وهو مع ذلك ملازم لطاعة ربه ممتثل سنة نبيه عليه الصلاة والسلام لم يزعزعه شيء من ذلك كله بل يرى ذلك غنيمة باردة سيقت له فيغتنمها و يشكر الله على ماحباه منها . لقوله عليه الصلاة والسلام (العمل فى الهرج كهجرة معى) وقد تقدم هـذا بما فيه كفاية . الوجـه الرابع الشكر على مافى ذلك من البشارة من المولى سبحانه وتعالى للوالدين بكون أن عملهما لاينقطع وان ماتا لأن ولدهما من سعيهما وآثارهما فان كان صالحا فبخ على بخ وان كان غير ذلك فمافعل من خير حصل الثواب لوالديه من غير أن ينقص من أجره شئ وما فعل من غير ذلك فلا يصل اليهما منه شئ ثم كذلك فى ولد الولد الى منتهى انقراضهم . وهذا خـير عظيم ونعمة شاملة يتعين الشكر عليها . لقوله عليه الصلاة والسلام (قيدوا النعم بالشكر) فانظر الى هذه النعمة ماأكملها وأعظمها الى غير ذلك من الوجوه التى يتعين الشكر عليها فقابلوها بضدها كما تقدم قبل . و يتعين على ولى المولود

أن يحترز مما أحدثه أيضا من أن المولود اذا جاؤا الى قطع سرته جمعوا عنده كل مولود يحتاج الى دخول ذلك البيت الذى تقطع فيه سرة المولود فحينئذ تقطع القابلة سرة المولود ويزعمن أن من لم يحضر من الصغار عند قطعها ودخل بعده تحول عيناه أو يبقى يبكى كثيرا وذلك منهن باطل لاأصل له فى الشرع الشريف وكل ماليس له أصل فى الشرع يتعين طرحه وترك المبالاة به والله الموفق

﴿ فصـــل ﴾ وينبغى أن يحذر مما يفعله بعض القوابل وهو أن الواحدة منهن اذا دخلت الى بيت وقبلت فيه لايمكن غيرها أن تدخل عليها فيه ويعللن ذلك بزعمهن أن دم المولود ودم أمه قد وقع على يد القابلة الاولى فلا يدخل غيرها عليها فيه ومن فعل ذلك منهن وقع بينها وبين القابلة الاولى وأهل البيت شنآن وخصام كثير ويعتقدن أن فعل ذلك حرام وهذا تحكم منهن فى الشرع وافتراء بين . فينبغى لولى المولود أن لايقرب من هذا حالها حتى يبين لها حكم الشرع الشريف فى ذلك قبل اتيانها فان رضيت والا تركها وأخذ سواها على المنهج الاقوم والطريق الاسلم. فلو فعل ذلك على سبيل حسن الصحبة والتألف وترك التشويش لكان ذلك حسنا. وكذلك ينبغى أن يحترز مما أحدثه بعضهن فى ليلة السابع وهو أن يكون عند رأس المولود الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة من السكر ان كان مقلا ومن كان له سعة عمل رغيفا كبيرا من الكماج وأبلوجة من السكر وطبقا من الفاكهة وقفة من النقل وشمعا ومن كان فقيراً أخذ من كل واحد من ذلك شيئاً ما فاذا كانت صبيحة تلك الليلة فرقن كل مااجتمع عند رأسه من ذلك ويزعمن أنه بركة لمن أخذه وأنه ينفعه من الصداع ويعللن ذلك أيضا بأن الملائكة تكتب بالدواة والقلم مايجرى على المولود فى عمره الى حين موته وذلك كله كذب محض وافتراء من قبل أنفسهن وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهن من كتب عصابة المولود بالزعفران يكتبون

فيها سورة يس أو غيرها من القرآن و يعصبنه بها فى يوم سابعه . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهن من جعل السكين التى قطعت بها سرة المولود عند رأسه مادامت أمه جالسة عنده فاذا قامت حملها معها تفعل هذا مدة أربعين يوما و يعللن ذلك لئلا يصيبها شئ من الجان . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهن من أن المولود اذا غابت عنه أمه لضرورة فى البيت ولم يكن عندها من يقعد عند المولود تجعل عنده كوزا مملوءاً ماء وشيئاً من الحديد . وكذلك يحذر مما أحدثه بعضهن من أخذهن شيئاً من الملح و يصبغن بعضه بالزعفران و بعضه بالزنجار غالبا و يخلطن فيه شيئاً من الكمون الاسود و يوقدون الشمع الذى كان عند رأسه وتلبس أم المولود ثيابا حسانا و يدرن بها و بولدها البيت كله والقابلة أمامها حاملة للمولود وامرأة أخرى أمام القابلة معها طبق فيه الملح المذكور و ينثرنه فى البيت يمينا وشمالا و فى الطبق شئ من البخور بخور مخصوص بالولادة و يزعمن أنه ينفع من الأمراض والكسل والعين والجان والشر كله وهذا منهن كذب وافتراء و بدع ليست من الشرع المطهر فى شئ . فاللبيب من سلم نفسه وأهله و ولده الى الشرع الشريف وترك كل ماأحدثه المحدثون لأن كل من أحدث شيئاً فالغالب أنه يعلله بتعاليل لايقوم منها شئ على ساق لكن لايظهر باطلها الا لأهل العلم والبصيرة والتمييز غالبا فليحذر من العوائد الرديئة كائنة ماكانت وحيث كانت فالخير كله فى الاتباع والشر كله فى الابتداع . أسأل الله أن يمن علينا بالاتباع وترك الابتداع بمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم وسلم . و ينبغى لولى المولود ان كانت له قدرة أن يعق عنه فى سابعه لأنها سنة مؤكدة وحكمها حكم الأضحية فى السن والسلامة من العيوب . وقد سئل عليه الصلاة والسلام عما يتقى فى الضحايا فأشار بيده الكريمة وقال أربع العرجاء البين عرجها والعوراء البين

عورها والمريضة البين مرضها والعجفاء التي لاتنقي (١) ووقتها طلوع الشمس من اليوم السابع فان ولد المولود في أثناء اليوم طرح ذلك ولا يحسب ويتحفظ فيها كما يتحفظ في الأضحية فلا يعطى الجزار أجرته من لحمها ولا جلدها وكذلك القابلة لأن ذلك عوض فيدخل ذلك في قسم البياعات ولحم الأضحية والعقيقة لايجوز بيعهما ومن هذا الباب مايفعله بعض الناس في هذا الزمان وهو أن يأتي بما يذبحه في العقيقة الى المسمط فيعطى جلدها ورأسها وأطرافها للصانع الذي يعملها وذلك محرم لايجوز. هذا ان عملها سليخا وأما ان عملها سميطا فقد تقدم مافي ذلك من المفاسد فأغنى عن اعادته. وينبغي أن لايعمل بها وليمة ويدعو الناس اليها لأنه لم يكن من فعل من مضى. وقد سئل مالك رحمه الله أيصنع منها طعام ويجمع عليه الاخوان فانكر ذلك وقال تشبه بالولائم وقال انما تطبخ وتؤكل ويطعم الجيران. وينبغي ان كان المولود ممن يعق عنه أن لايوقع عليه الاسم الاحين يذبح العقيقة ويتخير له في الاسم مدة السابع فاذا ذبح العقيقة أوقع عليه الاسم وان كان المولود ممن لايعق عنه لفقر وليه فيسمونه في أي وقت شاؤا. ثم العجب ممن يدعي الفقر منهم ويعتل به على ترك سنة العقيقة ويتكلف لبعض العوائد التي أحدثوها مايزيد على ثمن العقيقة الشرعية. فمن ذلك مايفعله بعضهم في اليوم السابع من عمل الزلابية أو شرائها وشراء ماتؤكل به ماثمنه أضعاف مايفعل به العقيقة الشرعية. هذا مايفعله بعضهم في اليوم السابع مع وجود النفقة الكثيرة فيه لغير معنى شرعي بل للبدعة والظهور والقيل والقال. وبعضهم يفعل ذلك أيضا في اليوم الثاني من الولادة. وبعضهم يفعل ذلك في اليوم السابع وفي اليوم الثاني والثالث من الولادة. وبعضهم يقتصر على أحدهما ويعتلون في ذلك بكونهم لايقدرون على العقيقة والعقيقة الشرعية ثمنها أيسر وأخف من ذلك بل لو

(١) لاتنقي بضم التاء وسكون النون أي التي ليس لها نقي بكسر فسكون «أي شحم»

اقتصر على ترك ماأحدثوه فى العصيدة من البدعة لكان فيه ثمن العقيقة الشرعية وزيادة لأن العصيدة لايحتاج اليها الا النفساء وحدها فزبدية واحدة أو دونها تكفيها وهم يعملون العصيدة ويشترون ماتوكل به ويفرقون ذلك على الاهل والجيران والمعارف وهذا شىء لم يتعين عليهم ولم يندبهم الشرع اليه وان كان اطعام الطعام مندوبا اليه فى الشرع الشريف لكن مالم يعارض ذلك ترك سنة وهم لو اشتروا بثمن العصيدة وماتوكل به مايعق به على الوجه الشرعى لكان فيه الكفاية وزيادة . ثم يزيدون مع ذلك مايتخذونه من النقل ليلة السابع ويفرقونه فى يومه كما تقدم بيانه . وهذا فى حق الفقير منهم . ومنهم من يعوض عن النقل المذكور حلاوة على صفة معلومة تشبه النقل يسمونها بالمغزدرات وبعضهم يسمونها بالنثور وذلك من باب السرف والبدعة ومحبة الظهور والخيلاء وترك السنن والاهتبال(١) بأمرها واغتنام بركتها . ثم مع ذلك زادوا عادة ذميمة وهو أنهم لابد أن يجددوا كسوة لأهل البيت وكذلك كل مايحتاج اليه البيت حتى الحصير لابد من تجديدها الى غير ذلك مما اعتادوه فانظر رحمنا الله تعالى وإياك الى صرف هذه النفقات وكثرتها وتشعبها ثم انهم مع ذلك يعتلون لترك العقيقة الشرعية بعدم القدرة عليها . وبعضهم يتداين لتلك العوائد ولبعضها ويعتلون بأن العقيقة لاتجب عليهم فلا يشغلون ذمتهم بالدين لاجلها ويشغلون ذمتهم بالدين لاجل تلك العوائد عكس ماندبون اليه ويطلب منهم فى الشرع الشريف . ثم ان التداين لأجل العقيقة الشرعية يخلف على المنفق عليها وييسر عليه وفاء دينها كالاضحية لبركة امتثال السنة فيها وكذلك فى جميع أمور الامتثال ولاشك أن الشيطان اللعين ألقى اليهم ذلك حتى يحرمهم بركة امتثال السنة لاجل أن فعلها بركة وخير وغنيمة وهى

(١) الاهتبال الاهتمام

بالنسبة الى مايكلفهم من العوائد يسيرة النفقة وفيها الثواب الجزيل وفى العوائد ضد ذلك ولو لم يكن من فعل البدعة من الذم الا أن النفقة فيها لاتخلف ولا يثاب عليها مع تعبه لاجلها ففيها التعب دنيا وأخرى . وفى فعل العقيقة من الفوائد أشياء كثيرة منها امتثال السنة واخماد البدعة ولو لم يكن فيها من البركة الا أنها حرز للمولود من العاهات والآفات كما ورد فالسنة مهما فعلت كانت سببا لكل خير وبركة والبدعة بضد ذلك . وقد حكى عن بعضهم أنه دخل عليه بعض أصحابه فوجدوا الذهب والفضة منثورين فى بيته وأولاده ذاهبون وراجعون عليها فقالوا له ياسيدنا أما هذا اضاعة مال قال بل هى فى حرز قالوا له وأين الحرز قال لهم هى مزكاة وذلك حرزها فكذلك فيما نحن بسبيله من عق عنه فهو فى حرز من العاهات والآفات وأقل آفة تقع بالمولود يحتاج وليه أن ينفق عليه قدر العقيقة الشرعية أو أكثر منها فمن كان له لب فليبذل جهده على فعلها لانها جمعت بين حرز المال والبدن أما البدن فسلامة المولود سيما من الآفات والعاهات كما تقدم وأما كونها حرزا للمال فان النفقة فى العقيقة نزر يسير بالنسبة الى مايتكلفونه من العوائد المتقدم ذكرها وغيرها من النفقات فيما يتوقع على المولود من توقع العاهات والآفات وفيها كثرة الثواب الجزيل لأجل امتثال السنة فى فعلها وتفريقها سيما فى هذا الزمان فان فيها الأجر الكثير لقلة فاعلها . لقوله عليه الصلاة والسلام (من أحيا سنة من سنتى قد أميتت فكأنما أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة) فقد شهد عليه الصلاة والسلام لمن أحيا سنة من السنن اذا أميتت بالمعية معه عليه الصلاة والسلام فى الجنة . والعقيقة فى هذا الزمان قل أن تعرف وان عرفت عند بعضهم فبالاسم ليس الا فى الغالب منهم لانهم يفعلون فيها أفعالا تخرجها عن الوجه المشروع فيها . فمنها مخالفة وقتها الشرعى الذى تذبح فيه

لان بعضهم يؤخرها عنه وليس ذلك من السنة وان كانت تجزى عند بعضهم لكن فوت نفسه فضيلة امتثال السنة فى الوقت الموضوع لها ومنها عدم التوفية بشروطها اذ أنهم يعطون من لحمها وجلدها للصانع كما تقدم بيانه . وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم فيمن كان له ثوب للجمعة ولافضل عنده غيره فانه يبيعه حتى يضحى فكذلك يبيعه حتى يعق عن ولده وكذلك قالوا انه يتداين للأضحية فكذلك يتداين للعقيقة سواء بسواء واذا اختاروا له الاسم من حين ولادته الى سابعه كما تقدم فينبغى أن يختاروا له من الأسماء ما كان سالما من التزكية والكنى المنهى عنها فى الشرع الشريف وقد تقدم ذلك بما فيه كفاية وله فى التسمية بأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأسماء الصحابة رضى الله عنهم مقنع وبركة وخير فيقتصر على ذلك دون غيره . وقد وقع لسيدى أبى محمد رحمه الله وهو بمدينة تونس أنه لما أن ازداد له مولود طالبوه ببعض عوائدهم الجارية فأبى عليهم وقال السنة أولى قال وكنت مريضا لا أقدر على الحركة فلما أن عزمت على العقيقة وجزمت بها رأيت فيما يرى النائم أنى ماش على طريق ومعى شخص فبينما نحن نمشى فى الطريق واذا بجيفة قد عرضت لنا فى وسطها فقال لى ذلك الشخص الذى كان معى عسى أنك تعيننى على زوال هذه الجيفة عن الطريق لأن النبي صلى الله عليه وسلم يعبر من هنا الساعة قال فقلت له نعم فأزلنا الجيفة عن الطريق ونظفناه واذا بالنبي صلى الله عليه وسلم قد أقبل فسلمت عليه فقال لى وعليك السلام يافقيه ورحمة الله وبركاته فانتبهت من نومى فوجدت العافية فى الوقت فأصبحت وخرجت واشتريت الذبيحة للعقيقة بنفسى فلما أن عملتها جمعت بعض الاخوان وحدثتهم بما جرى فاشتهر الأمر وكانت العقيقة اذ ذاك قد دثرت عند بعض الناس حتى كأنها لاتعرف فاشتهرت بعد ذلك فى البلد . وهذا هو نص الحديث

الوارد عنه عليه أفضل الصلاة والسلام حيث قال من أحيا سنة من سنني وقد تقدم فأولت الجيفة على العوائد وأولت ازالتها وتنظيف الطريق على امتثال السنة . والله الموفق

الختان

﴿فصل﴾ وأما الختان فقد مضت عادة السلف أنهم كانوا يختنون أولادهم حين يراهقون البلوغ . لكن قد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم ختن الحسن والحسين يوم السابع أو نحوه والأمر فى ذلك قريب فأى شىء فعله المكلف كان ممتثلا وذلك راجع الى مقتضى التعليل لان الصغير ليس بمكلف والقطع منه قبل تكليفه فيه ايلام له بما لا يلزمه فى الوقت وأما ختانه حين المراهقة فهو متعين لان كشف عورته بعد البلوغ محرم لكن يدخل عليه فى ذلك الألم الشديد والبطء فى البرء بخلاف الصغير فان ألمه خفيف وبرأه قريب . واختلف ان ولد مختونا هل يختن أم لا على قولين . فمنهم من قال هذه مؤنة كفانا الله اياها فلا حاجة تدعو الى فعلها ولان كشف العورة من كبير وصغير لا يباح الا لضرورة شرعية والضرورة معدومة والحالة هذه وقال بعضهم لابد من اجراء الموسى عليه ليقع الامتثال . والسنة فى ختان الذكر اظهاره وفى ختان النساء اخفاؤه . واختلف فى حقهن هل يخفضن مطلقا أو يفرق بين أهل المشرق وأهل المغرب فأهل المشرق يؤمرون به لوجود الفضلة عندهن من أصل الخلقة وأهل المغرب لا يؤمرون به لعدمها عندهن وذلك راجع الى مقتضى التعليل فيمن ولد مختونا فكذلك هنا سواء بسواء

تم الجزء الثالث من كتاب المدخل لابن الحاج
ويليه الجزء الرابع . وأوله فصل فى صفة الفلاحة

فهـــرس

الجزء الثالث من كتاب المدخل

لابن الحاج

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تم فهرس الجزء الثالث من المدخل ﴾